Mngool.com

نذير حمدان



ومرادفاته

مَفْهُومُهُ - وَسَائِلُهُ
عُمُومِيَّتُهُ وَشُمُولِيَّتُهُ - قِيَمُهُ الجَوْهَرِيَّة - عَوَاطِفُهُ
مَسْئُولِيَّاتُهُ - مَوَاقِعُهُ - بَدَائِلُهُ وَعَائِدَاتُهُ
آيَاتُهُ الجَامِعَات - مُفْرَدَاتُهُ
صِيَاغَتُهُ الحَضَارِيَّة

دار المأمون للتراث
دمشق - ص.ب ٤٩٧١



إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الدراسة

قضية (الخير) ومعه مرادفاته من أعظم قضايا القرآن الكريم وأخطرها وأوعبها وأصدقها وأدلّها على حقيقته وقيمه ، ثم إنه من أرسخ القواعد الحضارية الواقعية والمثالية ، ولا بد من أن نعرض إلى مواقف المفكرين والفلاسفة منه قبل أن نفصّل الكلام عليه من خلال آي الذكر الحكيم .

نظرات في الخير والشر عبر التاريخ :

الخير أحد القضايا الإنسانية الموغلة في الوجود البشري ، وهو والشر أساس الدعوات والرسالات والأنظمة باعتبارهما يتعمقان في الحياة البشرية التي يدار فيها (الحكم) على الأشياء والتصرفات والعلاقات ، لاينّد عنهما ، ولا يخرج عن دائرتهما . وهما بذاتيّتهما وبمتعلقاتهما من العمليات الذهنية المبكرة ، ومن تقويم المجالات والمواقع عبر الزمن السحيق ، وما يزالان يحكمان على الأشياء من منطلقات مصيبة وخاطئة ، ووضعية وسماوية ، وكاملة وناقصة حتى إن العقل الإنساني وقوامه الفلسفيّ ونظراته العميقة وضعهما بما يستحقان من الأهمية والخطورة ، وأقام لهما المعايير وحدّد الغايات وربطهما بالعقائد والأخلاق والأعمال حتى جعل منهما (مشكلة) فكرية وعملية شاملة لجوانب الحياة والأحياء عرفت بـ (المشكلة الأخلاقية) .

● ويدهش بعضهم إلى (حجم) الخلافات حول الخير والشر باعتبارهما أساس المشكلة الأخلاقية التي أثارها الفلاسفة وحازت منهم على كل اهتمام ، ثم اختلفوا فيما بينهم في تقويمهما وغاياتهما وصار كل منهم يحاول أن يحل مشكلات الحياة من

وجهة نظره الأخلاقية ، ووضعت لذلك المذاهب ، وقدرت السلوكيات الإنسانية واتخذ بعضهم القيم ، وآخرون القوة ، كما اتخذوا المعرفة والحق في كثير من الأحيان ، وحاولوا أن يبنوا الحياة على هذه الأسس المختلفة في التطلع إلى المثل التي تحدد السلوك وتعمل في التربية والتهذيب ، وتؤسس الأنظمة السياسية وأجهزة الحكم .

وإذا نجحت التصورات النظرية أحياناً في إقامة مذهب أخلاقي من الوجهة الفلسفية والفكرية فإن تخبط البشرية في متاهات الفساد وشيوع المظالم والأنيانيات ، وانتشار التعديات تؤكد على الفشل الهائل المؤلم في (التغيير) الإنساني .

● في المذاهب الأخلاقية اليونانية : وقبل أن نفصل الكلام عليها لا بد من أن نبرز الغاية منها **وهي محاولة الوصول إلى (السعادة)** ، فإن الخير المطلق والجزئي وسيلة وغاية للسعادة المنشودة ، وحين نرى اختلافات الفلاسفة في سبلها وطرق الحصول عليها فإن معرفة (الواجب) والقيام به وتقدم معطياته أعظم جوانب السعادة التي يتطلع اليها الفكر والمفكرون ، وكان (**سقراط**) (**ت ٢٩٩ ق . م**)في عصر (الميتافيزيقيين)(مذهب ما وراء الطبيعة) وتفسيراتهم الغيبية للوجود الإنساني والكوني والإلهي التي ينحو معظمها إلى الأوهام والخيالات ، وإلى جانبهم (السوفسطائيون) الذين اهتموا بطرق التفكير وأساليب الجدل عموماً والأساليب العقيمة خصوصاً حتى إنهم حين انعزالهم عن العلوم وجدوا أن البلاغة لما يريدون أنسب الطرق لإقناع الآخرين بوجهة نظرهم وإن كانت مجانبة للحق والعلم .

ولذا كان سقراط يبحث عن (الحكمة) ويخاطب بقوله : إذا وجدت ما يلزمك بدون أن تبحث عنه فذلك ما أسميه الحظ السعيد ، أما إذا كنت مديناً بالسعادة إلى عنايتك وبحثك فهذا فيما أرى هو السلوك الحسن ، والسعداء بهذه الكيفية هم حقاً المحسنون .

وأولى الفضائل في نظره (القناعة) فهي (المصدر الحقيقي لأكبر لذّة)

(وهي وحدها تعلمنا الصبر عند ضغط المطالب ويمكنهاأن ترشدنا إلى اللذات الخالصة) وثانيتها : (العمل) فكان يقول : (أترى أن الرضاء وعيشة البطالة يساعدان على تعلم ما يلزم معرفته . وعلى الاحتفاظ بما تعلّمه الإنسان . . . وأن العمل والجد لا دخل لهما في ذلك ؟) . وثالثتها (العدل) وهو يرى أن القوانين نوعان : مدوّن ليسود السلام والعمران ، وغير مدوّن وهي صادرة عن إرادة (الآلهة) . . . وهكذا (فإن مذهب سقراط الأخلاقي (الخير والشر) لم يخلُ من العنصر الديني فهو يذعو العاقل إلى الاعتقاد في وجود الآلهة وتقديسها . . . وذلك بتقديم القرابين حسب الشعائر الموجودة في (إقليمه) ، غير أن القربان - كما يقول - ليست له قيمة ذاتية ، وإنما قيمته تتبع إخلاص القلب . . . وكانت صلاته بسيطة لا تعدو طلبه من الآلهة أن يمنحوه الخير ، فهم أعلم بالأصلح للإنسان . . .) [1] .

ثم اتّهم بإفساد عقائد الشبان من خلال (محاوراته) وحكم عليه بالموت من خلال فلسفته التي تتمحور بأن هناك حقائق عقلية ثابتة يمكن استنتاجها من الحالات الجزئية المتغيرة . والعلم والفضيلة شيء واحد لا يختلف باختلاف الأفراد [2] .

ولكن إذا كان سقراط يرى أن الحكمة بصلاح النفس وتغلغل الفضائل فيها بعيدة عن المنفعة الآنية واللذة العاجلة والفكر المتسع وسمو العقل والفضيلة والحق ، فهل تتحقق هذه نظرياً أو عملياً باتباع (آلهة) مباشرة أو وسطاء للالتزام بالمثل والخير المطلق ثم بتقديم القرابين حسب الشعائر الموجودة في إقليمه ؟

وكان تلميذه (**أفلاطون**) (**ت ٣٤٧ ق . م**) أكثر تلاميذه المتأثرين به وصاحب نظرية (المُثل) الثابتة الدائمة السرمدية وهي أساس العلم اليقيني الأعم منها والأخص ، وأعلى مثال هو فكرة (الخير) ، فهو في عالم المثل كالشمس في

---

(١) مقتبس من (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة) من ص ٤٥ - ٤٨ : أندريه كرسون .
(٢) الموسوعة العربية الميسرة ، ومن المرجعين أخذنا تراجم ومذاهب الباقين .

عالم المحسوسات ، والعقل في المجتمع هو طبقة الحكام الفلاسفة ، والشجاعة هي طبقة الحراس ، والعفّة هي طبقة العمال ، والعدل في تحقق هذه الفضائل الثلاث بأن تلتزم كل طبقة حدودها . وإذاً فإن فلسفته مثالية إصلاحية تربوية .

ومن مخالفاته لأستاذه سقراط ، مسألة الصلة بين الفضيلةوالعلم فقد أنكرها (أفلاطون) في كتابه (مينون) ورأى أن العلم ينتقل من عقل إلى عقل عن طريق البراهين والأدلة ، وليست الفضيلة كذلك ، فإن أفاضل (أثينا) لم يمكنهمْ لمجرد الدروس التعليمية أن يصيّروا أبناءهم فضلاء مثلهم ، فليس العلم وحده هو الذي يصيّر الرجل فاضلاً ، وإنما الفضيلة التي ترجع إلى إلهام وبصيرة ويشربهما قبس من التحمس الديني . وعلى الرغم من أهمية الدّين عنده أكثر من أستاذه سقراط فإن (أساطيره) تذهب كل مذهب في صيرورة الأرواح بعد الموت ، وأنها تحيا بعد الموت حياة جديدة . وفي كتابه (فيليب) أهم كتبه الأخلاقية يحدد فيه معنى الخير ، وهو كأستاذه لا يتردد في القول بأن الخير المطلق هو السعادة والإنسان الذي يحياها لا يريد لها بديلاً ، وطبيعة الخير كما قال سقراط أستاذه : لها ميزة عن كل ما سواها . . . لأن فيها غنى عمّا عداها ، ثم ينتهي أفلاطون إلى القول : ليس الخير وليست السعادة في اللذة وحدها أو في العلم وحده . . . وإنما اللذات هي التي تحدثها فينا الفنون الجميلة . . . وليست إرواء الشهوات البهيمية الوضيعة . وبعد أن يقرر أن العلم جانب منها فإنه اعتبر أن الخير المطلق تنسيق وانسجام بين العناصر التي يتكون منها ، والعلاقة بين هذه العناصر تتصل بناحية الجمال ، وكذلك فإن كتابه الأكثر شهرة وهو (الجمهورية) فإنه على كثرة تفصيلاته يرتكز على (موازنة) دائمة بين الفرد والجماعة الإنسانية ، ويلاحظ تأكيده على أهمية التربية في أعماله الفكرية ففيها الخير كله .

وكان (أرسطو) (ت ٣٢٢ ق . م) أول مَنْ (مَذْهب) الأخلاق في كتابه (الأخلاق إلى نيقو ماخوس) ، فما الخير عنده ؟ إنه السعادة التي نريدها دائماً لذاتها لا لغاية أخرى وراءها ، ولكن ما السعادة ؟ إنها الوظيفة أو المهمة الخاصة بالإنسان باعتباره إنساناً ، وذلك حين ينتهج الحياة العقلية ، وهو وحده

قادر عليها ، ولكن ما هذه الحياة العقلية ؟ إنها تتمثل في صورتين : الصورة الأسمى : حياة التأمل ، الحياة للمعرفة والعلم والفلسفة ،وهي حياة (الله) نفسه التي يفكر فيها بذاته وفي نفسه في إحاطة وشمول ، وهي بلا شك ليست في متناول الجميع . والثانية : وهي أيضاً حياة تتميز بنمو الفضائل الأخلاقية (العملية) .

وهذه الفضائل لا تعد فضائل إلا إذا أصبحت عادات مستمرة ، والخطة لذلك هي أن يقوم الإنسان بالتمرين اللازم من غير أن يُفرْط فيه أو يُفرِّط . ثم عمل (أرسطو) قائمة كبيرة بالرذائل والفضائل منها .

رذائل الإفراط : مثل : التهور ، الشهوانية ، الغرور ، الادّعاء الكاذب ، الشراسة ، المجابهة . . .

ورذائل التفريط : مثل : الجبن ، البلادة ، الخسّة ، ضعة النفس ، الضعف ، الملق . . .

وفضائل أوساط : مثل : الشجاعة : الاعتدال ، العزة ، السّراوة ، الحلم ، المجاملة . . . وإذا نظم الإنسان حياته تبعاً لهاتيك القواعد عاش عيشة عقلية ، ولكن تمنعه من أخذ حظه من اللذة التي هي ظاهرة من ظواهر الحركة والتغير . وإن من لا يجد لذة في العمل الخير لا يوصف في الواقع بأنه رجل أخلاقي ، كما لا يوصف الرجل الذي لا يحلو له العدل والحرية بأنه عادل حر وهكذا . . .

وينتهي أرسطو إلى القول بأن أنواع الخير ثلاثة :

خير خاص بالنفوس ، وهو جوهري وما عداه تابع .

وخير خاص بالأجسام ، فمن الواجب أن ينعم الجسم بالصحة .

وخير خارجي ، من النفوس والأجسام .

وإن قرب أرسطو من (الواقعية) في فهم السعادة والخير جعله يتعرض للنقد اللاذع في التصورات الفلسفية الأخرى .

وكان (**أبيقور**) (ت ٢٧٠ ق . م) أكثر الفلاسفة إثارة للنقد الحاد ، وهو من أول الذين بحثوا في الشر والشقاء قبل أن يبحثوا في الخير والسعادة ، ويرى

أنهما شيئان هما : الإيمان بالآلهة التي تهتم بأمر البشر ، والفزع من الموت ، فبالأولى ينسى الإنسان أن ينظم حياته ، وبالثانية يزداد فزعه ، وإن (جوبيتر) يرسل صواعقه على معبده ، وإنه مع الآلهة الأخرى تعيش بعيدة عن العوالموتهتم بشئونها الخاصة ، ولنفعل نحن البشر نحوها كما تفعل معنا ، وأما الروح فهي مجموعة ذرات تتحلل عند الموت الذي لا يبعث الاضطراب إلا في نفوس الجهلة ، وإذاً فلا بد أن يرغب في الملاذ كخير أسمى ويستبشع الآلام كشر محض ، فالخير المطلق إذاً هو اللذة ، والشر المحض هو الألم ، والسعادة هي الحصول على اللذات والابتعاد عن الآلام . ويفرق بين نوعين من اللذات : نوع ساكن مثل انعدام الألم وهو تمتع يبلغ القمة ، ونوع متحرك مثل : لذة الأكل والشرب والتناسل ، وليس الإكثار من اللذات تجعل المرء سعيداً وإنما تلك الحياة المتزنة الخالية من الألم . وإن هدف الأخلاق الوحيد هو تعليمنا تحاشي الألم ، وقسّم الرغبات إلى :

١ ـ طبيعية ضرورية مثل الرغبة بالأكل والشرب والنوم ، ومن غيرها تعرّض للموت وهي قليلة العدد فإن قطعة من الخبز تقي من الموت مثلاً .

٢ ـ طبيعية غير ضرورية كالرغبة الجنسية وخطرها جاثم في الاعتياد عليها .

٣ ـ رغبات ليست طبيعية ولا ضرورية : وهي بفعل البيئة الاجتماعية وتأثيرها ، أو بسبب إرادته الظهور والشهرة أمام الآخرين مثل : الرغبات الخاصة بالبخل والطموح ، والحكيم ينبغي له أن يعدل عنها تماماً .

ويؤكد على (القناعة) فهي وحدها تسعد القانع ، والبحث عن السعادة في حياة الدعارة جنون عجيب ، وينصح الناس بـ (التبصر) الذي يسعدنا ويصيّرنا حكماء . فهو ينصحنا بالاعتدال والشجاعة والعدل والإخلاص ، ويرشدنا إلى حسن الصداقة وقيمتها السامية . وتلك الآلام التي لا يمكن تحاشيها فإن معرفتنا بها وتذكر فترات السعادة يمكن أن تخفف منها أو تزيلها ، ولكن آلام الروح أقساها وأشد أنواعها ، وأن اللذة الروحية أسمى اللذات ، والحكيم هوالذي يبحث عنها ويستكين إلى السعادة في ظلالها ، أما الفضائل السابقة فهي

ليست إلا جوار تسعى في خدمة اللذة . وهي تضمن لمن يقوم بها السعادة الحقيقة .

وعلى هذا فإن أساس فلسفة (أبيقور) هي لذة التأمل التي لا يعقبها ألم ، وأن مفهومها (فنّ) إسعاد الذات بالمتعة العقلية . وقد أسيء فهمها ، فقيل : إنه كان يدعو إلى الملاذّ من غير قيود ولا حدود ، ولكن من الثابت أنه كان عرضة للنقد الشديد بسبب حصر الفضائل في اللذة وباستغلالها في الأعمال ، والسلوكيات المنحرفة .

● **ومنها مذهب الرواقيين** : وعمدتهم (زينون الرواقي ت ٢٦٤ ق . م) : وهم من الناحية السيكلوجية (النفسية) ينبهون إلى مبدأين هامين :

١ ـ العواطف أحكام ، وهي أربعة أساسية : الحب والكراهية والأمل والخوف ، وكلها تؤول إلى آراء وأحكام، أليس حب شيء مايعني الحكم بأنه حسن، وبأنه يجب أن يطلب ، وأن الكراهية تعني الحكم على الشيء بأنه سيء وأنه ينبغي أن يتحاشى ؟

٢ ـ الإنسان حر في أحكامه وأن الأشياء لا تبعث فينا الاضطراب بل إن الباعث للاضطراب إنما هو الاراء التي عندنا عن الأشياء ، فالموت مثلاً إذا كنتُ أرى أنه شر فإن اقترابه يبعث في نفسي الضيق ، أما إذا كنت أرى أنه خير فإن اقترابه يبعث في نفسي السرور ، وإذا كنت أرى الحياة والموت يستويان فإني لا أعير الموت أية أهمية . والحصول على الغبطة الكاملة تتحقق في ألا نعتبر خيراً أو شراً إلا ما هو خاضع لإرادتنا وما هو من عملنا مثل : رغباتنا وآرائنا وعواطفنا . أما ما يكون الحصول عليه غير خاضع لإرادتنا فيجب أن يستوي لدينا امتلاكه وعدمه كالثروة والجمال والمجد والحياة . . . وينصحنا بالتأنّي في تناول الأمور ، ومن الوجهة الاجتماعية الطيبة أيضاً يقول : أخوك ظالم لك ، لا تأخذه من هذه الجهة وإنما خذه على أنه أخوك وعلى أنكما قد غذيتما من ثدي واحد .

ويعيب النقّاد على الرواقيين عموماً أخطاءهم السيكلوجية في العواطف وغلوهم فيما يمنحهم للإرادة من قدرة على الاعتقادات والعواطف .

ونستنتج مما سبق أن الفلاسفة اليونانيين القدامى **يعلنون تأثرهم بالدين**

والآلهة ولكنهم يرون أن الإنسان مزوّد بطبيعة خاصة تتميز ببعض المطامح ، موجّه إلى معرفة نفسه وإشعاره بما يريد ، باحث عن السعادة في الخير العام ولكنهم اختلفوا فيما بينهم في تحديدها وطرق الوصول إليها .

● **في التفكير الحديث وتعاليم المسيحية** : شهد الفلاسفة (الوضعيون) تناقض النصوص الدينية ، وتناقض الفلسفة المشيدة على الدين ، وتقدم الأبحاث الاجتماعية ، وسلوكيات منحرفة لرجال الكنيسة فتمرّدوا على الكنيسة ورجالها أولاً ثم تنكروا للمسيحية وللدين أخيراً . وبدأ النقاد منذ القرن ١٧ م يهاجمون عن طريق العقل نصوص العهد القديم والجديد وما فيهما من متناقضات عقلية ، وكان (سبينوزا ت ١٦٧٧ م) اليهودي زنديقاً وملحداً في نظر الكنسيين لاعتراضه عليهم وعلى النصوص الكنسية ، وهو وبعض أتباعه يرون الشر يسود العالم مثل : الشر الميتافيزيقي الصادر عن (ما فوق الطبيعة) كالنقص الخلقي في الخليقة ، وشر فيزيقي (طبيعي) ويشمل آلام القتل والمرض والإهانات ، وشر أدبي : وسببه عدم مراعاة قوانين السلوك وهو الشر الأخلاقي مثل الخطيئة والإجرام ،ثم يبلورون (المشكلة الأخلاقية) مشكلة الخير والشر بتساؤلهم : كيف يمكن أن نوفق بين أعمال كهذه وبين العناية الإلهية المفروضة ؟

ويتابع (بسكال) معترضاً مسألة الآلام الإنسانية بسبب الخطيئة الأصلية الأولى ويقول : لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية ، وإنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة ارتكبها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة . . . ويفلسفونها بقولهم : ولنفرض أن آدم كان حراً في أن يخطىء أو لا يخطىء ، أكان يمكن أن يعلم الله أنه سوف يخطىء إذا كان لا يمكن أن يعلم ذلك من قبل[1] .

---

(١) يقول المترجم معلقاً : لسنا ندري لماذا يحتم أولئك الفلاسفة تنافي العلم الأزلي وحرية العبد ، إن تلك الحرية لا تعدو استعداداً وصلاحية للعمل ولعدمه ، فلماذا لا يتعلق علم الله بأن العبد سيعدل عن عمل كذا إلى سواه ، في حين أنه كان في الأصل وبدون مراعاة هذا التعلق يمكنه أن يختار عما عدل عنه ويعدل عما اختاره ؟

وكان (دولباخ) ينكر عقيدة الله أشد الإنكار ويقول : إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات، ويتساءل عن الطيب والقدرة والنظام والعدل والوجود الكامل لله مع أن كل شيء موجود على خلافه ثم يقول في تأليه المادة : فلا شيء ، سوى المادة ، تلك المادة التي تنتج ما تنتج دون غاية ودون شعور بل بنوع من الاختمار والتفاعل[1] .

وبدا (فوليترت ١٧٧٨) مؤمناً بفكرة وجود الله ولكنه كان يأنف من أن يعتقد بخلود الروح .

وهذا كله يؤثر في المسألة الأخلاقية والضمير الخلقي وتبدلها ، حتى أدى ببعضهم مثل (كوك) و(بوجنفيل) إلى الاعتقاد أن ما يعتبره المتحضرون الغربيون خيراً أو شراً ليس كذلك عند البدائيين الأمريكيين . ويعرضه أحدهم (ديدرو) بقوله : إذا كان الله يوحي إلى الناس ما هو خير وما هو شر عن طريق صوت الضمير ، فلماذا يوحي إلى بعض الناس بأن نوعاً من السلوك أمر واجب ، وإلى آخرين بأنه من قبيل المباح ، وإلى سواهم بأنه إثم ؟

وبغض النظر عن تخلف المعطيات الإلهية السابقة عن الحقيقة الدينية في الواقع فإن مصداقيتها بعدم تعارض بعضها ببعض بسبب وحدة مصدرها فلا يكون الشيء خيراً في دين ثم يصبح إثماً أو شراً في دين آخر .

وما أن يأتي (كانت ت ١٨٠٤ م) حتى يعلن الوضعيون فصل فلسفتهم الإلحادية عن التعاليم الميتافيزيقية ، ففي كتابه (نقد العقل الخالص) يقول : نحن لا نملك إلا ثلاث قوى للعقل : الإدراك الحسي ، والإدراك الكلي ، والعقل . . . وبعد أن يحدد العملية العقلية في الأشياء ، يعلن أن أي تفكير منطقي لن يستطيع أن يقدم دليلاً على وجود الله ولا على خلود الروح ولا على حرية الإرادة التي تستمد منها الأخلاق الإلهية المأثورة كل مقرراتها وأدلتها .

---

(١) إرجاع الكون إلى أصل مادي هو من الطغيان العلمي المادي في عصر النهضة ، وقد أثبت العلم خطأ هذا الأصل بالتكوين الروحي والعاطفي ثم بتوسيع المعارف البشرية فيما بعد .

وأقرب ما يبرهن على خطأ هذا التفكير المنكر هو (تعارضه) مع الملاحدة (الانسكلوبيديين) الذين أعلنوا من قبل عن الأخلاق الإلهية ووجود الله عموماً . فضلاً عن أن هذه الأخلاق غير قابلة للبرهنة العقلية (الكانتية) خصوصاً ، وعلى هذا فيستحيل أن يوثق بكلام (كانت) في الإلهيات،ومن ثم كيف يطرح جانباً (الحجم) الهائل من البراهين الثابتة التي قدّمها أسلافه ومن بعده على صحة الإلهيات وصدقها وثباتها ؟

وفي مقدمة الفلاسفة الاجتماعيين (هوبز ت ١٦٧٦) الذي صور الإنسان القديم ذئباً على أخيه الإنسان ، وينتقد (أرسطو) في تعريف الإنسان أنه مدني بالطبع،فمثل هذا المفهوم أخص بجماعة النمل والنحل ويقول : إن الطوائف الاجتماعية إنما نشأت عن حاجة كل فرد إلى الشعور بالطمأنينة ، ولا بد أن يوضع (عقد اجتماعي) بين الأفراد ، وهو ما سماه بـ (القانون الطبيعي) ويعني به من وجهة نظره ، ما يجب عمله ، وما يجب الامتناع عنه ، ويرى النقاد أن (القانون الطبيعي) والمعروف بـ (قانون الأخلاق) مقتبس في معظم مبادئه من وصايا الإنجيل [(١)]

● **في المذاهب الأخلاقية المعاصرة** : إن الأسس الفلسفية للمذهبية الأخلاقية المعاصرة وجّهت السلوكيات الوجهة المنحرفة وساهمت بمساعدة الفلاسفة اليهود أمثال : فرويد ، ودوركايم ، وماركس ، وسارتر على تعددها وإرهاق الإنسانية بتحللها وفسادها ضمن الأسس والأطر النفسية والاجتماعية والفنية .

وكان تبدل القيم الخلقية ، وتحديدها في الأخلاقيات المادية ، وتشويه الحرية ، وإعلاء الوجودية ، ومعالجة الهيبة ذات عمق في تكوين الخلق الغربي الذي غزا عالمنا الإسلامي بمغريات شتى ، وصرعات متجددات . ومن صوره انهيار الشباب ، وإغراقهم في الشذوذ ، وتزايد معدلات الجرائم بالعنف من ناحية ، ومن ناحية أخرى : الانعزالية الاجتماعية ، والخواء الروحي

---

(١) انظر بعضها في : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ١٥٦ مرجع سابق .

والخلقي . . .

ومن صور الماركسية : انكار الدين ، والتفسيرات الإيدلوجية للحرية والعدالة ، والعنف الجماعي ، والانحلال الجنسي . وكثيراً ما ربط (ماركس) ظهور الأديان في الشرق بالأوضاع الاقتصادية ، وأن الإسلام كما تقول دائرة المعارف السوفيتية لعب دوماً دوراً رجعياً ، فهو أداة روحية للقمع . . . والمبدأ الشيوعي ذاته يحتم شيوعية المال والنساء،وكان (لينين) يقول في خطابه عام ١٩٢٠ في اتحاد الشباب الشيوعيين : نحن لا نعتقد بوجود أخلاق أزلية ، وكل القصص الخرافية التي ترمي إلى غرض أخلاقي هراء . . . وليست الأخلاق الشيوعية منبع الفضائل والمعاني الإنسانية من الصدق والأمانة والمحبة والقناعة والمروءة[1] . وأخيراً فإن الشيوعية اليوم تقترب من الرأسمالية ، بينما تستغل هذه حاجات تلك في مصالح أو ضغوط اقتصادية غير عابئة بالمستويات الخلقية التي يخشى الكثيرون ومنهم (اشبلنجر) من تدمير الحضارة الغربية إلى جانب ما نشاهد من فشل الشيوعية وأنظمتها وأجهزتها وأحزابها ورجالها ودولها .

وتلخص الموسوعة القول ، أن « الأخلاق فرع من الفلسفة يبحث في المقاييس التي نميز بها بين الخير والشر في سلوك الإنسان ، وللفلاسفة في ذلك مذهبان رئيسيان :

أحدهما : يجعل الخير أمراً مطلقاً لا يتغير بتغير المكان والزمان .

والآخر : يجعله أمراً نسبياً يختلف باختلاف الظروف القائمة .

ويرى أنصار الاتجاه الأول أن خيرية الفعل كائنة في الفعل ذاته ، وتدرك بالحدس أو بالعقل ، كما يرى « كانت » . فالواجب الخلقي مفروض بحكم العقل لا بدافع العواطف . ولذلك هو واجب على كل إنسان مهما تكن ظروفه ، وبغض النظر عن نتائج الفعل ، سارة كانت أو مؤلمة .

ويرى أنصار الاتجاه الآخر أن خيرية الفعل مرهونة بغايته . فالخير هو

---

(١) انظر صوراً أخرى من الأخلاق الغربية والماركسية في : الأخلاق الإسلامية للمؤلف .

مايؤدي إلى السعادة أو إلى اللذة ، أو إلى المنفعة . ومن المدارس المؤيدة لهذا الاتجاه : القورينية ، والأبيقورية [٢] ، قديماً ، ومذهب المنفعة حديثاً .

وإذا ربط الغرب والشرق اليوم الخلقية بالمصالح الشخصية ، والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية، فإن تطورها وتبدلها وعدم ثباتها في بلادها ، وطغيانها وعنفوانها وشراستها خارج بلادها ، توسع أبعاد المشكلة الأخلاقية وتزيدها تعقيداً ، وتحصر الخير في تصوراتها المادية والشر في التصورات المغايرة ، وتفقدها المضامين الروحية والمبدئية والدينية ، ومن هنا فإن العالم المتقدم مدنياً وتقنياً متخلف خلقياً وروحياً ، وهو بأمسّ الحاجة إلى الأخلاق الإسلامية القرآنية وتوجيهاتها النظرية والسلوكية في المجالات النظامية المتنوعة والمتشعبة في الاقتصاد والسياسة والعلوم .

والمجالات العملية المختلفة ، والعلاقات الدولية والإنسانية .

وهذا هو ما يعنى به البحث الذي سيبرز (مجالات) الخير و(مواقف الناس) منه ، ومفاهيم (الحسن) و(القبح) و(الصلاح) و(الفساد) ومواقع (البر) و (الإثم) . . . وأهميتها الحضارية من المنظور القرآني وفي واقع الحياة ، ثم أليست أمثال هذه (الخيرات) دعامات (التغيير) الإنساني في رحاب الحضارة القرآنية تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً ؟ نسأل الله المعونة والتوفيق والرشاد .

المؤلف

---

(١) مادة (الأخلاق) .

(٢) الأبيقورية نسبة إلى الفيلسوف الإغريقي أبيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م) . أما القورينية فنسبة إلى قورينه وهي مستعمرة إغريقية تأسست حوالي ٦٥٠ ق . م واشتهرت في القرن الرابع ق . م بفلاسفتها . وما زالت آثار قورنية وبقاياها قائمة حتى الآن (قرب مدينة البيضاء الحالية بليبيا) وتعتبر المنطقة وآثارها ومناظرها الطبيعية من أشهر المناطق الأثرية والسياحية بالشمال الإفريقي .

الخير والشر بين اللغة والاصطلاح

الخير في الوضع اللغوي : فهو بحروفه الثلاثة يدل على أصل العطف والميل ، ثم يحمل عليه كما قال ابن فارس في (المقاييس)،ويزيد معللاً : فالخير خلاف الشر لأن كل أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه ، ويشققه : والخيرة : الخيار ، والخير : الكرم ، والاستخارة : أن تسأل خير الأمرين لك ، وكل هذه من الاستخارة ، وهي الاستعطاف .

ثم يصرّف الكلام فيقال : رجل خيّر ، وامرأة خيِّرة : فاضلة ، وقوم خيارٌ وأخيار ، ورجل خير وامرأة خيرة : فاضلة في صلاحها ، وامرأة خيرة في جمالها وميسمها .

وعلى هذا فالتصريف اللغوي يدل على المعنى الحسي والمعنوي للخير . وفي القرآن (فيهن خيرات حسنات) (الرحمن : ٧٠) .

وفي المعاجم اللغوية إضافات اشتقاقية ومعنوية لا تخرج عنه ، فالخِيْر : الكَرَم والجود ، والنسبة إليه (خيريّ) ويقال : خيار المال ـ لكرائمه ، وامرأة خيّرة : فاضلة في الجمال والخلق .

وفي (أساس البلاغة) : كان ذلك خيرة من الله ، ورسول الله خِيَرته من خلْقه ، واستخرت الله في ذلك فخار لي : أي طلبت منه خير الأمرين فاختاره لي . . .

و(القاموس) يستوفي معانيه حسب اشتقاقاته فيذكرها جميعاً : المال ، والخيل ، والكثير الخير ، والمخففة : في الجمال والميسم ، والمشدّدة : في الدين ، والصلاح ، وبالكسر : الكرم والشرف ، والأصل ، والهيئة ، و ـ الرجل على غيره خِيرة ، وخِيراً ، وخِيَرة : فضّله ، و ـ الشيء انتقاه ، والاسم : الخِيَرة . ثم يسوق كعادته أسماء بلدان وأعلام متضمنة أو مبدوءة به . . . وقد حظي

(الخير) بدلالات فلسفية وتربوية وأخلاقية جعلته من أغنى المصطلحات المتطورة استناداً إلى وضعه اللغوي الأصيل .

يضاف إليه اغناء (القرآن) هذه المعاني كل معاني (البر والصلاح والهدى والمعروف والحسن . . .) ومواقعه ومجالاته على صورة لا نعهدها في كتاب سماوي ولا وضعي آخر كما سيأتي تفصيله .

والخير Le Bein, Good في (المعجم الفلسفي) : أحد القيم الثلاثة في مبحث الأكسيولوجيا (القيم العليا) وهو في رأي المثاليين صفة كامنة في طبيعة الأفعال ، ومن ثم تكون ثابتة لا تتغير ، بينما يعدّها الطبيعيون صفة يخلعها العقل على الأفعال وفاقاً للظروف المتغيرة ، ومن هنا كانت تختلف عندهم باختلاف الظروف والأحوال .

والخير ضد الشر ، ويراد به عامة : كل مايبعث على الرضا ، والاستحسان لكماله في نوعه وللملاءمته ، أو لفائدته ، أو لاتفاقه مع الأوامر الإلهية .

والخير والشر من المعايير الكبرى للقيم الأخلاقية ، وينصب الخير على العمل أو الشيء في ذاته دون أن يلحظ فيه ما يلحظ في الواجب من فكرة الإلزام .

والخير الأسمى : قمة الخيرات ، والغاية العليا للأخلاق ، واختلف الأخلاقيون في تحديده ، فردّه مثلاً (أبيقور) ، و(استيوارت ميل) إلى اللذة والمنفعة ، والرواقيون : إلى ما وافق الطبيعة ، وأرسطو وليبنتز : إلى ما يمليه العقل ، وفضّل (كانت) تعبير الخير المطلق ليسوّي بينه وبين الواجب المطلق .

والخير الأسمى ، أو الخير المحض ، أو الخير المطلق ، أو الخير الأول هو الله ، غاية الغايات .

والشر في الوضع اللغوي والاصطلاحي : بحروفه الثلاثة أصل واحد يدل على الانتشار والتطاير ، كما قال ابن فارس في (المقاييس) ، ويقول : من ذلك الشر خلاف الخير ، ورجل شرّير ، وهو الأصل ، لانتشاره وكثرته ، وهذا يعني أن ذيوع الشر وانتشاره أظهر من ذيوع الخير وانتشاره ، وهو معلوم بالواقع .

ومن مشتقاته الغريبة (الشّراشر) يقال : ألقى عليه شَراشِره : إذا ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبة . . . وجمع ما انتشر من همه لهذا الشيء ، وشغل همومه كلها به .

ومن جماليات هذه المادة حين تنسب أو تضاف إلى الشباب فيقال : شرّة الشباب : أي حرصه ونشاطه وهواستعمال لغوي مشهور ، ومن معانيه اللغوية أيضاً : السوء والفساد والظلم ، والجمع شرور ، وقول النبي ﷺ مخاطباً الله تعالى كما جاء في (المصباح) وغيره : والشر ليس إليك ، نفى عنه الظلم والفساد ، لأن أفعاله تعالى صادرة عن حكمةٍ بالغة ، والموجودات كلها مِلكه ، فهو يفعل في مُلكه ما يشاء ، فلا يوجد في فعله ظلم ولا فساد .

ويربط (الأساس) معناه بالشّرر برباط خفي ، فيقول : شرّ فلان ، يُشِرّ ، شرارة ، وهو شرّير ، ونار ذات شَرار وَشرر ، وطارت منها شرارة وشررة ، وتقول : كان أبوك نار شَرارة ، وأنت منها شَراره . . . ثم يعرض لمجاز المادة بلفظ (الشراشير) وليس (الشراشر) كما أورده ابن فارس في (المقاييس) وبمعناه سابقاً ، دليلاً على صحة جميعه .

ويجمع (القاموس) معانيه الحسية والمعنوية فيقول : (هو) نقيض الخير ، والشُر : المكروه ، والحمى ، والفقر ، والشَر : جانب البحر ، وشجر ينبت في البحر ، وشرّة الشباب : نشاطة ، والإشراة : القديد ، والقطعة العظيمة من الإبل ، ثم يعدد معنى الشراشر بقوله : النفس ، والأثقال ، والمحبة ، وجميع الجسد ، ثم يغني (الشر) بدلالات منطقية وأخلاقية وتربوية مما جعلته من أوعب المصطلحات الوافية لدلالاته المتشعبة والفرعية التي ساعده للوصول إليها وضعه اللغوي الأصيل .

يضاف إليه استخدام (القرآن) معظم هذه المعاني من (الإثم ، والقبح ، والفساد ، والفجور والمنكر . . .) وشيئاً من مواقعه ومجالاته على صورة تنبه إلى محدودية الشر وضيق آفاقه وأحداثه وأشيائه كما سيأتي تفصيله .

والشر : Mal Evil كما في (المعجم الفلسفي) :

١ ـ كل ما كان موضوعاً للاستهجان أو الذم ، فترفضه الإرادة الحرة ، وتحاول التخلص منه ،ويقابله الخير . والشر على ثلاثة أنواع :

أ ـ طبيعي : كالألم والمرض .

ب ـ وأخلاقي : كالكذب والعدوان .

ج ـ وميتافيزيقي : وهو نقصان كل شيء عن كماله .

ويرى البعض أن الإنسان هو الذي يصف الشيء بالشر عندما يعارض هواه . أما الحقيقة الموضوعية ذاتها فلا شر فيها .

ويرى بعض آخر أن الشر أمر سلبي لا إيجابي ، فحين يقصر الشيء عن بلوغه حداً معيناً نصفه بأنه شر . فالمريض تنقصه الصحة ، والأعمى ينقصه البصر وهكذا . . .

وهناك من يرى أن الخير والشر كليهما مبدآن أوليان ، تكون الغلبة حينا لأحدهما ، وحينا للآخر [١] .

ويقول بعضهم : إن « العمل الذي يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل هو الخير . وإن العمل الذي يجب ألا يعمل أو ينبغي ألا يعمل هو الشر » [٢] .

ويشير الدكتور محمد كامل ليلة [٣] إلى أن « المرء هو مقياس الخير والشر (تبعاً لإحساسه الحق) ، فهما إذاً نسبيان . فالخير خير والشر شر تبعاً لفكرة الإنسان عنهما في اللحظة المعينة » .

والخير في مقابل الشر عند (جون ديوي) : قيمة فلسفية تربوية يرتبط بالتغيير والتفكير وذلك بطريق إشباع الرغبة وتحقيق الغاية للوصول إلى الكمال ، وارتباطه بالفكر يؤدي إلى البصيرة أو الحكمة المنطقية ، ولذا فإن من وظيفة النظرية

---

(١) مادة (شر) في الموسوعة العربية الميسرة .

(٢) مشار إلى هذا التعريف في كتاب (الأخلاق عند الغزالي) للدكتور زكي مبارك ، طبعة ١٩٦٨ ص ١٠٣

(٣) النظم السياسية ، نفسه ص ٣٤٣ .

الأخلاقية صياغة نظرية للخير كغاية وذلك للوصول إلى الخير الصحيح الحقيقي (ولكن علاقته بالرغبة والاشتهاء) لا تؤدي دائماً إلى الخير ، ففي (قاموسه) التربوي ما يلي :

الخير والشر Good and Evil :

١ ـ إن عدم مقاومة الشر الذي يأخذ شكل اللامبالاة وعدم الاكتراث هو طريقة من طرق ترويج الشر والدفع به قدماً .

٢ ـ عندما نستعمل تفكيرنا ونجهده إلى أقصى حد مستطاع ، وعندما نلقى بقوتنا الزهيدة في الميزان المتحرك ـ غير المتوازن ـ فإننا نعرف أنه على الرغم منا أن العالم ينحرنا نحراً ـ فإن في وسعنا مع ذلك أن نركن إليه ونثق به لأن حصتنا من الحياة ونصيبنا من العالم منوطان بأيهما خير قائم في الوجود .

ونحن نعرف أن مثل هذا التفكير والجهد المبذول هو شرط واحد من شروط مجيء ما هو أحسن وأفضل إلى الوجود .

٣ ـ في علاقته بالرغبة . . . فإن الخير هو ما يشبع الرغبة والاشتهاء وما يحقق الحاجة أو يصل بها إلى حد الاكتمال . الحاجة التي تثير السلوك .

وفي علاقته بالتفكير ـ أو كفكرة عن مأرب يتعين بلوغه ـ فإن الخير يفرض على أولئك الذين على وشك التصرف ضرورة البصيرة المنطقية أو الحكمة الخلقية .

ذلك لأن خبرة الحياة تبين أنه ليس كل إشباع للرغبة والاشتهاء يفضي إلى الخير ، فكثير من الغايات أو المآرب تبدو خيراً عندما نكون واقعين تحت تأثير هوى جامح أو هيام حاد ـ في حين أنها في واقع الخبرة ، أو عندما نفكر في أمرها بتروٍّ وعلى مهل ـ تكون فعلا ضارة ومؤذية ـ يعني شراً .

ومن ثم فإن وظيفة النظرية الأخلاقية هي صياغة نظرية للخير كغاية أو هدف للرغبة ، وكذلك صياغة نظرية للخير للصحيح للتمييز بينه وبين الغرر أو

الزائف [1] .

وأجملت (الموسوعات) المفصّلة الكلام على الخير والشر ، فذكرت (دائرة) البستاني مفاهيم مختلفة للحكماء ، وأقوالاً أخرى للصوفية في تمحيص الخير ، وربطته بالحكمة الإلهية فكان أكثر من الشر ، وأكّدته في فطرة الإنسان وأصالة الجمهور ثم نقلت أقوال الحكماء في تصنيفه ، وعرضت ذلك كله ملخصاً من غير تعقيب ، ومن قولها :

ربما أطلقوا الخير على الوجود والشر على العدم . وربما أطلقوا الخير على حصول كمال الشيء والشر على عدم حصوله . وقالوا : الوجود خير محض والعدم شر محض . وقد نقض هذا القول . على أنه قيل: لم يريدوا بذلك تصوير معنى الخير والشر كما حسب هذا القائل فقال ما قال ، فإن معناهما معلوم لجمهور الناس بداهة يوصفون بكل منهما أشياء مخصوصة ويسلبونها عن أشياء أُخر ولكنهم لا يفرقون ما بالذات وما بالعرض ويطلقون الخير على كل منهما وكذا الشر . وقد ذهب القوم إلى أن ما يطلقون عليه الخير قسمان : خير بالذات ، وخير بالعرض وكذا الشرفان الفعل مثلاً إذا تأمّلنا فيه وجدناه شرّاً باعتبار ما يتضمنهُ من العدم ، فإنه ليس شرّاً من حيث أن القاتل كان قادراً عليه ولا من حيث أن الآلة كانت قاطعة ولا من حيث أن العضو المقطوع كان قابلاً للقطع بل من حيث أنه أزال الحياة . وهو قيد عدمي وباقي القيود الوجودية خيرات . وقال بعض الصوفية : إن الوجود خير محض وبالذات لكونه مستنداً إلى العزيز الحكيم ، والعدم شر محض وبالذات لعدم استناده إليه . وإذا قابلت المنافع بالمضار تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشر بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا لأن المؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجودهُ بحيث لا يكون فيه شر أصلاً . فالكفر يحبطه ولا ينفعه ويستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقي

---

(١) سيأتي معنا في آخر البحث إهماله القوى الدينية وعلاقة الخير بها ، وهو جانب لم يعره المربون التجريبيون انتباههم ، وإنما ربطوا التربية بالخير الاجتماعي وبرغبة الإنسان وتفكيره .

العطشان شربة ماء ، ولا يطعم الجائع خبزاً لأنه خلق على الفطرة المقتضية للخيرات ، فخلق الخير الغالب كما أن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة . ووقوع الخير المشوب بالشر القليل من اللطف ، فخلق الله العالم الذي فيه الشر لذلك . وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿ إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً . قالوا أتجعَلُ فيها مَن يُفسِد فيها ويسفِكُ الدماءَ ونحنُ نسبِّح بحمدكَ ونقدِّس لك (فقال) إنّي أعلمُ ما لاتعلمون ﴾ أي إني أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير . وبين لهم خيره بالتعليم كما قال : ﴿ وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها ﴾ يعني أيها الملائكة : خَلْق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة ، وأما خلق الخير الكثير فمناسب .
فإن قيل :الله قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال ما قال الله تعالى : ﴿ ولَو شِئنا لآتينَا كلَّ نفسٍ هُداها ولكنْ حقَّ القولُ منّي لاملأنَّ جهنمَ من الجنّة والناسِ أجمعِين ﴾ يعني لو شئنا خلصنا الخير من الشر ولكن حينئذ لا يكون خلق الخير الغالب . وهو قسم معقول . فهل كان تركهُ للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة وإن كان لا لذلك فلا مانع من خلقه فيخلقهُ لما فيه من الخير الكثير . وفي شرح المواقف في خاتمة مقصد (إنه تعالى مريد لجميع الكائنات) أن الحكماء قالوا : الموجود إما خير محض لا شر فيه أصلاً كالعقول والأفلاك وإما الخير غالب فيه كما في هذا العالم . فإن المرض مثلاً وإن كان كثيراً فالصحة أكثر منهُ ، وكذلك الألم كثير واللذة أكثر منهُ فالموجود عندهم منحصر في هذين القسمين [1]

---

(١) ويلاحظ ما يلي :

١ ـ اقتصار الدائرة على أقوال صنفين هما الحكماء والصوفية مع أن علماء الإسلام لهم جولاتهم المبدعة في هذه المسألة .

٢ ـ ومادام الكلام في الوجود فإن الشرك والكفر شر محض ، وهو قسم خارج عن القسمين المذكورين .

٣ ـ في الآية الأولى خطأ مطبعي (ونقدس لك قال) وليست (فقال) .

وفي الخير والشر :

وضع أحمد أمين في كتابه « الأخلاق » هذا السؤال : كيف ندرك الخير والشر ، والحق والباطل ؟ ألسنا نرى العمل الذي يعده بعض الناس خيراً وحقاً في عصر من العصور ، أو عند بعض الأمم ، قد يعد هو بنفسه في عصر آخر أو عند أمة أخرى شراً وباطلاً . فما أصل ذلك ؟

ويرد المؤلف بأن الفلاسفة قد انقسموا في الإجابة على هذا السؤال إلى قسمين : فريق يرى أن في كل إنسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل والخير والشر والأخلاقي وغير الأخلاقي ، وقد تختلف هذه القوة اختلافاً قليلاً باختلاف العصور والبيئات ، ولكنها متأصلة في كل إنسان . . . وقد اختلف القائلون بهذا الرأي فيما بينهم ، فبعضهم يرجع هذه القوة إلى قوة العقل والتفكير ، وبعضهم يرجعها إلى قوة الشعور ، وقد تصاب القوة الخلقية بمرض فترى الخير شراً والشر خيراً ، وهذا لا يطعن فيها كما لايطعن مرض العين في أنها هي قوة الإبصار . . .

أما الفريق الآخر فيرى أن معرفتنا بالخير والشر ـ مثل معرفتنا بأي شيء آخر ـ تعتمد على التجربة وتنمو بتقدم الزمان وترقي الفكر وكثرة التجارب . . .

وتكلم أحمد أمين بعد ذلك عن « مقياس الخير والشر » فقال : إن الناس كثيراً ما يختلفون في نظرهم إلى الشيء ، فمنهم من يراه خيراً ، ومنهم من يراه شراً ، بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيراً في آن ، ثم يراه شراً في آن آخر . . .

وقد تساءل المؤلف فقال : ما هو المقياس الذي نحكم بموجبه بالخيرية أو الشرية ؟ ثم ذكر ـ في الإجابة على ذلك المقاييس التالية :

١ ـ العرف .

٢ ـ مذهب السعادة والذين ذهبوا هذا المذهب انقسموا إلى فريقين :

أ ـ فريق يقول بالسعادة الشخصية .

ب ـ وفريق آخر يقول بالسعادة العامة (مذهب المنفعة) .
٣ ـ مذهب اللقانة [1] .
٤ ـ مذهب النشوء والارتقاء .

ومما تقدم نرى أن المؤلف لم يجازف فيعرف الخير والشر ، والحق والباطل ، وإنما ذكر المذاهب والمقاييس المختلفة في ذلك .

وما من مذهب أو مقياس مما ذكر إلا وهو صادق إلى حد ، كما أنها جميعها لا تسلم من الاعتراض والنقد [2] ومما سبق نستتج ما يلي :

١ ـ أهمية مصطلحي الخير والشر في المجالات اللغوية والفلسفية والأخلاقية والتربوية .

٢ ـ فهما قديماً مختلفان ومتأثران بالآلهة اليونانية إلى جانب المثل العقلية ، ومتأثران بالفسلفات المتعارضة الحديثة ، فلا يمكن أن نفيد منهما مفهوماً تجريدياً ولا عملياً صرفاً ، كما يصعب أن نحدد لهما مقاييس مضبوطة ما دامت متأثرة بالاتجاهات اليهودية والمصالح الشخصية والقومية والاقتصادية . . .

٣ ـ وهما في العملية التربوية يتبدلان بتبدل الأزمنة والبيئات ، فالخير هو العقل المحض ،ومن الأصل المادي عند الماديين ، والمثالي عند المثاليين ، حتى إنه تعمق في إطار الإلحاد وإنكار الدين حديثاً مثل ما تعمق بثبات في ما وراء الطبيعة لدى معظم الفلاسفة قديماً .

٤ ـ ومن هنا تبرز أهمية الدراسة والتحليل من الوجهة القرآنية ثم أهميتها القصوى في حضارة القرآن والمسلمين . فإن المقاييس السابقة والفلسفات المتقدمة على تعددها واختلافها فإنها تهمل كلياً المعيار الديني الذي هو أهمها وأولاها بالاعتبار سوى ما كان الفلاسفة اليونان يحرفونه ويشوهون حقيقته بربطهما بالآلهة المتعددة .

---

(١) intution وهي (القوة الباطنة التي تدرك أن الشيء خير أو شر بمجرد النظر إليه من غير النظر إلى نتائجه) المرجع نفسه ص (١١٨) والهامش .

(٢) انظر تفاصيل ذلك ، المرجع نفسه من ص (٩٣) إلى (١٧١) .

الخير والشر بين أهل السنة والمعتزلة
(التحسين والتقبيح والحضارة)

يقول ابن الحاجب : لا يحكم العقل بأن الفعل حسن أو قبيح في حكم الله تعالى ، ويشرحه (الأصفهاني) : قالت المعتزلة والكرامية والبراهمة : الأفعال حسنة لذاتها ، قبيحة لذاتها ، فمنها ما يهتدي العقل إلى حسنه وقبحه بالضرورة ، كحسن إنقاذ الغرقى ، وقبح الكذب الذي لانفع فيه . ومنها : ما يدركه العقل بالسمع ، كحسن الصلاة والحج ، والشارع كاشف للحسن والقبح ولا موجب لهما . . . ثم ذكر اختلاف القدماء والمتأخرين في هذه المسألة ، ثم دللا على قولهما بأدلة عقلية وسمعية متعددة[1] رادين الموقف الاعتزالي المتطرف .

ويمذهب (ابن تيميه) هذه المسألة فيقول : وأما مسألة تحسين العقل وتقبيحه . ففيها نزاع مشهور بين أهل السنة والجماعة من الطوائف الأربعة وغيرهم ، فالحنفية وكثير من المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، يقولون بتحسين العقل وتقبيحه ، وهو قول المعتزلة والكرامية ، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين ، واليهود النصارى والمجوس وغيرهم ، وكثير من الشافعية والمالكية والحنبلية ينفون ذلك ، وهو قول الأشعرية .

ثم يربطها ابن تيمية بالأسباب (التي جعلها الله أسباباً في خلقه وأمره) وبحكمة الله التي يريدها في خلقه وأمره ، وبعد أن يضعف قول المعتزلة والقائلين بجواز أن يأمر الله بالشرك بالله ، وينهى عن عبادته وحده وأن يأمر بالظلم والفواحش ، ويردّهما بالعقل والنقل **يتوسط القول بالحكمة الحاصلة** من الشرائع

---

(١) بيان المختصر للأصفهاني ١ / ٢٨٧ ما بعد .

في ثلاثة أنواع :

١ ـ أن يكون الفعل مشتملاً على مصلحة أو مفسدة ولو لم يرد الشرع بذلك ، كما يعلم أن العدل مشتمل على مصلحة العالم والظلم يشتمل على فسادهم ، **فهذا النوع هو حسن وقبيح ، وقد يعلم بالعقل والشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن .**

٢ ـ أن الشارع إذا أمر بشيء صار حسناً ، وإذا نهى عن شيء صار قبيحاً ، واكتسب الفعل صفة الحسن والقبيح بخطاب الشارع .

٣ ـ أن يأمر الشارع بشيء ليمتحن العبد ، هل يطيعه أم يعصيه ، ولا يكون المراد فعل المأمور به ، كما أمر إبراهيم بذبح ابنه . . . فالحكمة منشؤها من نفس الأمر لا من نفس المأمور به . . . ثم ينهي كلامه : وأما الحكماء والجمهور فأثبتوا الأقسام الثلاثة وهو الصواب [1] .

والموقف الوسط لابن تيميه جانب في التقريب الذي قد يؤدي إلى التوفيق في بعض صور المسألة التي فرقت المسلمين أشياعاً ، وبعد عن الطرفية عند المعتزلة وبعض الأشاعرة الذي قد يؤدي إلى التطرف والتفرقة بين العلماء مذاهب وفرقاً .

● والرأي عندي مبنيٌ على حقيقة إيمانية وعملية هما كمال الشريعة وتمام الدين ، وخصائصهما العامة والخاصة ، وذلك أن كل صلاح عقلي وديني ودنيوي دعت إليه الشريعة الإسلامية ، وأن كل فساد أو قبح عقلي وديني ودنيوي نهت عنه الشريعة باعتبار أن تفصيلاته داخلة في القاعدة الكلية والمقتبسة من أمثال حديث الرسول ﷺ (لا ضرر ولا ضرار) ، وأمثال قوله تعالى : ﴿ هوَ الّذي أرسلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحقّ ﴾ (التوبة : ٣٣) وقوله : ﴿ يتْلُو عليهِمْ آياتِه ويزكّيهم ويعلّمهمُ الكتاب والحكمةَ وإنْ كانُوا من قبلُ لَفي ضلالٍ مُبين ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

---

(١) الفتاوى : ٨ / ٤٢٨ وما بعد ، مقتبسات .

وعلى هذا فلا مجال للتفريق بين الحسن العقلي والشرعي بين المعتزلة وغيرهم ما دامت الشريعة تكفلت بقبوله واعتباره مسائل فيها ، ومثله القبح العقلي أيضاً ، وعلى هذا فيصح أن يندرج تعريف المعتزلة لهما ، بالمفهوم الشرعي العام ، لأن الشرع لا يقبل ما ترفضه العقول السليمة ، ولا يرفض ما تقره ، وبذلك يندرج في تعريفهم أصلاً .

وإذا ظهرت الصلاحية العقلية لمسألة لم تصرح بها الشريعة فإنها تفهم من عمومياتها وكلياتها وروحها ، وإذا لم تدرك العقول الحكمة العقلية من مسائل شرعية في الصلاح والقبح فإن ذلك يعود إلى قصورها وحدود معارفها وربما تكشفه في المستقبل .

- يقول ابن القيم في المصلحة : مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدلٌ كلها ورحمة ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه [(١)]

ويقول : فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثَمَّ شرع ودينه . . .

ويقول الشاطبي : الشريعة ما وضعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفاسد عنهم . حتى إن العالم المجاهد العز بن عبد السلام يقرر (كلية) المصلحة فيها فيقول : إن الشريعة كلها مصالح ، إما درء المفاسد أو جلب المصالح .

- وأوفى من كتب فيها ابن تيمية ، فإلى جانب ما نبه إليه في ثنايا كتبه فإنه خصص مؤلفاً مستقلاً استوفى فيه هذه المسألة وهو : بيان موافقة صريح المعقول

---

(١) اعلام الموقعين : ٣ / ١ .
(٢) الطرق الحكمية : ١٤ .
(٣) الموافقات ٢ / ٦ ، ٣٧ .
(٤) قواعد الأحكام ١ / ٩ .

لصحيح المنقول[1]، كما هو معروف .

ومزية كتابه تعميم هذه المسألة في كلية عقلية وشرعية ، فهو يعرض للحقائق الشرعية والعقلية حتى السمعية ويدلل على موافقة العقل لها مادامت النصوص ثابتة في السنة النبوية إلى ثبوتها المتواتر في القرآن . ثم إنه يعتبر الحجج القرآنية وطرائقها أوفى بالموضوع وأعظم في الحجاج . وهو إذ يستوفي في هذه المسألة بجميع تفاصيلها وفروعها فإنه يؤكد على الجانب الإلهي في الإسلام وكذلك السمعي فيما بعد ، ولا يترك أولئك الفلاسفة المسلمين وبعض علمائهم وفلاسفة اليونان من غير أن يعيب طرقهم وبراهينهم ، وكثيراً ما يفندّها ويشنع على أصحابها بطريقته الخاصة .

فهو يذكر أن الله (بينّ من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لايقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها : ﴿ ولقدْ ضرَبْنا للناسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثَلٍ ﴾ ، فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ، ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية [2] ، وبعد أن يورد أمثلة قرآنية فإنه يعيب على من زعم التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه بالعقليات المأخوذة عن بعض الطواغيت من المشركين في اتباع الأهواء وتعدية حدود الله [3] . . . حتى ذلك المعنى الذي سموه جبراً لا ينافي أن يكون الفعل نافعاً وضاراً ومصلحة ومفسدة وجالباً للذة وجالباً للألم ، فعلم أنه لا ينافي حسن الفعل وقبحه ، كما لا ينافي ذلك سواء كان ذلك الحسن معلوماً بالعقل أو معلوماً بالشرع ، أو كان الشرع مثبتاً له لاكاشفاً عنه [4] . ثم يتحدث عن الخبر النبوي

---

(١) طبع الكتاب أخيراً بشكل مستقل .

(٢) ١ / ١٧ : منهاج السنة النبوية .

(٣) السابق ١ / ٣٨ . (٤) السابق ١ / ٤٧

وإنه إذا كان العقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة فإن الإقرار بذلك دليل على امتناع معارضة الدليل العقلي للسمع ثم يردّ طروق الظن إلى الإسناد والمتون حتى يصح الاستدلال به وإن لم يسمّ عقلياً .

ثم يقول : ولا ريب أن بعض الناس قد يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره ، وإن لم يمكنه بيان ذلك لغيره ، ولكن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط .

ويدلّل على ذلك من مرئياته وتجاربه فينبه إلى الخطأ الناشيء من جهل الناس أو قصور معارفهم وبخاصة في السمعيات فيقول : . . . فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع . وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك ، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، ثم يسوق فساد هذه الأدلة اعتبارها في الشرع والعقل ويقول : إذا تدبرها العاقل الفاضل وأعطاها حقها من النظر العقلي علم بالعقل فسادها وثبوت نقيضها [1] .

ثم يستنتج : بل نقول قولاً عاماً كلياً : إن النصوص الثابتة عن الرسول ﷺ لم يعارضها قط صريح معقول فضلاً عن أن يكون مقدماً عليها ، وإنما الذي يعارضها شُبَه وخيالات مبناها على معانٍ متشابه وألفاظ مجملة ، فمتى وقع الاستفسار والبيان ظهر أن ما عارضها شُبَه سوفسطائية لا براهين عقلية .

● أضف إلى ذلك ما عرف **بالقواعد الفقهية العامة** التي زادت على (٢٥) قاعدة عامة ، مثل : الأمور بمقاصدها ،ولا مساغ للاجتهاد في مورد النص ، واليقين لا يزول بالشك ، والأصل براءة الذمة ، والتصرف على الرعية منوط بالمصلحة ، ولا ضرر ولا ضرار ، والضرورات تبيح المحظورات ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والعادة محكمة ، والغرم بالغنْم ، وماحرم أخذه حرم إعطاؤه . . .

---

(١) السابق ١ / ١١٠ .

وقد استخرجها الفقهاء بتتبعهم مسائل الفقه وفروعه ، وضم كل مجموعة منها إلى قاعدة عامة ، يسري حكمها على سائر جزئيات المجموعة المتشابهة في هذه الجزئيات .

وتشبه هذه القواعد المبادىء العامة في الفقه الإسلامي التي يمكن أن تنطبق على الوقائع التي تدخل في موضوعها ، وهي إذ تعين على تكوين الملكة الفقهية فإنها توضح التصورات العامة ، وذلك بسبب صياغتها بشكل قانوني وتركيب محكم ، وقد أخذ كثير منها من نصوص الشريعة مثل : ﴿ ولا تُمسكوهنَّ ضِراراً لتَعْتَدُوا ﴾ (البقرة : ٢٣١) ، وقوله : ﴿ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ﴾[1] ، وقوله ﴿ البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ﴾[2] وقوله ﴿ فَمنِ اضطُّر غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه ﴾ (البقرة : ١٧٣) إلى آخره .

● **ويقدم بعض علماء الأصول الكلام على الأدلة** فيذكرون أنها أصل، ومعقول أصل،واستصحاب حال ، ويقسمون (العلم) إلى قديم وهو علم الله تعالى ويتعلق بجميع المعلومات على ما هي به من غير تناه ، ومحدث وهو ضروري ومكتسب ، فالضروري : ما علمه الإنسان من غير نظر واستدلال .

ويحصل من أربعة أشياء :

الأول : ما يعلمه الإنسان من حال نفسه مثل الغم والسرور والصحة والسقم .

الثاني : ما يعلمه بطريق العقل ، وهو مثل علمه باستحالة اجتماع الضدين ، وكون الجسم في مكانين ، وأن الواحد أقل من الاثنين .

والثالث : ما يعلمه بالحواس الخمس ، وهي : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

والرابع : ما يعلمه بأخبار التواتر ، فيقع له به العلم ضرورة ، وهو مثل : إظهاره بالبلاد النائية ، والقرون الخالية ، والرسل الماضية .

---

(١) من الأحاديث المتواترة معنى ، وهو في الصحاح .

(٢) البخاري : الرهن ، الترمذي : الأحكام ، ابن ماجه : الأحكام . . .

والعلم المكتسب : ما حصل من طريق النظر والاستدلال ، وهو علم من طريق العقل مثل علمه بحدوث العالم ، وإثبات محدثه ، وتصديق الرسل عند ثبوت المعجزة . والعلم من طريق الشرع فهو ما علمناه بالكتاب والسنة والاجماع [1] . . .

● وينبه العلماء على اختلافهم على أنه وجد بالاستقراء أن **مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية**

فالأولى : وهي التي لا قيام لحياة الناس بدونها ، وإذا فاتت حل الفساد واختل نظام الحياة ، وهذه : حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال . مثل : الإيمان بالعقيدة وإقامة العبادات ، ومشروعية الجهاد ، وعقوبة المحاربين لله الساعين في الأرض بالفساد ومشروعية القصاص ، وتحريم الخمر ، وعقوبة الزنى والقذف . . .

والحاجيات : وهي التي يحتاج إليها الناس لسعة عيشهم ويسره ، وبفواتها يصاب الناس بأنواع من الضيق والحرج ، مثل : الفطر للمريض ، والسلم في المبيع ، والاستصناع دفعاً للضيق والحرج على الناس .

والتحسينات : وهي التي ترجع إلى العادات الحسنة والأخلاق الكريمة ، وبفواتها تنحرف عن السبيل الأقوم ومقتضيات الفطر السليمة مثل : مشروعية الطهارة للبدن والثوب والمكان ، وأخذ الزينة عند كل مسجد والنهي عن البيوع الفاسدة .

وباعتبار أن الوقائع لا تنتهي والمصالح لا تقف عند حد والمفاسد لا تثبت عند زمن فإن الشريعة بنصوصها ومعقوليتها وروحها وكلياتها لا تعدم حكماً أو أحكاماً لها عن طريق اجتهاد العلماء الموثوقين ، ولابد أن تدخل في إطار العدل والرحمة والحكمة والمصلحة كما سبق كلام ابن القيم في ذلك .

● وإن العقل مخلوق لله والفكر عمل العقل فهو عمل المخلوق للخالق ، وأن

---

(١) مقتبس من التمهيد ١ / ٦ ـ ٤٢ أبو الخطاب الكلوذاني .

الشريعة منزلة من عند الله ، فلا يتعارضان لأنهما من مصدر واحد ، وإذا بدا تعارض فإن ذلك راجع إلى عدم إحاطة العقل بالمصلحة الدينية الشاملة .

وإن العلماء مطالبون اليوم حضارياً بالكشف عن المصالح والمفاسد للمستجدات ويحكمون فيها بالشريعة التي لا يخالف صريح المعقول فيها صحيح المنقول ، ولا يجعلوا من خلافاتهم معوقات أو مذاهب فكرية فاصلة بينهم ما دامت الشريعة واحدة ومن مصدر رباني واحد ، وطرق الاستدلال قريبة ، وخصائص الإسلام معروفة للجميع ، وكفانا تفريقاً وتشعباً وتمزيقاً .

وإذا ثبت أن التحسين ما حسنه الشرع والتقبيح ما قبحه ، فإن هذا يعني احتواء الشرع على الصلاح والإصلاح العقليين أصلاً ما دام يراعي مصالح المكلفين ، وهي قيمة حضارية خطيرة ، أما إذا قصرناهما على العقل وحده فإن إهمالنا لخصائص الإسلام العقلية والمصلحية تبتره عن قيمه الربانية ، فلماذا تلك الاختلافات غير الواقعية التي قد تنشأ عنها الانشقاقات ؟

إن العز بن عبد السلام كتب يقول: إنها (المصلحة الشرعية) لاتعرف إلا بالشرع . . . وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب اوالعادات والظنون والمعتبرات ، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته ، ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوهما : فليعرض ذلك على عقله ثم يبني الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم على مصلحته أومفسدته[1] .

فهل هناك شمول حضاري للصلاح والأصلح الشرعي والعقلي والعرفي من مفهوم الشمولية الرحب في المصلحة الشرعية الإسلامية ؟ .

---

(١) القواعد١ / ١٠ ، وهذا يعني أن المصالح كلها معتبرة شرعاً وعقلاً وعرفاً حتى التعبديات فإن فيها مصالح عظمى وإن لم يقفنا الله على بعضها فهي تابعة للحق والعدل والحكمة الإلهية ، ولذا يقول الشاطبي في نقده على ماسبق : . . . وإنما جاء (الشرع) بما يقيم أمر الدنيا والآخرة معاً . . . الموافقات ٢ / ٢١ . . . تابع كلامه ونقده في الفقرة التالية .

في مرادفات الخير وحضارة القرآن

ولكن قبل ذلك لابد من أن نتعرف على مفاهيم المصطلحات الحضارية القرآنية ، ومنها :

الصلاح والفساد :

الصلاح : من صلَح ، صلاحاً وصُلوحاً : زال عنه **الفساد** ، وصلح الشيء كان نافعاً و مناسباً ، وأصلح في عمله أو أمره : أتى بما هو صالح نافع ، وأصلح الشيء : أزال فساده ، وأصلح بينهما ، أو ذات بينهما ، أو مابينهما : أزال ما بينهما من عداوة وشقاق . . . والصالح : المستقيم المؤدي لواجباته ، والصلاح : الاستقامة والسلامة من العيب ، والمصلحة : الصلاح والمنفعة[١] .

وأخذ معناه وهو ضد الفساد من معاجم اللغة ، ويزيد بعضها : وأصلح أتى بالصلاح : وهو الخير والصواب ، وفي الأمر مصلحة أي خير[٢] ، وهي تشير إلى الترادف مع الخير ، وليس في (المقاييس) إضافات سوى ما نقله عن بعض أهل العلم : إن مكة تسمى صلاحاً ، بينما يفصّله (الأساس) ويشقق استعمالاته ، ومنها : ورأى الإمام المصلحة في ذلك . ونظر في مصالح المسلمين . وهو من أهل المفاسد لا المصالح . وتقول : كيف لا يكون من أهل الصلاح ، من هو من أهل صلاح . . . بينما يذكر (النووي) في (التهذيب) : (الصالح) ، عند قوله تعالى : ﴿ ونبيّاً منَ الصّالحين ﴾ (آل عمران : ٢٩) ناقلاً عن الزجاج قوله : الصالح هو الذي يؤدي إلى الله عزو جل ما افترض عليه ويؤدي إلى الناس حقوقهم ،كما ينقل عن صاحب مطالع الأنوار مثل ذلك .

وقد أخذت المادة (الصلاح) حجماً متسعاً في القرآن ، واستعملت

---

(١) المعجم الوسيط .

(٢) المصباح .

باشتقاقاتها وبالوصف للقوم الصالحين في مرات تفوق (١٦٠) آية . ومن الاشتقاقات : صلَح ، صالح ، تُصْلحوا ، يُصلح ، يصلحون ، أصلح ، إصلاح ، يصلحون ، الإصلاح ، المصلح ، مصلحون ، الصلح ، . . . وقدّم (معجم ألفاظ القرآن) للمادة بقوله : استعملوا الصالح بمعنى الكثير ، فقالوا : مطرة صالحة ، وبمعنى المناسب ، فقالوا : هذا يصلح لك ، وبمعنى : تقديم الشيء الحسن ، فقالوا : أصلح إلى الدّابة إذا أحسن إليها . ثم يقول : ومن هنا يجيء الصلاح ضد الفساد ، ويُخَصّان بالأفعال . . .

والمصدر : الصلاح والصُّلوح . . .ومن الآيات التي يتقابل فيها الصلاح والفساد قوله : ﴿ الّذين يُفْسدون في الأرضِ ولا يُصلِحون ﴾ (الشعراء : ١٥٢ وغيرها) وقوله : ﴿ ولا تُفْسدوا في الأرضِ بعد إصلاحِها ﴾ (الأعراف : ٥٦ ، ٨٥) . وقوله : ﴿ والله يعلمُ المُفسدَ من المُصلِح ﴾ (البقرة : ٢٢) وغيرها كثير .

ولكن (الصلاح والأصلح) أصبحا (نظرية) قال بها المعتزلة كما تقدم ، تفريعاً على عدل الله ، فهو بعدله يقصد إلى صلاح العباد ، ومنهم من يوجب ذلك ، بل يوجب عليه الأصلح ، ويفسّر كل ما يبدو في الكون من شرور ببيان ما فيها من صلاح وخير . هذه النظرية شبيهة بنظرية (العناية) التي قال بها الفلاسفة القدامى والمحدثون)[1] .

والفساد : من فَسَد الرجل : جاوز الصواب والحكمة ، و ـ الأمور : اضطربت وأدركها الخلل ، والفساد : التلف والعطب ، و ـ الاضطراب ، و ـ الحاق الضرر[2] ويزيد بعضهم : المفسدة : ضد المصلحة ، ومن ذلك قول الزمخشري في (الأساس) :ما دأبه غير الفساد،في دينه ، وهذا الأمر مفسدة له أي فيه فساده ، وهم من المفاسد دون المصالح ، وتقول : من كثرت مَسافده ظهرت مفاسده . . .

(١) الموسوعة العربية الميسرة، ورد عليهم أهل السنة بأنه لا يجب على الله شيء فهو فعال لما يريد، تابع أدلتهم .

(٢) المعجم الوسيط .

وارتبط الفساد في مواقع القرآن **بالأرض والسماوات والملوك وبأعمال النفاق وانحراف بني اسرائيل وبكسب الإنسان وبآلاء الله تعالى** . . . ولكن تلازم الفساد في الأرض بتبدل الدين ، واقترانه بالكبائر من الذنوب ، وتكراره وتوكيده في الإفساد (الأرضي) يوضح دلالته الاصطلاحية في القرآن مثل ما يبين أخطاره في مواقعه ومجالاته ، يقول الله على لسان فرعون : ﴿ إنّي أخافُ أن يُبدِّل دينَكم أو يُظْهرَ في الأرض الفسادَ ﴾ (غافر : ٢٦) ، ويقول عن المنافق : ﴿ وإذَا تولّى سعَى في الأرضِ ليُفسدَ فيها ويُهلكَ الحرثَ والنَّسل ﴾ (البقرة : ٢٠٥) ، ويقول عن جريمته الخلقية والسلوكية مع الجرائم الأخرى ﴿ ويَقطعُون ما أمرَ الله بهِ أن يُوصلَ ويُفسِدون في الأرض أولئكَ لهمُ اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدّار ﴾ (الرعد : ٢٥) . . .

وما أقرب الشبه بين (فسد) و (فسق) و (الفاسد) و (الفاسق) في اللفظ والدلالة فيما يعرف بـ (القلب) ثم في التحذير والتنديد . ولكن علماءنا اهتموا بمادة الفساد والمفسدة والصلاح والمصلحة في ـ الخير والشر ـ واعتبروهما قواعد في الأحكام وموافقاتها وحكمها وأحكامها وأنواعها والغالب والنادر في متعلقاتها .

ويصنف ابن عبد السلام : المصالح ثلاثة أنواع :

أحدها : مصالح المباحات .

الثاني : مصالح المندوبات .

الثالث : مصالح الواجبات .

والمفاسد نوعان :

أحدهما : مفاسد المكروهات .

والثاني : مفاسد المحرمات . [1]

---

(١) قواعد الأحكام نفسه ص ٩ : ومنه يتضح أن المصالح والمفاسد درجات متفاوتات . هذا وقد أشار الدكتور زكي مبارك إلى آراء للغزالي في الخير والشر فقال : إن الغزالي كان ـ تارة ـ يسمى ما يجب أن يعمل واجباً . وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب ألا =

ويمضي ابن عبد السلام ويقول :

« أما مصالح الدارين [1] (هكذا . . .) وأسبابها ومفاسدها فلا تعرف إلا بالشرع ، فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع ، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح . وأما مصالح الدنيا وأسبابها وفاسدها فمعروفة بالضرورة والتجارب والعادات والظنون المعتبرات . فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته . ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها ، فليعرض ذلك على عقله ـ بتقدير أن الشرع لم يرد به ـ ثم يبنى الأحكام ، فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته .

وبذلك نعرف حسن الأعمال وقبحها .

وأما ما كان من المصالح الدنيوية فليس كما قال من كل وجه ، بل ذلك من بعض الوجوه دون بعض ، ولذلك لما جاء الشرع ـ بعد زمان فترة ـ تبين به ما

= يعمل حراماً ، وما ينبغي أن لا يعمل مكروهاً ، وما عدا أولئك فهو مباح . وهذا التقسيم مطابق للتقسيم المبين بالمتن .

ويمضي الدكتور زكي قائلاً : إن الغزالي كان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى حرام ، وواجب ومباح . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه ، وأما الواجب فهو المقول فيه افعلوه ولا تتركوه ، وأما المباح فهو المقول فيه : إن شئتم فافعلوه ، وإن شئتم فاتركوه .

وهذا التقسيم لا يختلف عن التقسيم الذي قبله في شيء سوى أنه يجمع تحت « الحرام » (الحرام والمكروه) ويجمع تحت الواجب (الواجب والمستحب) .

ويضيف المؤلف أن الغزالي « ربما قسم العمل إلى حسن ، وقبيح ، ومباح » .

والحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الغزالي : ويكون المأمور به شرعاً (ندباً كان أم إيجاباً) حسناً ، ويكون المنهى عنه شرعاً (مكروهاً كان أو تحريماً) قبيحاً والغزالي يجزم بأن العمل لا يكون حسناً لذاته ، ولا قبيحاً لذاته « الأخلاق عند الغزالي ص ١٠٢ و١٠٤ » تعليق د / طبلية القطب .

(١) خطأ وصوابه : مصالح الآخرة بدليل قوله فيها بعد : وأما مصالح الدنيا وتقدم بعضه .

كان عليه أهل الفترة من انحراف الأحوال عن الاستقامة وخروجهم عن مقتضى العدل في الأحكام ، ولو كان الأمر على ما قال بإطلاق لم يحتج في الشرع إلا إلى بث مصالح الدار الآخرة خاصة . وذلك لم يكن . وإنما جاء بما يقيم أمر الدنيا وأمر الآخرة معاً . وإن كان قصده بإقامة الدنيا للآخرة فليس بخارج عن كونه قاصداً لإقامة مصالح الدنيا ، حتى يتأتى فيها سلوك طريق الآخرة ، وقد بث في ذلك من التصرفات ، وحسم من أوجه الفساد التي كانت جارية ما لا مزيد عليه ، **فالعادة تحيل استقلال العقول في الدنيا بإدراك مصالحها ومفاسدها على التفصيل** ، اللهم إلا أن يريد هذا القائل أن المعرفة بها تحصل بالتجارب وغيرها بعد وضع الشرع أصولها ، فذلك لا نزاع فيه [1] .

أما المعتزلة فإنهم يعتبرون المصالح والمفاسد بحسب ما أداهم إليه العقل .

وقد جعلوا الشرع كاشفاً لمقتضى ما أدى إليه العقل بلا زيادة ولا نقصان [2] .

إنهم يقولون : إن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كإنقاذ الغرقى والهلكى ، ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران ، وإيلام البريء [3] .

ومما سبق نستنتج الحقائق التالية :

١ ـ (الصلاح) : أوسع القواعد الحضارية فهو يشمل أنواع الخير ومسائله جميعها ، وهو بهذا لا يختلف عن دلالته اللغوية والعقدية .

٢ ـ جسامة (الفساد) وخطر المفسدين في الأرض ، وتلازمه مع كبائر الذنوب والآثام وباقترانه بتبدل الدين فهو أعظم أنواع الفساد .

٣ ـ علماؤنا اهتموا بالصلاح وربطوه بقواعد الأحكام السابقة ، وتحدثوا

---

(١) الموافقات ، للشاطبي ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) السابق ، ج ٢ ص ٣١ و ٣٢ .

(٣) الدكتور زكي مبارك ـ الأخلاق عند الغزالي ص ١٠٤ . ونقل عن الإسلام وحقوق الإنسان ٥٢٨ ـ ٥٣٠ . د / طبلية القطب .

طويلاً عن المصلحة والمفسدة في الدارين ، حيث بنوا عليهما أعمال الإنسان فرداً وجماعة وعلاقات .

٤ ـ والعلماء اليوم يقتفون آثار أسلافهم في التنبيه إلى أهمية الصلاح في البناء الحضاري وخطر الفساد في تدمير هذا البناء ، وكل ذلك من منطلق النص القرآني ودلالاته وروحه .

البِر والإثم والفجور : فالبِر من برّ حجُّه ، واليمين : صدقت ، و ـ السلعة : راجت ، و ـ البيع : خلا من الشبهة والكذب والخيانة ، و ـ بر بوالديه : توسّع في الإحسان إليهما ووصلهما ، وبَرّ ، بِراً : صلح ،ضد : فجر ، فهو بَرٌّ ، وأبرّ العمل : طلب به البر والتقرب إلى الله . وفي (المقاييس) معانٍ أخرى فهو الصوت وحكايته ، والعرب تقول : لا يعرف هِراً من بِرّ ، وأما المعنيان الآخران : فهما البَر : خلاف البحر ، والبُر وهي الحنطة ، بفتح الباء في الأول وضمها في الثاني وقال : برّ الله حجك وأبرّه ، وحجة مبرورة : أي قبلت قبول العمل الصادق ، ومن ذلك قولهم : يبرّ ربَّه ، أي : يطيعه ، وهو من الصدق . . . ثم يقول ناقلاً : هل تعرف الجواد المُبر من البطيء المقْرِف ، ويعقب : وأصل الإبرار ما ذكرناه في القهر والغلبة ، ومرجعه إلى الصدق . . . ومن هذا الباب قولهم : هو يَبَرّ ذا قرابته ، وأصله الصدق في المحبة . . .

وعلى هذا فالبر في الصدق (المعنوي) منقولٌ عن الصدق (المادي) في الجواد المُبرّ . وهذا كثير في اللغة .

ويتجه صاحب (الأساس) الاتجاه ذاته مع زيادات تقتضيها المادة ومنها الدلالة المجازية ، يقول : فلان يَبَر ربه أي يطيعه ، وبرّت بي السلعة إذا نفقت وربحت فيها . وما أقرب المجاز من الحقيقة والوضع اللغويين .

وفي (معجم ألفاظ القرآن) تقديم يقول : البِر : كلمة جامعة لكل صفات الخير ﴿ أتأمُرون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنفسَكُم ﴾ (البقرة : ٤٤) . والبَر هو الله . ويقول أبو السعود عند تفسير آية البقرة السابقة : البِر : التوسّع في الخير ، من البَر الذي هو الفضاء الواسع ، يتناول جميع أصناف الخيرات ، ولذا

قيل : البر ، ثلاثة : برٌّ في عبادة الله تعالى ، وبرّ في مراعاة الأقارب ، وبر في معاملة الأجانب .

والإثم : من أثم ، أثماً ، وأثاماً ، ومأثماً : وقع في الإثم ، والأثام : الإثم ، و ـ جزاء الإثم ، والإثم : الذنب ، وجمعه آثام . ويؤصّله ابن فارس في المقاييس فيقول : هو البطء والتأخر ، يقال : ناقة آثمة : أي متأخرة . قال الأعشى : (إذا كذب الآثمات الهجيرا) . والإثم مشتق من ذلك ، لأن ذا الإثم بطيء عن الخير متأخر عنه ، قال الخليل : أثم فلان وقع في الإثم . . . وفي (الأساس) مثل غيره ، ويزيد أقوالاً مأثورة منها : فلان من الحياء يتلثّم ، ومن اللمم يتأثّم أي يتحرج ، وتقول : كانوا يفزعون من الأنام أشدّ ما يفزعون من الآثام . . .

ويقدم (معجم ألفاظ القرآن) بالقول : الإثم : فعل ما نهى عنه ، فهو آثم وأثيم ، وقد يطلق على الجزاء المترتب على فعل ما نهى عنه ، و (الرازي) في تفسيره ﴿ ومَن يفعلْ ذلك يَلْقَ أثَاماً ﴾ (الفرقان : ٦٨) ينقل عن الحسن قوله : الأثام اسم من أسماء جهنم. وأقول : (وعلى هذا أطلق الاسم وأريد به المكان) ، إلا أنه ينقل عن ابن مسعود أنه قرأ : أثاماً أي شديداً ، وهو تفسير له وليس قراءة ، ثم يقول الرازي : يقال : يوم ذو أثام لليوم العصيب . وأقول : وهذا متناسب مع جرائم الشرك والقتل والزنى المذكورة في الآية السابقة ، ومضاعفة العذاب لمرتكبها يوم القيامة والخلود فيه المذكورة في الآية اللاحقة، ولذا يربط بعضهم البر والإثم بطاعة الله وطاعة الشيطان وبالفطرة البشرية وتجاربها وسلامة الارتفاق وفشله فيقول :

البر (كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للملأ الأعلى واضمحلاله في تلقي الإلهام من الله التي بنى عليها نظام الإنسان وكل عمل يفيد حالة الانقياد ويدفع الحجب ، والإثم : كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للشيطان وصيرورته فانياً في مراده ، وكل عمل يجازى عليه شراً في الدنيا والآخرة ، وكل عمل يفسد الارتفاقات ، وكل عمل يفيده هيئة مضادة للانقياد ويؤكد الحجب ،

وكما أن الارتفاقات استنبطها أولو الخبرة فاقتدى بهم الناس بشهادة قلوبهم واتفق عليها أهل الأرض أو مَنْ يعتدّ به منهم فكذلك بعد سنن ألهمها الله تعالى في قلوب المؤيدين بالنور الملكي الغالب عليهم خلق الفطرة بمنزلة ما ألهم في قلوب النِّحل جميعها في أقطار الأرض على تباعد بلدانهم واختلاف أديانهم بحكم مناسبة فطرية واقتضاء نوعي ، ولا يضر ذلك اختلاف صور تلك السنن بعد الاتفاق على اصولها . . .

ثم يقول : والتوحيد أصل أصول البِرّ وعمدة أنواعه . . . [1]

والفجور : ويتفق اللغويون على معنى الفسق والكذب ، ويقال : فَجَّرتَ بنفسك : نسبتها إلى الفجور ، كما يقال : فسّقته وكفرته [2] . وفي المقاييس : الفاء والجيم والراء أصل واحد وهو التفتح في الشيء . . . ثم يقول : ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث والتفتح في المعاصي فجوراً ، ولذلك سمي الكذب فجوراً ، ثم كثر هذا حتى سمي كل مائل عن الحق فاجراً . . . ويقول : ومن الباب : الفَجَر وهو الكرم ، والتفجُّر بالخير . . . وذكر الزمخشري في الأساس قوله : هو من أهل الفَجَر لا من أهل الفجور . . . والتفجر بالخير والمعروف .

ويتفقون أيضاً على أصله المادي وهو : تفجر الماء فانفجر أي بَجَسه فانبجس ، وعبارة ابن فارس : من ذلك الفجْر : انفجار الظلمة عن الصبح ، ومنه : انفجر الماء انفجاراً : تفتّح ، والفُجْرة : موضع تفتّح الماء ثم يقول : ثم كثر هذا . . . كما سبق .

ومن المفيد أن نشير هنا إلى شيئين : أحدهما مقابلة الفجور والفجار بالتقوى والأبرار مثلاً قوله : ﴿ فألهَمها فجُورَها وتقْواها ﴾ (الشمس : ٨) و﴿ إنّ الأبرارَ لَفي نَعيم . وإن الفُجّار لِفي جَحيم ﴾ (الانفطار : ١٤) و﴿ أمْ نَجعلُ المتَّقين كالفُجّار ﴾ (ص : ٢٨) وثانيهما : اقتران الفجور (الفاجر)

---

(١) شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي : حجة الله البالغة ١ / ٥٨ دار المعرفة ـ بيروت .

(٢) المجموع المغيث .

و(الفجرة) بالكافر والكفرة في الجملة القرآنية الواحدة ﴿ ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجراً كفَّاراً ﴾ (نوح : ٢٧) و﴿ أُولئك همُ الكفَرة الفَجرة) (عبس : ٤٢) . وهو اقتران دال على التلازم في العقيدة والسلوك منبّه إلى جسامة هذا التلازم البغيض المقيت .

الحَسن والقبيح والسيّء :

الحَسن : ما استكمل صفات تبعث على الرضا وتدعو إلى المدح ، والقبيح : ما فاتته هذه الصفات فكان مبعث الذم والاستهجان ، واختلف فيهما : هل هما ذاتيان أو عرضيان ؟ واستمسك المعتزلة بذاتيتهما ، فالحَسن عندهم حسن لذاته ، والقبيح قبيح لذاته ،وهما كذلك دائماً وفي كل حال ، وبذا يمكن إدراكهما بالعقل ، ولذا سميا : بالحسن والقبيح العقليين ، وبيان الشرع لهما إثبات لا إخبار .

وقال الأشاعرة بعرضيتهما ، والحسن عندهم : ما حسّنه الشرع ، والقبيح ما قبحه [1] .

ومردهما اللغوي قولهم : حُسن ، حُسناً : جمل ، فهو حَسن ، وهي حسناء ، والجمع حسان للمذكر والمؤنث ، وأحسن : فعَل ما هو حسن ، والشيء : أجاد صنعه ، وحسَّن الشيء : جعله حسناً وزيّنه . و ـ رقّاه وأحسن حالته ، والأحسن : الأفضل ، وفي (المقاييس) : . . . فالحسن ضد القبح . . . والمحاسن من الإنسان وغيره : ضد المساوي ، وفي (الأساس) يربطه بالتزين . يقال : جمع الله فيك الحسن والحسنى ، وفيك حسنات جمة . . . ثم يتطرق إلى مصطلح (الاستحسان) في اللغة . . .

ويلاحظ أن (الحسن) يدور حول معنيين متلازمين : الجمال ، والجودة ، وأن التحسين يفيد الترقية مع الجمال .

ولا ريب أن قيمة (الجمال) ذات أبعاد واسعة في الفصحى مثل الحسن ، ولذا ناسب نقلها من الحسن أو الجمال المخلوقي المادي إلى الحسن والجمال المعنوي

(١) المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ـ المطابع الأميرية ١٣٩٩ / ١٩٧٩ .

المتصل بالعقيدة والعقل . أما المتعدّي منه فيفيد السموّ والترقية بدلالتهما المعنوية .

والقبح : وتتفق معاجم اللغة على أنه خلاف الحسن وضده ، وتربطه عكسياً بالخير صراحة فتقول : قَبحه : نحّاه عن الخير . وفي التنزيل : ﴿ هُمْ من المَقْبُوحين ﴾ (القصص : ٤٢) أي المبعدين عن الفوز ، وعلى كل حال : فالاستقباح : ضد الاستحسان وقبّح عليه فعلَه : إذا كان مذموماً ، ولا يروق معنى (الإبعاد) لابن فارس في (المقاييس) فهو يقول : وزعم ناس أن المعنى في قَبحه : نحّاه وأبعده ويستشهد بالمقطع السابق من الآية . بينما يصرح به (الأساس) وبغيره فيقول : هذا أمر قبيح مستقبح ، وأحسنتَ وأقبح أخوك : جاء بفعل قبيح ، وقبّحت عليه فعله ، وقَبَحه الله : أبعده ، وفلان مقبوح عن الخير . . .

والعجيب أن القرآن الكريم لم يذكر أي اشتقاق لهذه المادة سوى ما تقدم في آية (القصص) ، وكأنه يلهم أن القباحة مما يتنزه القرآن عن ورودها حتى في مقابلة (الحسن) ، وأن (القبح) لا يحسن ذكره سوى وصف القوم الذين يستحقونه لقبح أعمالهم وعقائدهم .

ولكن هذين المعنيين القريبين انتقلا إلى (مصطلحين) في علم الكلام الذي بنى عليهما قضية إيمانية متصلة بالله تعالى ، وبالعقل البشري وبالأخلاق الإسلامية ، ومما يرجح اختيارهما واهتمام علم العقيدة بهما كثرة ورودهما وبخاصة (الحسن) في القرآن . ويقدم (معجم ألفاظ القرآن) القول : الحسن : حالة حسية أو معنوية جميلة تدعو إلى قبول الشيء ورغبة النفس فيه ، ويكون في الأقوال والأفعال والذوات والمعاني ، ثم يورد المادة الغزيرة باشتقاقاتها : حُسن ، حُسنت ، حُسن ، حسناً ، حسْنهن ، حَسَن ، حَسناً ، حسان ، حَسنة ، الحسنة ، حسنات ، الحسنات ، أحْسن ، أحْسَنه ، بأحْسنها ، الحْسنى ، الحُسْنيين ، أحسَنَ ، أحسنتم ، أحسنوا ، تحسنوا ، يحسنون ، أحسِنْ ، أحْسِنوا ، مُحسن ، مُحسنون ، مُحسنِين ، المحسنين ، للمحسنات .

فهي إذاً من أوسع المواد القرآنية حيث إن كل اشتقاق منها يرد في العديد من الآيات وفي مختلف السور ، وجميعها في المعنيين السابقين : الجمال ، والجودة اللذين يحققان الخير والطاعة ، ويتبعهما معنى : النعمة والمثوبة باعتبارهما وسيلة الخير والطاعة ، ونتائجهما وجزائهما ، وقريب منه دلالتهما على نهاية العظمة في قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ (الأعراف : ١٨٠) أي عظمة الاتقان والحسن اللانهائيين .

ومن أجمل معاني الحُسْن تثنيته بالحسْنيين ، وهما : الظفر والشهادة ، ولا ريب أن فيهما من النعمة والمثوبة ما يستحقان معنى الحسْن ولفظه ، وكذلك فإن (الإحسان) يتضمن معنى الاتقان والإجادة وهما مظهر الجمال والحسن .
وثالثهما : **والسيء** : من ساء ، سوءاً ، وسَواء : لحقه ما يشينه ويقبحه ، فهو سيء ، وهي سيئة ، وأساء : أتى بسيّء ، والشيء لم يحسن عمله ، ويقال في القبح : رجل سَوْء ، والسُّوء : كل ما يغّم الإنسان ، وكل ما يقبُح ، **وهو اسم جامع للآفات** ، والسيئة : الصغير من الذنوب ـ والعيب والنقص ، والمساوي : المعايب والنقائص . وفي الأساس : فلان يخبط الحسنى بالسّوءى . . . ووقاك الله من السَّوء ومن الأسواء . **وهو اسم جامع لكل آفة وداء** ، ويقال : سوٍّ ولا تسوّىء : أصلح ولا تفسد . وفي المجموع المغيث : استاء ، يعني : ساءَته وأصابه سُوء بمنزلة : اهتمّ من الهمّ . يقال : رجل أسْوأ ، وامرأة سَوْاء على وزن حَسْناء : أي قبيحان .

وهذا يعني أنه مرادف للقبح تماماً ، ويؤيده وروده بمعانيه في القرآن الكريم فهو : ساء الشيء : قبح ، نقيض حسن ، وقد يستعمل اللازم كبئس فيقال مثلاً : ساء خلقاً الظلم ، ولكن استعمالات القبح والقبيح تجاوزت المعاني اللغوية إلى معانٍ عقدية خلافية حتى أضحى التقبيح والتحسين إحدى المسائل الكبرى في التفريق بين أهل السنة والمعتزلة . وربما كان ذلك بسبب تطويع (التقبيح) الوضعي أكثر من (التسويء) ثم لشدة أو لوضوح مقابلته بـ (التحسين) . وهكذا نشط أوسار الأول بينما جمد أو ضعف الثاني .

وأشير أيضاً أن المادة في القرآن ذات حجم وسط ، وهي تتفق مع وضعها اللغوي مع زيادات يقتضيها السياق ، فقد وردت بمعنى القبح أصلاً ، واستعملت في الشر والأذى لأنهما من صفاته ، ومنه : السيّء : وهو القبيح والضار المنكر ، ولا ريب أن (السيئة) قد استعملها القرآن بمعنى الذنب الكبير والصغير لقبحها في اعتبار العقل أو الشرع ، وليس كما أوردها (الوسيط) بحصر استعمالها في : الصغير من الذنوب .

والاستنتاج الحضاري الظاهر هو أن الجمالية الحسيّة والعقلية الإلهية جوانب هامة في حضارة القرآن،وأنه يأمر بها ويؤكد عليها ويدعو إلى الاستمرار على رعايتها والعمل بها بينما يشنع على القبح والسوء ويعلل بهما المفاسد والآثام التي تدمر حضارته وتزيل مظاهر جمالياته وحسنه .

الطيِّب والخبيث :

الطَّيب : من طاب الشيء ، طِيباً وطِيبة : زكا وطهر ، و ـ جاد وحسن ، و ـ لذ ، و ـ صار حلالاً ، وهو طوبى ، والطِّيب : الأفضل من كل شيء ، والطَّيب : كل ما تستلذه الحواس أو النفس ، و ـ كل ما خلا من الأذى والخبث ، و ـ من تخلّى عن الرذائل وتحلّى بالفضائل . وعلى هذا فالطَّيب ضد الخبيث ، ومعظم المعاجم اللغوية على أنه مادي ومعنوي ، فهو اللذيذ والحلال ، وطابت نفسه : انبسطت وانشرحت ، والطيِّبات من الكلام : أفضله وأحسنه ، وجل هذا موجود في (المقاييس) ويزيد قوله : والأطيبان : الأكل والنكاح . . . وهذا طعام مطيبة للنفس ، والطَّيب : الحلال . ويقول الزمخشري : ذهب منه الأطيبان . . . ومن مجازه : طاب لي كذا : إذا حلّ ، وأخذوا طِيبة المال وخيرته (وهذا يؤكد شبَه الطَّيب بالخير) .

والمادة في القرآن الكريم أقرب إلى الوسط . فاشتقاقاتها هي : طاب ، طبتم ، طبن ، طيِّباً ، الطِّيب ، طيبين ، الطيِّبون ، طِّيبة ، طيبات ، الطيبات ، طيباتكم . ويصنفها (معجم ألفاظ القرآن) مثل ما سبق في الحسيّ وهو : ما تستلذه الحواس والنفس ، وقيل وصفاً للماء والطعام والأرض والبلد ،

قد يكون حلالاً شرعاً ، من حيث جوازه ، وقدْر ما يجوز منه ومكانه . . . فيكون حلالاً طيباً ، وعلى هذا وصف الطيب في القرآن بأنه حلال ، فيقال : ﴿ كلُوا ممَّا في الأرض حَلالاً طيِّباً ﴾ (البقرة : ١٦٨) وقد يراد بالطيب : الحلال ، ويفسر الحلّ بما يناسبه كالطهارة مثل آية ﴿ فتيَمَّمُوا صَعيداً طَيِّباً ﴾ (النساء : ٤٣ والمائدة : ٦) أي طاهراً .

والخبيث : من خُبث الشيء خُبْثاً ، وخَباثة : صار فاسداً رديئاً مكروهاً ، والخبيث : الكثير الخبث ، وتتفق المعاجم اللغوية على أنه ضد الطَّيِّب ، ويطلق على الحرام كالزنا ، وعلى الرديء المستكره طعمه أو ريحه كالثّوم والبصل . . . قال تعالى : ﴿ ولا تَيمَّموا الخبيثَ منهُ تُنفقونَ ﴾ (البقرة : ٢٦٧) أي لا تخرجوا الرديء من الصدقة عن الجيد . وشيء خبيث : أي بخس ، وبعض هذا مذكور في (المقاييس) ويزيد : وأخبث : إذا كان أصحابه خبثاء ، واشتقاقات أخرى ليس مجالها هنا ، ومن مجازه كما ذكر الزمخشري : هذا مما يُخْبِث النفس ، وليس الإبريز كالخبيث أي ليس الجيد كالرديء . . . وهذا كلام خبيث ، وهي أخبث اللغتين ، يراد الرداءة والفساد ، وأنا استخبث هذه اللغة .

ومما تقدم نتبين أن الخبيث كالطيب من حيث دلالته الحسية والمعنوية ، كما ورد في القرآن العظيم ،ويؤيده نقول النووي في التهذيب عن أهل اللغة قولهم : الخبث : الشر ، وأصله : المذموم والمكروه والقبيح من قول أو فعل أو مال أو طعام ، أو شراب أو شخص أو حال ، قال ابن الاعرابي : الخبث في كلام العرب : المكروه ، فإن كان من الكلام فهو الشتم ، وإن كان من الملل فهو الكفر ، وإن كان من الطعام فهو الحرام ، وإن كان من الشراب فهو الضارّ .

ومن هذه المادة القرآنية يلاحظ أمران : أحدهما أنها أقلّ حجماً من الطيب فهي لا تشمل سوى ستة اشتقاقات : خَبُث ، الخبيث ، خبيثة ، الخبيثون ، الخبيثات ، الخبائث ، أما سائرها فداخل فيها ، وهذا مثل الخير والشر ، فالأول كثير والثاني قليل ، وثانيهما : مقابلتها واقترانها بالطَّيب في معظم الآيات مثلاً : ﴿ وآتُوا اليتَامى أموالَهم ولا تَتَبدَّلُوا الخبيثَ بالطَّيب ﴾ (النساء : ٢) وقوله :

وفي المعنوي : في الأخلاق والكلام والإنسان بصفة عامة ، ثم ما تستلذه النفس ﴿ حتى يميزَ الخبيثَ من الطَّيب ﴾ (آل عمران : ١٧٩) أي المنافق من المخلص ، وقوله : ﴿ قلْ لا يَستوي الخبيثُ والطيِّب ﴾ (المائدة : ١٠٠) . . . وأوضح آية جمعت الحسيّ والمعنوي في الطيب والخبيث ، هي : ﴿ ألمْ ترَ كيفَ ضَرب الله مَثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ . . . ومثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة ﴾ (إبراهيم : ٢٤ ، ٢٦) فالخُبث يرجع معناه إلى القُبح والرداءة ، ووصف به البلد ، والمال ، والكافر ، والشرير ، والفاسدون ، والأفعال المنكرة والأشياء المستقذرة . . .

ومن كل ما سبق يتبين لنا ما يلي :

١ ـ شمول البر والطيب كل الفضائل والحلال التي تعبر عن الماديات والمعنويات معاً ، وبالمقابل : شمول الإثم والخبث كل الرذائل والحرام من المستعملات عادة كالطعام والكلام وكذلك الملل المختلفة . ومع ذلك فإن المواد التي اتخذها القرآن ذات الدلالات العمرانية لا تدفع أي باحث إلى اعتباره كتاباً في فلسفة الأخلاق أو النظريات الحضارية المعهودة .

٢ ـ الطيب والبر والحسن مثل الخير أكثر وروداً من أضدادها ومن الشر أيضاً ، وكثيراً ما تتقابل المضادات في آية واحدة أو نجم من القرآن مع غلبة الخير ومرادفاته لتقرر أن وجود الأشرار والخبثاء والمفسدين في الحياة التي لا تخلو منهم ، من أولى مسئوليات المؤمنين الأبرار في إزالة الشر والفساد بالدعوة منهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣ ـ إن أبرّ البر وأرقى الطيب وأعظم الحسن هو التوحيد الذي تقام عليه النشاطات الحضارية وتنطلق منه الخيرات الأخرى وتتفرع عنه المبرات والحسنات الكثيرة ، وعلى العكس فإن أشدها إثماً وأحطها قيمة وأقبحها خبثاً هو الإشراك بالله وثناً أو شخصاً أو جهة ، ثم ما ينبثق عنه من مظاهر منحرفة وأعمال ضالة .

الخير أداة للخير ووسيلة إليه

يعتبر القرآن الخير قيمة خلقية هامة من قيم الوجود والأعمال والأحداث والعلاقات ، فهو منطلق المسلم وغايته ومواقفه العملية والنظرية . فلا غرابة أن تشترك مواقع الخير ووسائله . . . مجتمعه في الخيرية المطلوبة . فإن الوسيلة المعتبرة في القرآن تحمل معنى الصلاح والبر أيضاً مثل العمل أو القول أو الحدث ، وهذا لا يختلف حوله المسلمون كما هو معروف .

ولكن المسألة الجديدة هنا هي تسميته بالخير أو بمرادفاته إلى جانب الاعتبار المعوّل عليه ، فمن الوسائل التي سمّاها القرآن به : القول ، والمال ، والخيل ، والرزق ، والمطر ، وأنواع النفع وأدواته في أمم وجماعات لا تشعر به ولا بمنافعه ، ولا تنتبه إلى أسمائه ومسمياته ، حتى ولا إلى نعمه والمنعم بها . إنها مسألة تستحق التنبه والملاحظة في جميع العصور وبخاصة في هذا العصر الذي يتخذ من الوسائل التدميرية والانحلالية والانحرافية ما يجعل أهلها يعلنون خيرها وأولويتها بينما هي غارقة في أوحال الشر منغمسة في بؤره ومساوئه،ومن ثم تقيم عليها حضارة الوسائل لا الغايات ومدنية الوسائط المادية لا المقاصد النبيلة .

الرزق والرزق المنزل : فهو حلال طيب ﴿ وكلُوا ممَّا رزقكمُ الله حلالاً طَيباً ﴾ (المائدة : ٨٨) وقريب منها (النحل : ١١٤) وهو رزق حسن يعرف شكره بالانفاق ﴿. . . ومَن رزقْناه منّا رزقاً حسَناً فهو يُنفِق منه سراً وجهراً ﴾ (النحل : ٧٥) . وهو رزق وحياة للأرض ﴿ وما أنزلَ الله من السّماء من رزقٍ فأحيَا بهِ الأرضَ بعد موتِها ﴾ (الجاثية : ٥) . وقد قرنه بأخطر المهمات والقضايا الاجتماعية والسياسية مثل الشورى ﴿ وأمرُهم شورَى بينهمْ وممَّا رزقناهُم يُنفِقون ﴾ (الشورى : ٣٨) . وتكريم الإنسان وتفضيله على سائر الخلق ﴿ ورزقناهُم من الطَّيبات وفضّلناهم على العالَمين ﴾ (الجاثية : ١٦) وفي أحسن

صورة وهيئة ﴿ وصوَّركم فأحسنَ صُوَركم ورزقكم من الطَّيبـات ﴾ (غافر : ٦٤) . وآية واحدة تصرح (بخيرية) الرزق المنزل من الله وذلك على لسان الفقير موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي شعيب ﴿ فقال ربِّ إنّي لِمَا أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ (القصص : ٢٤) .

القول السديد والقول العابث : وهو تعبير عما في النفس من الخير أو الشر والحكمة أو العبث وإعلان الإيمان أو الكفر ، وإن أدب القول وتهذيب الكلمة وتقويم اللسان ، وأخلاقية النطق مما يحرص عليه القرآن ، ومنذ القديم كانت الكلمة تقيم الحروب وتنشيء السلام وتثبت النفوس وتحرك المشاعر ، وما تزال الكلمة عن طريق الإعلام الحي والصناعي ذات أثر خطير في حياة الشعوب والمجتمعات وبخاصة في المؤتمرات العالمية والقضايا الدولية ، ولذا فقد نبه إليها القرآن وأمر جماعة المسلمين بالقول الحسن ﴿ وقولُوا للنَّاس حُسْناً ﴾ (البقرة : ٨٣) وليكن لليتامى قولاً سديداً وعدلاً (النساء : ٩) ودعاء بالرزق والخير والمعروف ﴿ وقُولوا لهم قولاً معْروفاً ﴾ (النساء : ٨) وليكن أحسن القول للوالدين ﴿ وقلْ لهما قولاً كَريماً ﴾ (الإسراء : ٢٣) وأفضل القول وأجمله للدعاة ﴿ ومَن أحسنُ قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمِل صالحاً ﴾ (فصلت : ٣٣) وأطيبه وأبره للمؤمنين ﴿ وهدُوا إلى الطيِّب من القولِ وهُدوا إلى صراطِ الحميد ﴾ (الحج : ٢٤) . والمؤمنون لا يكتفون بالقول وإنما يتبعون أحسنه ﴿ الذينَ يسْتمعون القولَ فيتَّبعون أحسنَه ﴾ (الزمر : ١٨) .

وبالمقابل فلا ينبغي أن يقولوا الزور : ﴿ فاجتنبُوا الرجْسَ من الأوثانِ واجتنبُوا قولَ الزُّور ﴾ (الحج : ٣٠) ولا المنكر في الظهار وغيره ﴿ وإنهمْ ليَقولون مُنْكراً من القول وزُوراً ﴾ (المجادلة : ٢) ، ولا مثل أولئك المنافقين اللاحنين المعرضين بأقوالهم مبنى ومعنى ﴿ ولَتعرفنَّهم في لحنِ القَول ﴾ (محمد : ٣٠) فإنهم كثيراً ما كانوا يتشدقون ويظهرون الكلام المعجب والقول الباهر ﴿ ومنَ الناسِ مَن يُعجبك قولُه في الحياةِ الدنيا ﴾ (البقرة : ٢٠٤) .

المال خير : فهو أحد دعائم الاقتصاد الذي يربطه القرآن بالخير كسباً وإنفاقاً

ووصية ، ولا غرو أن يسميه به ففيه حث على طلبه من الحلال وإنفاقه المشروع ، وإن اهتمام المسلمين به نابع من كونه أداة النفع الفردي والاجتماعي ، فهو خير ويوظف في خير . والقرآن لا يكبت حب الإنسان للمال ولكنه يزجره ويمنعه من الحرص الشديد عليه ﴿ وإنّه لِحبِّ الخير لَشديد ﴾ (العاديات : ٨) وهو وصية بالمعروف ﴿ إنْ تركَ خيراً الوصيةُ لِلوالـدَين والأقربـينَ بالمعـروف ﴾ (البقرة : ١٨٠) ، وما دام خيراً فإن عائداته يعود إلى المنفق نفسه ﴿ وما تُنفقوا من خيرٍ فلأنفسكمْ وما تُنفقوا من خير يوفَّ إليكم ﴾ (البقرة : ٢٧٢) والتعقيب على مستحقي النفقة هو ﴿ وما تُنفقوا من خيرٍ فإن الله بِهِ عَليم ﴾ (البقرة : ٢٧٣) . أما أن يتخذْ غاية يلهث عنده ومن أجله فيضنّ به في مواقعه الضرورية فإنه تصرف منبوذ وعمل مشين مثل أولئك المنافقين في قوله : ﴿ فإذا ذهبَ الخوفُ سلَقُوكم بألسنةٍ حِدادٍ أشحّةً على الخيرِ ﴾ (الأحزاب : ١٩) .

الخيل خير : فقد وصفت في القرآن بالزينة ، وأنها من محبوبات الإنسان ومشتهياته ، وأهميتها في الإعداد المادي وفي العمليات العسكرية للجهاد في الكر والفر فـ (الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة) [1] ، (ولم يكن شيء أحب إلى رسول الله . . . بعد النساء من الخيل) [2] ، وكان الرسول ﷺ يسميها خيل الله إذا فزع المسلمون [3] .

وحسبها أنها في كلام الله الخير ووسيلة إلى الخير ﴿ إنّي أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذِكْر ربي ﴾ (ص : ٣٢) ولكنها ليست أبداً للتفاخر والخيلاء كما يفعل كثير من أهلها (والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل) [4] .

ومن مرادفاته الصلاح والإصلاح : وهو عمل بأداة يطلب منها تصحيح الوثائق الدينية وإعادتها كما كانت سليمة صحيحة تحمل صفة التوثيق ﴿ إلاّ

---

(١) البخاري : مناقب ، ومسلم : زكاة وغيره .
(٢) النسائي : خيل ، وأحمد ١ / ٥ ، ٢٧ .
(٣) انظر حديثه في : أبو داود : جهاد .
(٤) البخاري : بدء الخلق ، قطعة من حديث أبي هريرة .

الذين تابُوا وأصلَحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم ﴾ (البقرة : ١٦٠) . قال أبو السعود في تفسيره : أصلحوا ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف ، وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف ، وبينوا للناس معانيه ، وقال الرازي : . . . لو أفسد على غيره دينه بإيراد شبهة عليه يلزمه إزالة تلك الشبهة .

ومنه إصلاح الوصية : فالمحتضر الذي يوصي ظلماً أو أثرة بعض على بعض فإن المصلح يمكنه أن يأمر الموصي بالعدل ويرد الوصية إلى الحق ويصلح له ما أفسد بشطب أو تغيير ﴿ فمَن خافَ من مُوصٍ جنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴾ (البقرة : ١٨٢) .

وفي أموال اليتامى فإن الولي يثمرلهم أموالهمويوظفها في المجالات المشروعة ويبعدها عن مواقع الخسارة والفساد ، وهذا الإصلاح يقتضي خبرة في الأعمال والتجارات ووضعها مواضع الربح والمنفعة ﴿ يسألونكَ عن اليتامىَ قلْ إصلاحُ لهم خيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٠) . ويبدو أن الإصلاح واقع على اليتامى وأموالهم تربية وتثميراً وإن كان الغالب في وصاية اليتامى يعود إلى الناحية المالية .

وفي صفات المال المرادفة للخير والشَر يعبر القرآن عن وجوب إعطاء اليتامى أموالهم حلالاً وكاملة وألّا ينقصوا منها أو يبدلوا بها شيئاً ﴿ وآتُوا اليتامى أموالَهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطّيّب ﴾ (النساء : ٢) فنهوا عن أن يستبدلوا بالحلال من أموال اليتامى الحرام من أموالهم . وإن وصف المال الحرام بالخبيث تنفير من الوقوع فيه وضمه إلى ماله ، ووصف المال الحلال بالطيب حث على القناعة به وعدم الطمع في غيره .

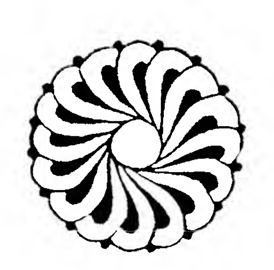
ويختار القرآن هذين الوصفين في أمور أخرى مثل : الصدقة بالطيب الجيد وليس بالخبيث الرديء ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا انفِقوا من طيبات ما كسَبتم وممَّا أَخرجْنا لكمْ من الأرض ولا تَيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه ﴾ (البقرة : ٢٦٧) فهو أمر إلهي بإنفاق الطيب الجيد من كسب الإنسان ومن أموال الزكاة المزروعة والمثمرة . ونهي عن الإنفاق من الخبيث غير

الجيد الذي لا يستسيغ المنفق أخذه هكذا من غير أن يغضّ بصره عن نوعه فيترخص فيه . فالصدقة أو الزكاة المالية والعينية ينبغي أن تكون من أجودها إن لم تكن أجودها .

وإذاً فإن المال خير وطيب حين يتخذ في مجالات الحلال ، وصلة الرحم ، وزينة الحياة الدنيا وابتلاء وفتنة وشغل واعجاب . . . وهو حق وطهرة ، ووقاية ، وجهاد في سبيل الله و (سلعة) يشتريه الله مالكه من مالكه الإنسان ، وانفاق في وجوه البر ومصالح المسلمين وعصمة لهم من التيارات الفكرية الغريبة وتأليف لقلوب الناس على الإسلام ، وبذل له في سبيل الدعوة إليه . . .

ولكن ليحذر أصحابه منه حين يتردى صاحبه ، ولا يظن أنه يخلده أو يقربه زلفى من الله .

وهكذا فإن القرآن ينظر إلى المال الخير أصلاً ، وإلى التصرف به شكلاً وأسلوباً . وإلى ادخاره وسيلة إلى مجالي البر والخير وهو مسئولية حالاً ومآلاً ، نفعاً عائداً أو ضراً كبيراً في مجالات الخير والشر ، فما أعظم هذا التصور وأشمله وأجداه في حضارة القرآن .



عمومية الخير وشموليته

خير الفرد والجماعة متفاعلان :

فقد تجاوز القرآن الأجناس والأعراف والأمم في تعميم الخير . فلم يقصره على شعب دون آخر ولم يخص به جماعة دون سواها. وأي إنسان من أي بلد ولون ولغة تتأصل فيه ابعاد الخير ومناحي البر المركوزة في صميم فطرته وسجيته .

وارتباطها بالإنسان خَلْقياً يعني أن الكينونة الإنسانية خيّرة ، وأن خصائصها صالحة ، فبالخير ترتقي هذه الإنسانية ، وبالبر تسمو في مدارج الصلاح ، ولولاه لأصبح مثل الحيوان الضروس والوحش الكاسر ، وحينئذ يفتقد إنسانيته البرة وطبيعته النبيلة .

ومثل هذا الارتقاء الإنساني يوسع أمامه مجالات الحياة الفاضلة ، ويمد ببصره إلى آفاقها المتناهية التي لا تحد إلا بالحدود المديدة الواسعة . ومن هنا يكون الخير للإنسان تأصيلاً وطبيعة ، وآفاقاً ﴿ والعصرِ إن الإنسانَ لَفي خُسْر. إلا الذين آمنُوا . . . ﴾ وهو مرتبط بالناس جماعة ارتباطاً جماعياً لا يطغى على فرديته وشخصيته . فالجماعة الإنسانية تنطلق من الخير الجماعي وتبتعد عن الشر العام ، والعلاقات بين أفرادها قائمة على وشائج الرحمة والتعاون والتضحية وفضائل الخير ، ولا بد أن يسود بينهم مثل هذه الأواصر الجماعية التي تجعل منهم أمة الخير وأهل الخير .

وإذا كان الخير الإنساني الفردي لبنة البناء الخيري الجماعي فإن المحصلة العامة هي أن الناس كلهم مطالبون بتحقيق هذه الخيرية وسيادتها تحقيقاً عاماً وسيادة كلية .

فإن معظم الآيات القرآنية في الخير ومرادفاته تتجه الوجهة الاجتماعية بل الوجهة (الناسية) مثلاً : وتعاونوا ، أتأمرون الناس بالبر ، يا أيها الناس ـ زين

للناس : فافعلوا الخير ـ للذين أحسنوا ، وألفاظ العموم كما سبق ، ومثل قوله : يا أيها الذين أمنوا لا يسخرْ قومٌ من قومٍ ، فمنْ يعملْ مثقالَ ذرَّة خيراً يره ، ولا تطع كلَّ حلّافٍ ، وماتفعلوا من خير (النكرة في سياق النفي) ومثل هذا التوجيه لا بد أن ينظر إليه من جانبين :

أحدهما : أنه في مواجهة الكثرة الشريرة والجماعات الفاسقة والآثمة التي يكثر منها القرآن مثل : وأكثرهم فاسقون .

وثانيهما : بناء الحياة الإنسانية العامة على أسس الخير ودعائم الصلاح والإصلاح ، ويؤيد هذا الدعوات الجماعية القوية لمثل هذا البناء الشامل .

وهذا يعني أن الخير الفردي والجماعي متصلان ببعضهما متفاعلان في قواهما متكاملان في فضائلهما .

وما دامت إنسانية الإنسان على خير وتؤدي أعمال الخير فإن المحيط الجماعي وبيئته يساعدان على قبوله وتعاونه ونجاحاته .

فالقرآن يستوعب أصناف الناس جميعهم في الخير وهم الأبرار ، والصالحون ، والطيبون ، والصديقون ، والشهداء ، والراسخون .

كما يستوعب الأصناف الشريرة : وهم المسيئون ، والمفسدون ، والخبيثون ، والآثمون . ومنهم العصاة ، والمنافقون ، والمعرضون عن شرائع الله .

ولذا فيصح القول : إن القرآن عمم بتوجيهاته الناس والجانّ كلهم صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، تعميماً يستقصي الجنسين باعتباره رسالة الثقلين : الإنس والجان .

ويصح أيضاً أن نلقي ضوءاً إضافياً على مفهوم الرسالة القرآنية (العامة) من خلال استيفاء أصناف الناس الخيّرين والأشرار .

ألوان من عمومية الخير والأخيار :

والعمومية القرآنية في مسألة الخير نوعان : عمومية عددية ، وعمومية

نوعية ، فيصف الأولى بالكثرة فهي عمومية الأشرار وكثرة الفجار والعصاة ، وتعبيره الغالب بـ (الأكثر) و(الكثير) .

ويصف الثانية (بالقلة) من عباد الله الشاكرين ، والقلة المجاهدة . وإيمان القلة بأنبيائهم ، وقلة المؤمنين الصالحين . . . وهذه بعض الآيات :

﴿ إنّ الله لَذو فضلٍ على الناس ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكُرون ﴾ (البقرة : ٢٤٣) . ﴿ وإنْ تُطِع أكثرَ مَن في الأرض يضلّوك عن سبيلِ الله ﴾ . (الأنعام : ١١٦) . ﴿ إنهُ الحقُّ من ربِّك ، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون ﴾ (هود : ١٧) . ﴿ والله غالبٌ على أمْره ، ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ (يوسف : ٢١ ، وانظر الآيتين ٣٨ و ٦٨ من السورة نفسها) . ﴿ ما تعبُدون من دونهِ إلا أسماءً سمَّيتموها أنتم وآباؤُكم ما أنْزَل الله بها من سُلطان ، إن الحكمُ إلا لله ، أمرَ ألا تعبُدوا إلا إيّاه ، ذلك الدِّين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (الآية : ٤٠ ـ من السورة نفسها) ، ﴿ وما أكثرُ الناسِ ، ولو حرصتَ ، بمؤمنين ﴾ (١٠٣ ـ من السورة نفسها) . ﴿ ولقدْ صرَّفنا في هذا القرآنِ منْ كلِّ مثَل ، فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفوراً ﴾ (الإسراء : ٨٩) . ﴿ وما أرسلناكَ إلا كافَّةً للناس بشيراً ونذيراً ، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ (سبأ : ٢٨) . ﴿ إنهمْ ألفَوا آباءهم ضالّين ، فهم على آثارهم يُهْرَعُون . ولقد ضلَّ قبلَهم أكثرُ الأوّلين : ولقد أرسلْنا فيهم منذِرين . فانظر كيفَ كان عاقبةُ المنذَرين . إلا عبادَ الله المخلصين ﴾ (الآيات : ٦٩ إلى ٧٤ من الصافات) .

﴿ لقد جئناكم بالحق ، ولكنَّ أكثركم للحقّ كارهون ﴾ (الزخرف : ٧٨) .

﴿ . . ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لَكان خيراً لهم ، منهمُ المؤمنون ، وأكثرُهم الفاسقون ﴾ (آل عمران : ١١) . ﴿ ويومَ يحشرهمْ جميعاً ، يا معشرَ الجنِّ قد استكثرتُمْ من الإنس ، وقال أولياؤُهم من الإنس : ربَّنا استمتعَ بعضُنا ببعض ، وبلغْنا أجلَنا الذي أجَّلتَ لنا . قال : النارُ مثواكمْ خَالدين فيها إلا ما شاءَ الله ، إن ربَّك حكيمٌ عليم . وكذلك نولِّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكْسِبون ﴾

(الأنعام : ١٢٨ و١٢٩) . ﴿ وما يؤمنُ أكثرُهم بالله ، إلا وهم مشركون ﴾ (يوسف : ١٠٦) . إلى آخره . . . إلى آخره . . .

ومما جاء في كتاب الله عن (قليل) قوله تعالى : ﴿ بلْ طبَع الله عليها بكفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ (النساء : ١٥٥) إلى آخره . . . .

ونقرأ في سورة الأعراف : ﴿ قال : فبما أغْويتني لأقعدنَّ لهمْ صِراطكَ المستقيم . ثم لآتينَّهم من بينِ أيديهمْ ومِن خلفِهم ، وعن أَيمانهم وعن شمائِلهم . ولا تجدُ أكثرَهم شاكرين ﴾ (الآيات : ١٥ ـ ١٧) . فالخاسرون هم الأكثرون ، والناجون هم الأقلّون . أو نجد الأولين هم (القاعدة) وأن الآخرين هم الاستثناء ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في سورة (العصر) .

﴿ والعصرِ . إن الإنسانَ لفي خُسْر . إلا الذينَ آمنُوا وعمِلوا الصالحاتِ ، وتواصُوا بالحق ، وتواصَوا بالصَّبر ﴾ . وفي سورة (التين) ﴿ . . . لقد خلقنَا الإنسانَ في أحسنِ تقْويم . ثم رددْناه أسفلَ سافلين . إلا الذين آمَنوا وعملوا الصالحاتِ . . . ﴾ .

ذلك أن العبرة ليست بكثرة العدد ، وإنما بالرجل الجامع لصفات الخير والفضائل . وبهذا المعنى يقول تعالى : ﴿ إن إبراهيمَ كان أمَّة قانتاً لله حنيفاً ﴾ (النحل : ١٢٠) فإبراهيم ـ وحده كان أمة ، وذلك لاجتماع الخير والفضائل فيه . وقد ذكرت ـ قبل ـ قوله ﷺ في قس بن ساعدة : « يحشر يوم القيامة أمة وحده » وقال مثل ذلك في زيد بن عمرو بن نفيل . وبذات المعنى يقول الشاعر العربي :

(وواحد كالألف إن أمر حزب) .

ويقول آخر :

(وليس على الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحد)

وما أكثر ما غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة . ﴿ كمْ من فئةٍ قليلةٍ غلَبت فئةً كثيرة بإذنِ الله ، والله معَ الصابرين ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

ويقول الله تعالى : ﴿ لقدْ كانَ لكم آيةٌ في فِئتين التقتا : فئةٌ تقاتلُ في سبيل الله ، وأخرى كافرةٌ يَرونهم مِثْليهم رأيَ العين والله يؤيّد بنصره مَن يشاء . إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار ﴾ (آل عمران : ١٣) . ويقول : ﴿ قلْ للذين كَفروا ستُغلَبون وتُحشَرون إلى جهنم وبئس المِهاد ﴾ (١٢ من نفس السورة) .

ولقد بدأ محمد عليه الصلاة والسلام الدعوة وحده ، وعاداه ـ بسببها ـ أقاربه وقومه . وقضى عليه السلام في مكة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة فلم يؤمن به إلا قليلون .

ثم كانت الهجرة المباركة إلى يثرب ، وكان الجهاد ، وكان النصر يتلو النصر ، وكان دخول الناس في دين الله أفواجاً . وعند وفاته ﷺ كان الإسلام قد انتشر في كل شبه الجزيرة . ﴿ وقلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ . إن الباطلَ كان زَهوقاً ﴾ (الإسراء : ٨١) وفي الأثر (دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة) . وقوله تعالى : ﴿ كذلكَ يضْرب الله الحقَّ والباطلَ فأما الزبَدُ فيذهب جُفَاءً . وأما ما يَنفع الناسَ فيمكثُ في الأرض . كذلك يضربُ الله الأمثال ﴾ (الرعد : ١٧) [(١)] .

وهكذا فالكثرة والقلة في الخير والشر والأخيار والأشرار هنا لاتقاس بالكم ولا بالعدد فالجماهير غالباً تطيع قادتها وتستجيب لها وتعمل بتوجيهاتها ، فأما العلماء والنابغون والمبدعون والقادة الناجحون ، والعباقرة المتفوقون فهم القلة عدداً ولكنهم الأهم والأخطر كيفاً ومسئولية ، وكذلك فالمؤمنون ليسوا بالتزامهم الإيماني وحده وإنما بحملهم رسالة الإيمان ودعوتهم إليه وجهادهم في سبيله ، وهم لهذا رواد الجماهير عموماً والناس قاطبة .

ونستنتج مما سبق أن توازناً حقياً بين الخير والشر والأخيار والأشرار ، فالخير الكثير والأخيار القلة يتوازنون مع الشر القليل والأشرار الكثيرين ، مع إدراكنا أن فئات من الأشرار يمكن أن يصبحوا في صف الأخيار .

---

(١) انظر : الإسلام وحقوق الإنسان : القطب من ص ٥٤٠ ـ ٥٤٥ .

وشمولية الخير مجالات الوجود ومواقعه وأعمال الإنسان الذاتية والأسرية والاجتماعية والدولية والإنسانية وسّعت متعمقة مصطلحاته الدالة على الخير الديني والدنيوي ، فهو المعروف ، والهدى ، والتقوى ، والبر ، والصلاح ، والطيب ، والحسن ، ومرادفات أخرى .

ونفت أضدادها نفياً فكرياً وخلقياً وعملياً ، فإن الإعراض عن الإثم ، والفجور ، والضلال خير عظيم وإن الإقلاع عن الضلال والمنكر والإثم صلاح للفرد والمجتمع ، وإن إزالة الشر ، والقبح ، والخبث من المجتمع الإسلامي معوان له على فعل المعروف والالتزام بالهدى .

فإن جميع السلبيات نقاء للفرد والمجتمع وهي أساسيات في البنية الحضارية لامن حيث إزالتها وإزالة آثارها المدمرة وحسب وإنما من حيث تمكين القيم الخيّرة والفضائل الخلقية والقوى المعنوية في تجذير الحضارة الإسلامية بها وعليها .

وإذا كثرت العمومية العددية في الأشرار والمفسدين والآثمين وقلت النخبة الواعية في إيمانها وتصوراتها وبطولاتها العلمية والأدبية والجهادية حتى يمكنها قيادة الأشرار إلى الخير ، والمفسدين إلى الصلاح ، والآثمين إلى البر ، فإن المسالة في العمومية العددية والكيفية للخير والهدى على العكس تماماً فهي الغالبة والشائعة والمنتشرة ، بينما تقل هذه العمومية عنها في مفردات الشر ومجالات الضلالة . . . وهكذا فإن الخير أعظم من الشر انتشاراً وقواماً للحياة ، وأن الصلاح والبر أوعب في الميادين والمصالح الاجتماعية . وحسبنا على الأقل أن نوازن بين إيراد (الخير) القرآني في حيز ضخم منه وفي أكبر حجم من سوره فيما يقارب (٢٠٠) مرة ، وإيراد (الشر) بما لا يزيد عن (١٩) مرة .

ولكن إحساس الإنسان بالشر قد يضخم فيه الشعور بجسامته وخطورته وكثرته ، وهذا في الأحوال العادية أو الطبيعية ، أما حين يستشري الشر ، ويظهر الفجور والخبث في الناس ومرافقهم ، وتشيع المنكرات والآثام بينهم فإن تدمير حضارتهم مؤذنة بالسقوط لأدنى المناسبات أو الأزمات والهزات .

وغلبة الخير القرآني أمارة على إقدار المسلم بالمساهمة في حضارة الخير والحق

والعلم والقيم والتشريع ، وفي الوقت ذاته فإن قلة الشر القرآني أمارة على مضاعفة هذه القدرة البناءة .

ونعدد فيمايلي مواقع الخير في القرآن :

١ ـ الخير ومواقف الناس المختلفة ـ حب المال جماً مرفوض ـ التسابق في الصالحات .

٢ ـ الله والخير ، علم الله والخير ، اختصاص الله بالخير الخالص ، اختيار الله على علم .

٣ ـ الخير والتشريع مثل : الجهاد ، الأسرة ، النفقة على الأقارب ، الحج والعمرة ، الوصية ، الاقتصاد .

٤ ـ موازنات خيّرة : في العقائد ، الخير والقدر ، الخير والنبوة ، الخير والنعيم المادي والمعنوي .

٥ ـ الخير والعواطف : الحب والخير ، والبغض والخير ، الخير ليس شهوة ومزاجاً .

٦ ـ الخير وعمل الصالحات : الحياة الطيبة والخير .

٧ ـ الرسول ﷺ معلم الناس الخير .

٨ ـ مسئوليات الناس نحو الخير ، الفردية والأسرية والاجتماعية والدينية .

عمل الصالحات وفعل الخيرات :

١ ـ يختار القرآن غالباً للصالح أو الصالحات كلمة (العمل) وأفعاله ، فقد وردت مقترنة بالعمل الصالح والسيء ما يزيد على ١٠٠ مرة منها قوله : ﴿ منَ عملَ صالحاً من ذَكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبةً ﴾ (النحل : ٩٧) و﴿ . . . أنّه مَن عمل منكمْ سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ من بعدهِ فأَنه غفورٌ رحيم ﴾ (الأنعام : ٥٤) ، وقوله : ﴿ وبشِّر الذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ أنّ لهم جنات . . . ﴾ (البقرة : ٢٥) وقوله : ﴿ وأنْ أعمل صالحاً ترضاه وأصلِحْ لي في ذريتي ﴾ (الأحقاف : ١٥) وقوله : ﴿ من يعملْ سوءاً يجزَبه ﴾ (النساء : ١٢٣) ، وقوله : ﴿ يا أَيُّها الرسلُ كلُوا من الطيباتِ واعملوا

صالحاً ﴾ (المؤمنون : ٥١) ، وقوله : ﴿ إلا مَن تابَ وآمن وعملَ عملاً صالحاً ﴾ (الفرقان : ٧٠) .

ويختار غالباً للخير والخيرات كلمة الفعل وأفعاله فقد وردت آيات منها قوله : ﴿ وما تَفْعلوا مِن خيرٍ يعلمْهُ الله وتزودُوا فإن خيرَ الزادِ التقوى ﴾ (البقرة : ١٩٧) وقوله : ﴿ وما تفعلُوا من خيرٍ فإن الله به عَليم ﴾ (البقرة : ٢١٥) وقوله : ﴿ وما تَفعلوا من خيرٍ فإن الله كانَ به عليماً ﴾ (النساء : ١٢٧) وقوله : ﴿ إلا أَن تفعلُوا إلى أوليائِكم معروفاً ﴾ (الأحزاب : ٦) وقوله : ﴿ ويعفُو عن السيئاتِ ويعلم ما تفعلون ﴾ (الشورى : ٢٥) . . .

ونسبه إلى الله للدلالة على أنه فعّال لما يريد ، وما فعله بالظالمين عبرة لغيرهم ، وينسبه أيضاً إلى المفسدين والقوّالين والمعتدين ويزجرهم عن ذلك لأنها من الشرور التي ينهى عنها ولا تليق بإنسانيتهم الخيّرة .

٢ ـ والسياق الأغلبي للصالح والصالحات ينصرف لأعمال الدين وجزائها في الآخرة كما سبق وإن صح إطلاقها على الأعمال الدينية والدنيوية الصالحة معاً ، وأن السياق الأغلبي للخير والخيرات للخير الديني والدنيوي ، وأحياناً يطلق على واحد بعينه ، فالله تعالى ينبه إلى إمامة الرسل والاقتداء بهم حيث أوحى إليهم فعل الخيرات عموماً ﴿ وجعلناهُم أئمةً يَهْدون بأمرنا وأوحينَا إليهمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ (الأنبياء : ٧٣) ، ومثل هذا العموم في سائر الآيات المتقدمة .

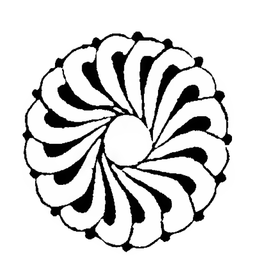
والاستعمال القرآني يلهم غالباً بعمومية (العمل) وخصوصية (الفعل) غالباً واللغة تؤكد ذلك ، فقد جاء في (المقاييس) : العمل ، عام في كل فعل يُفعل . . . ومنه : يُعمل رأيه أو كلامه أو رمحه ، والفعل : يدل على إحداث شيء من عمل أو غيره . ومهما يكن من أمر فإن صلاح الناس ديناً ودنيا ، وخيرهم في دار المعاش ودار الجزاء يلهم أن السعادة لا تقتصر على الحياة الزائلة وأن حضارة المسلمين وفعالياتها وآثارها تمتد إلى حياة خالدة لا نهائية لها ولا حدود إلى جانب ما توحي به من (شمولية) الخير جميع مجالات الحياة وما بعد الحياة .

ونلمح العموم والشمول في العمل والفعل مجتمعة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الّذين آمنُوا اركعُوا واسجدُوا واعبُدوا ربَّكم وافعلُوا الخيرَ لعلكم تُفلحون﴾ (الحج : ٧٧) ويشير الرازي إليها بقوله : فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء ، وحسن القول للناس ، فكأنه سبحانه قال : كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة ، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات .

وإذا لاحظنا أن هذه (المجتمِعات) سبقها ولحقت بها آيتا الحق الأزلي أدركنا أن الخيرات محوطة بعناية الله الحق التي تدفع المؤمنين إلى الإفادة من منافعها . يقول تعالى : ﴿ ذلكَ بأنَّ الله هو الحقّ وأنَّ ما يدعُون من دونه هُو الباطل . ﴾ (٦٢) ولذا فإن من الواجب تعظيم الله وتقديره حق قدره ﴿ ومَا قدَروا الله حقَّ قَدْره إن الله لقويٌّ عزيز ﴾ (٧٤) .

وإذا ربطت آية (الخير) بغائيته وهي (الفلاح) فإن من المناسب أن نشير إلى أنه (فلاح جماعي) مثل ما أنه (خير جماعي) لا يرفض الخير الفردي ولا الشخصي . ولكنه يقدر الخير الجماعي في معظم الآيات ، وإن رؤية المنافع والفلاح في الدنيا والآخرة مرصودة بشكل دقيق وبحساب لا يدع صغيرة ولا كبيرة ولا أصغر منها ولا أكبر ، فالفرد والأفراد يرون ذلك ويدركونه ويجنون ثمراته بأنفسهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فمَن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرَه . ومن يعملْ مثقالَ ذرة شراً يرَه ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) ولكن آية تصرح بالخيرية الدنيوية المقترنة بالأخروية . وهو تصريح ذو أهمية في بنية الحضارة القرآنية التي لا تسوّف وإنما تجمع ، ولا تؤجل وإنما تقدّم ﴿ وقيلَ للذين اتقَوا ماذا أنزَل ربُّكم قالوا خَيراً لِلذين أحسنُوا في هذه الدنيا حسنةٌ . ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ ولنعم دارُ المتَّقين ﴾ (النحل : ٣٠) . فالمرغبات في الآية عديدة : منها أن المنزِّل والمنَزَّل خير ، فهو منزل من عند الله ، وإيمان المتقين به ، وتعقيب الله على ذلك بالإحسان إحساناً وجمعها كلها بالنعيم المقيم في دار المتقين .

وعلى العكس فإن منع الخير والاعتداء على الآخرين والارتياب بأصول الإسلام تورث العناد وتمنع القبول وترمي بصاحبه في جهنم بعد أن ستر الخير وكفر بنعمه وآلائه ﴿ ألقيَا في جهنم كلَّ كفَّار عنِيد . مناعٍ للخير معتدٍ مُريب (ق : ٢٤ ، ٢٥) . ولابد أن يجرّه العناد إلى عنادات ثم مناعات حتى يصير (منّاعاً) يستحق عليها وعلى غيرها المصير السابق والعذاب الأليم ﴿ ولا تُطعْ كلَّ حلّاف مَهين . همَّاز مشَّاء بنميم . منّاع للخير﴾ (القلم: ٨ ـ ١٢). وعموماً فإننا نلحظ في **كليات التعاون الاجتماعي** أنه ليس من الخير المطلوب أن يعمله فرد في خاصية نفسه منعزلاً عن مجتمعه وحده، وهو وإن كان يصل جزء من هذا الخير لمن حوله فإن التوجيه القرآني يحرص أن يعيش المسلمون في إطار التعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان ، ومثل هذا التعاون الاجتماعي المسبوق بالتواصي بالحق والصبر عليه ، لابد من أن يثمر أغراضه الطيبة النافعة بين عامة المسلمين . ولذا فإن هذا الحرص يتشعب في شعبتي (الكلية والجماعية) رجاء المسلمين في خيرهم وأملهم في نجاحهم وإقدارهم على العطاء الحضاري .



قيم جوهرية في الخير

إن تسمية الأشياء والأعمال بالخير أو وصفها به يضفي عليها قيماً جمالية وحقيقية يجعل إحساس الناس بها وإدراكهم لها وتعاملهم معها متسعة في إطارها الظاهري السطحي وداعية إلى تعميق نظراتهم فيها من دون النظرات العابرة التي يرون بها الأشياء والأعمال عادة .

وليست المسألة هنا فهم الظاهر والباطن من وجهة نظر الظاهريّن والباطنيين ولا باختبار الخصوصيات غير المرئية واختبار الظواهر الواضحة وإنما هي وضع معايير جديدة للمألوف وغير المألوف . وإضفاء معانٍ جديدة لم تكن بالحسبان ولا بالمعتاد .

ومثل هذا يعني أن عمقاً جديداً ومفاهيم قيمية متميزة ورؤى للأشياء والأحداث لاتتبع نظرات الإنسان المتقلبة ولا تفسر بتفسيراته المتغيرة وإنما تغير هذه المفاهيم وتعمقها في النظرات والبصائر الإنسانية ، حق تثبت معاييرها وقيمها .

وليس في ذلك نوع من التجديد القيمي وتحديثه بمقدار ماهو صقل للفطرة البشرية وتزكيتها عن الرؤى العادية والتعامل المعتاد الذي قد يسيء إلى هذه القيم ويؤذي صفاءها وخيريتها كما يسيء إلى سلامة الفطرة وجوهرها .

فالموجودات وطرق التعامل معها ، والتصرفات والأقوال وأساليبها وصورها ينبغي أن تخضع لهذه القيم وتدور في فلكها حتى يعيش أصحابها حياة فكرية وخلقية وسلوكية لم يعتد غيرهم أن يحيوها ، ويدركون من الأسرار الجوهرية والحقيقية مالا يدركه قرناؤهم منها .

وهذا أحد الفروق بين المؤمن والجاحد ، فالمؤمن ينظر إليها بعين الإيمان وبصيرة الفكر واليقين وسمات الحقيقة بينما ينظر الجاحد إليها على أنها متعٌ تستغل

وفرص تغتنم وأن الحياة القصيرة دار لاستيفائها والحصول عليها .

وهذا من الجانب النفسي إرواء وإشباع من ناحية وتنغيص وتكدير من ناحية ثانية فالجاحد إذا نقصت منه متعة واحدة فإن قلقه عليها وتخوفه منها ينغّص عليه حياته مادامت تصوراته للحياة محدودة بتلك الفترة القصيرة أو الأقصر .

فالخير هو خيره الآني اللاهث وراء الجمع والمتع ، والشر هو شره الآني وراء العدم أو التخوف من العدم ، والحرص المرهق يغريه بمتابعة ما يشتهي إلى غير نهاية ، وهو ذاته يزعجه ويؤلمه حين لايجد كمال لذائذه وتمام (سعادته) مهما أسفّ وانحرف وفسد .

إن القيم الجديدة والنظرة الفاحصة للموجودات لاتعني تغيير المعتاد من القيم والنظرات على اعتبار أن الإسلام دين جديد وله تصوراته وتطلعاته ، بقدر ما أن ذاتيتها المعيارية وجوهرها الحقيقي مما يلفت إليه النظر ويستدعي التأمل .

ولكن ليس كل تصور جديد يحمل بين طياته بعداً جديداً ولا مقاييس مبتكرة فإن من الجديد ما هو أضيق من القديم أو إن منه ما هو أكثر شراً وفساداً .

والإسلام باعتباره خاتم الديانات ونهاية الشرائع ولما فيه من العموم والشمول والخلود والخصائص الأخرى فإن تصوراته في الخير لابد أن تتميز عن أي اتجاه أو وضعي آخر .

جمال المعنى خير من جمال المظهر :

فبينا تتفق الآراء الجمالية على أن الشكلية في انسجامها وتناسبها وهندسة أجزائها تعطي إحساساً جمالياً مختلفاً ، وتزيناً مادياً للأشكال فإن القرآن لا ينفي هذه الجماليات المحبة عادة كما لم يتطرف في اتخاذها وحدها أو تحديد الجمالية فيها . فالعرف الجمالي السائد اعتبارها موضوعات جمالية عادة مهما بلغت في المادية وتعمقت في الحسية . وتأصلت في المتعية ، والقيمة المعنوية هي التي يضفيها القرآن ويوازنها بتلك الجماليات الخالدات ، خلود الجنات ورضوان الله ﴿ زُيِّن للناس حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنْطرةِ من الذّهب

والفضّة والخيلِ المسوَّمة والأنعام والحَرْث ذلك متاعُ الحياةِ الَدنيا والله عنده حسنُ المآب ﴾ (آل عمران : ١٥) .

خصوصيات القربات :

ولنا أن نستنتج من هذه الشهوات :

● فهي زينة الناس ، وهي مما يحبونه باعتبارها مشتهيات ، وأقدمها وأوسعها وأدومها النساء ولكنه لم يغفل عن متعة البنين والذهب والفضة وأخيراً : الحرث لما فيه من الفائدة الغذائية والحسن معاً .

● التزيين المقترن بحب الشهوات مع جهالة الدافع والمصدر (زيّن) يشير إلى (كلية) التقدير الجمالي لدى جميع الناس مما صح اقترانها بـ (الناس) التي تدل بوضعها على العموم .

● وعطف البنين على النساء واضح الدلالة في اكتمال الشهوتين معاً مثل حضورها طبيعياً في واقع الحياة ، وتنبيه إلى أن أحدهما لا يغني عن الآخر . ففي الاقتصار على واحدة مشكلات متداخلة ليست من الجماليات التي يرغب بها عموماً .

● وتوصيف الذهب والفضة بالقناطير المقنطرة وزناً وحجماً يدل على جماعية مثل هذه الزينة لدى جميع الفقراء والأغنياء حتى أولئك الذين يجرون وراءهما ويقتنونهما بمقدار متعارف عليه .

● ومثلها وصف الخيل بالحسن والتعلم وسمات الأصالة يوفر فيها شهوة الفروسية وخصالها والرغبة القوية في اقتنائها ورياضتها .

ولكن الخيرية المعنوية أجمل جمالاً وأبهى بهاء وأفضل موقعاً ، إنها جنات الخلود والزوجات المطهرات ورضوان الله ﴿ قلْ أؤنبّئكمْ بخيرٍ من ذلكم للذين اتقَوا عند ربِّهم جناتٌ تَجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورضوانٌ من اللهِ واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾ (آل عمران : ١٦) أو ليست متعة الروح وجماليات معانيه والخلود في دار الخلود أبقى وأسمى من شهوات الدنيا وزينتها ؟ وما قيمة هذه الشهوات مهما تلونت واتسعت أمام رضوان الله ورعايته ومحبته ؟

لا خداع بالمظاهر :

وقريب منها تلك (الخيرية) المعنوية المضافة إلى (الأبرار) من دون سائر الناس . وهي خيرية تتكافأ أو تتناسب مع التقوى والمتقين . فإن (عندية) الله ترفعها إلى أرحب المراتب وأزكاها وعندئذ فلا يخدع امرؤ بالأموال والأسفار والمعايش الفارهة والقصور المتطاولة ﴿ والله عندهُ حسْنُ الثّوَاب . فلا يغرنَّك تقلُّب الذين كفروا في البلاد . متاعُ قليلٌ ثم مأواهُمْ جهنمُ وبئس المِهاد . لكِن الذين اتقَوا ربَّهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نزُلاً من عند الله وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴾ (آل عمران : ١٩٥ ـ ١٩٨) إن الله وحده مختص بالثواب الحسن الذي يرجوه المؤمن ولذا فيطلب منه أن تكون نظرته للمظاهر ناقدة متفحصة لا عابرة سطحية ، وعامة كلية لا جزئية فرعية ، فالمتقون وحدهم يكرمهم الله بالنزل اللائقة ، ومثلهم الأبرار المفضّلون لما عند الله ، فهل يوزن ما عند الناس من الآثاث والأموال بما عند الله للمتقين الأبرار ؟

في القيم الاجتماعية الحقيقة :

فلا يفضل رجال رجالاً ولا نساءُ نساءً بما تعارف عليه الناس عادة من مظاهر الأنساب والهيئات والأموال والعصبيات وإنما يتفاضلون بالقيم الحقيقية فيوزنون بها وتقاس أعمالها وفقها خفضاً وارتفاعاً ، وبمقدار ما يختارون من فضائل الفعال أو مساوئها وكرائم الأخلاق أو شرورها . وعلى هذا فلا تنبغي السخرية بسبب هذه المظاهر ولا غيرها ولا التعييب ولا التنابز بها ولا بالألقاب . . . ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخَرْ قومٌ من قوم عسى أن يكونُوا خيراً منهم ولا نساءُ من نساءٍ عسى أن يكُنَّ خيراً منهنّ ولا تَلمِزوا أنفسَكُم ولا تَنابزُوا بالألقابِ بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمانِ ومَن لم يتبْ فأولئك همُ الظالمون ﴾ (الحجرات : ١١) .

فإن الآداب النفسية ذات الصلات الاجتماعية تبرز المجتمع الإسلامي صحياً معافى من التطرفات الاجتماعية ما دام ملتزماً بالقيم الإسلامية وآدابها فكل

فرد له كرامته باعتباره مسلماً يلتزم بالأدب لنفسه ويرعاه لغيره فلا تمسّ كرامته من الجماعة التي يعيش معهامثل ما أنه لا يمس كرامتها بسبب تفوقه وبطولاته وعبقريته ، وبدلاً من الهزء به يعلَّم إن كان جاهلاً ، ويعطى إن كان فقيراً ، ويقوّى إن كان ضعيفاً ، وبدلاً من اللمز والتنابز والتعيير يوجه إن كان ضالاً وينصح إن كان منحرفاً ويقوّم إن كان معوجاً ، إذ فماذا في الهزء واللمز والتعيير من فائدة للهازىء واللامز والمعيِّر ؟ ولكن إيذاءً نفسياً وضرراً اجتماعياً و(ظلماً) أدبياً يتراكم و يشتد في كل رجل وامرأة وقع عليهم إثم السخرية والتعييب والتنابز ، وأمثالها من السلوكيات الاجتماعية المنحرفة . وحسبهم أن الله وصفهم بقوله : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وبمثل الفضائل الإسلامية الاجتماعية تقوم حضارة الأدب والطهر والكرامة وصون الحرمات والتناصح والتعليم والعطاء والإرشاد والتوجيه .

لباس التقوى خير :

ومن أجمل المعاني الأدبية أن يرتدي المؤمن لباس التقوى التي منها الإيمان والعمل الصالح ، فهو أستر لعيوبه وأجمل للباسه من الأكسية التي تستر السوءات وتزين الأبدان وتجمل البيوت ﴿ يا بَني آدم قد أنزلْنا عليكُم لِباساً يُواري سوءاتِكم ورِيشاً ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكرون ﴾ (الأعراف : ٢٦) والحقيقة المعاشية التي نبهت إليها الآية تستوفي أصناف (بني آدم) كلهم فالفقراء يلبسون الضروري من اللباس وغيرهم يستكثرون ويتجملون بالكمالي منه ، وكلا الصنفين اللذين يشملان الناس قاطبة يمكنهم أن يلبسوا لباساً واحداً ويكتسوا برداء واحد هو التقوى الذي لا يفرق بين الفقير والأفقر والغني والأغنى فهو لباس من كسب كل آدمي - هكذا كل آدمي .

وإن من تمام جمالياتها أنها للتذكرة التي قد يغفل عنها طبقات من البشر لئلا يظنوا أن قسمة الرفاه بينهم تؤثر في قسمة التقوى ، وأن حصة الأغنياء منها أوفر من حصة غيرهم وأن الواقع المنزل من مصادر اللباس خلقاً لله تعالى لا يطغى على الواقع المكتسب من العمل الصالح .

وهذا يعني أن الحضارة (الآدمية) ، حضارة الضرورات والكماليات في طريق الخير والبر وأن لكل انسان أن يتمتع بها في غير سرف ولا مخيلة ، ولكن لا يمكن أن تنحصر في التفنن باللباس وتبالغ في زينته . . . فهي ليست الخير كله ولا الحسن بأجمعه فإن لباس التقوى هو الأفضل والأصلح ، واقترانهما يكسو الإنسان بلباس مادي ومعنوي .

ومن المهم أن نعلم أن بعد هذه الآية آيتين يعلن فيهما هذه الحقيقة المركبة في تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق . . .

وجمال فريد معنوي (مفرح) :

لا يعدله جمال الدنيا وحطامها ، إنه نزول القرآن موعظة وشفاء . . . ومجيء الإسلام بالقرآن الذي علمنا ما لم نكن نعلم ﴿ يا أيّها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربِّكم وشفاءٌ لِمَا في الصدُور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين . قلْ بفضل الله فبذلكَ فَلْيفرحوا هو خيرٌ ممَّا يَجْمعون ﴾ (يونس : ٥٧ ، ٥٨) وإن المطلوب من الناس أن يفرحوا بالإسلام وتنشرح صدورهم للقرآن لأنه موعظة وشفاء وهدى ورحمة .

أليست عاطفة الفرح هذه من أنبل العواطف وأسماها ، وأفضل من الفرح بالأموال والرياش حيث ترتقي في سلم المعنويات مستمدة جماليتها من الأفكار والمواعظ والهداية القرآنية ؟

يقول الرازي : . . . وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء ثم يقول : فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي بل من حيث أنها بفضل الله وبرحمة الله ، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل . . . ثم يقول : (فقد) حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الإلهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية ، والترجيح لجانب العقل ، لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته ، والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها ، وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وابقى ، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل .

نموذجان متقابلان ومتعارضان في سورة واحدة

إنها على طريقة القرآن في الموازنة بين الخير والشر والصالح والسيء وعاقبتها ومصائرهما متمثلين بالصور الإنسانية ، فالنموذج الأول هو يوسف عليه السلام حين مكّن الله له في الأرض وآتاه ملك مصر فحكم بالحق والعدل بين أهلها في أوقات الشدة والمجاعة في أساليب تدل على الحصافة والمهارة وحسن التدبير ، حتى أنقذ العباد والبلاد من أزمات الجدب ومشكلات الغذاء مثل نظام الميرة والتخزين حين يغاث الناس أوقات الخير حيث يكثر الانتاج (فيعصرون) العنب والزيت والسمسم وينجون من أزمات القحط التي تعصرالناس عصراً ، وقد نجىّ الله المصريين من ضرواة الجوع بالخطة المحكمة والطريقة المختارة وهذا ما جعله سيد الموقف وحاكم البلد والمتمكن فيه ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبَوَّأ منها حيثُ يشاءُ نُصيبُ برحمتنا من نَشاء ولا نُضيع أجر المحسنين . ولأجرُ الآخرة خيرٌ للذين آمنُوا وكانوا يتَّقون ﴾ (يوسف : ٥٦ ، ٥٧) .

ومع أنه لم يحز العامل الاقتصادي وحده النجاح في مسألة التمكين مهما بلغ من الخطورة والأهمية وإنما أضيف إليه القدرة البشرية والفطنة الإنسانية في إدارة البلاد فإن الحاكم يوسف (المثل) نموذج صالح لا يضعف المبدأ القرآني في خيرية الدار الآخرة وأجرها العظيم وتفضيلها على الدنيا .

والنموذج الثاني في أواخر السورة نفسها هو نموذج معاصر للرسول عليه الصلاة والسلام يواسيه ربه عن فعلات قومه بما حدث للأنبياء من قبل وبما ووجهوا من العناد والتكذيب وعوقبوا على ذلك بما يستحقون ، وكانت المناسبة قوية لابراز فضل الآخرة للمتقين ﴿ وما أرسلنا مِن قبلِك إلا رجالاً نُوحِي إليهمْ من أهل القُرى أفلَمْ يَسيروا في الأرض فيَنظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ولَدار الآخرة خيرٌ للذين اتقَوا أفلا تعقلون ﴾ (يوسف : ١٠٩) .

وإن التقاء الحاضر بالماضي ، وتواصل القديم بالحديث في إطار العظة والعبرة والدرس يؤذن باعتبار وسيلة تربوية جماعية . فإذا ظهر أمر الآخرة بالخير وصرح القرآن بلزومه والتأمل فيه فإن الغرض الإصلاحي يظهر لكل ذي عينين ويتبين لذوي البصائر ، وصح للقرآن أن يتوجه إليهم ويثير عقولهم وينبه هذه القدرة الإنسانية لتدرك حاضرها ومستقبلها ومصيرها ، وهما إثارة وتنبيه يتجددان في السير في الأرض والعبرة من الماضي وعدم جدوى تمكن أهلها في الأرض ولفت نظرهم إلى فضل الدار الآخرة واعداً ومتوعداً مبشراً ومنذراً ، منبهاً ومعنفاً (أفلا تعقلون) .

الحِسْبانية القاصرة :

وهي أعمال وأحوال وهيئات توزن بموازين الظن القاصر وليس بحساب اليقين الصادق .

الموقف المالي بين الإفراط والتفريط :

فالبخل في طبيعته شر وإثم ، وحسبان بعض الناس أنه اقتناء هو قلب للمعايير وتغيير للقيم القرآنية وتابع لوجهات نظرهم ، فالحرص على المال في غير موضعه ولا وقته لا يدخل في قيمة الخير وإن بدا خيراً للناس ، ودليله أن المال المكنوز سيطوق به يوم القيامة عقوبة وجزاءً ﴿ ولا يَحسبنَّ الذين يبخلونَ بما آتاهمُ الله مِن فضلهِ هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطَوَّقون ما بَخِلوا به يوم القيامة . . . ﴾ (آل عمران : ١٨٠)

فالمال أخذ وعطاء وليس واجباً ودائماً ، وهو إتيان منه مالك السماوات والأرض القادر على منعه وحرمانه ، ثم إنه فضل من الله ونعمة ينبغي الشكر عليه بالإنفاق ، وهو أولاً وأخيراً حسبان وظن وليس قيمة حقيقية خالصة . إنها مؤثرات في قيمة الخير والشر وبالمقابل فإن الإنفاق المشروع هو الخير لأن فيه تطهيراً للنفس من الشح وللمجتمع من الأنانيات مثل ما فيه فلاح وتقدم في المجالات الحضارية ﴿ وانفِقُوا خيراً لأنفسكم ومن يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم

المفلِحُون ﴾ (التغابن : ١٦) .

وإذا لاحظنا إطلاق الإنفاق وجمعه بقوله (وانفقوا) وإطلاق الخير وجمع المنفقين والمفلحين (النفوس) و(أولئك هم المفلحون) فإن الآية تجعل لقيمة الإنفاق المعنى الجماعي والاجتماعي مثل ما تزكي أصلاً نفسية المنفق والباذل .

فالبخل ليس خيراً والانفاق ليس شراً وهما في ميزان الإسلام تابعان لقيمتي الخير والشر القرآنيين وليس الانفاق أي انفاق يكتسب قيمته القرآنية ما لم يتجرد من إحباطه بالمن والأذى ، وعنئذ يفوق القولُ الحسنُ وتجاوز الخطأ الصدقة المؤذية ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ مِن صدقةٍ يتْبعها أذًى ﴾ (البقرة : ٢٦٣) . وهكذا فإن إضرار المحتاج وإيذاءه شر وإن اكتسب مال الصدقات والأعطيات ، وهنا تقوم الكلمة الطيبة مقامها وتزيد في رجحان القيمة الخيرية .

وقد يكون الجهر بالصدقة إيذاءاً وضرراً وقد يكون تشجيعاً للبخلاء وإمامة لهم مثل ما يكون الإسرار بها تجرداً من السمعة وإخلاصاً في العمل ، وهذا يعني أن (الدافع) لفعل الصدقة وطريقة إعطائها لهما أثرهما في تقدير القيمة المالية فإن حرص القرآن على الإنفاق مثل حرصه على نقاء دوافعه وأساليبه ﴿ إنْ تُبدو خيراً أو تُخفوه أو تَعفوا عن سوءٍ فإن الله كان عَفوًّاً قَديراً ﴾ (النساء : ١٤٩) .

وقيم أخرى تفوق القيمة المالية . فليست الأموال وحدها مما يفتقر إليه الإنسان ، وليست بمفردها قوة الحياة وازدهار الاقتصاد ، فإن العمل قد يفوقها أحياناً باعتباره القدرة على تحصيل الأموال وبناء الحضارة ذاتياً .

ومثل هذا العمل نجد إشارة له في المجهود العملي العالمي الذي أقامه اسكندر في بناء السد التحصيني ضد غارات القبائل البربرية حينذاك .

ومن حق العامل أجرته على عمله ، والأجرة قيمة مالية ذات طابع خاص ، وإذا تنازل الأجير الغني عنها بسبب فقر المؤجر فإن القيمة المعنوية عندئذ تفوق ما اعتاد الناس عليه من تقديرهم للمال فها هو اسكندر يصور القرآن موقفه ﴿ قالَ ما مكنّي فيه ربِّي خيرٌ فأعينوني بقوةٍ أجعلْ بينَكم وبينَهُم ردماً ﴾ (الكهف : ٩٥) فالعمالة هنا قيمة تفوق الجعل الذي اقترح عليه ، ثم إن

التمكين في الأرض تمكين سلطة شخصية ومعنوية يفضل الأجور المعروضة عليه ، أما اقتران اليد العاملة بالدوافع الخيرة والمقاصد النبيلة فإنها قيم (عمالية) يحرص القرآن عليها .

٢ ـ الحِسْبانية العامة :

فقد يبدو الشيء شراً أو يحسبه الإنسان كذلك ، ولكنه خير في الحقيقة باعتبارات كثيرة مثل : الاعتبار الأدنى ، والاعتبار الزمني ، والاعتبار القياسي النسبي .

فحين شاعت (قصة الإفك) وارتجّ المسلمون بقالة المنافقين وافترائهم ساد بين الصحابة حزن مرير وشر مستطير ونالت من كثير منهم فتنته وبلاؤه حتى خيم عليهم وفساده وفجوره ، وعندها تدارك الله عباده بالوحي المثبت والتنزيل المطمئن يصرح لهم معلناً أن افتعال هذه الحادثة ليس شراً عليهم وإنما هو خير لهم هكذا ﴿ إن الذينَ جاءوا بالإفكِ عصبةٌ منكم لا تحسَبُوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثم ِ والذي تولَّى كِبْرَه له عذابٌ عظيم . لولا إذْ سمعتموهُ ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفكٌ مُبين ﴾ (النور : ١١ ، ١٢) . فقد سماه كذباً ، والذين جاءوا به عصبة متآمرة تستحق العقوبة هي وزعيمها الذي بدأ فيه وتولى معظمه بالقول والافتراء ، وأولئك المؤمنون والمؤمنات المنساقون وراء العصبة وزعيمها قصّروا في تبين الحق ومعرفة الحقيقة ، وأدناها أن يظنوا بأنفسهم خيراً لأن المؤمن لم يكن ليفجر بأمّه وأن الأم لم تكن لتفجر بابنها فعائشة كانت أماً ، والمؤمنين بنون لها ، وعندئذ يعلنون أنه افتراء كبير وكذب عظيم .

ومثل هذه الشائعة وما فيها من التضليل الاعلامي والتي قد يقع أمثالها في أي وقت وجيل تحمّل الإعلام العام مسئولية التوعية وإعلان الحقيقة وتثبيت النفوس المضطربة وتمحيص الصادقين من المفترين وتمييز المكذبين والمروجين وجعلهم عبرة لغيرهم .. والآيات التالية تنبه إلى (توثيق) الوقائع بالأدلة المعتبرة مثل الإشهاد لئلا يشيع الكذب وتنتشر الاتهامات ويصاب المجتمع بأقسى

البلبلة والاضطراب .

أولا يكفي من الخير أن يكشف حال المنافقين والمرجفين ، ثم نزول (١٨) آية في براءة المقذوفين ومن ضمنها تشريع القذف وعقوبته ، وتمحيص المتقين والملتزمين من المقصرين ؟ إنها نور من نور ، ونموذج واحد تقاس عليه نماذج أخرى وأمثلة ثانية .

الأخسرون أعمالاً : وهم فئة جمعت بين الغرور النفسي والضلال السلوكي والقناعة الموهومة ، فلا يقصّرون في الإعجاب بأنفسهم والغرور بطبائعهم ، وربما يعلمون أو لا يعلمون بانحراف سلوكياتهم وشطط أعمالهم ، وهم يظنون أنفسهم على طهارة وأعمالهم على استقامة وحسن صنيع ﴿ قلْ هل نُنَبِّئُكمْ بالأخسرين أعمالاً . الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهم يَحْسَبون أنهم يُحسنون صنعاً ﴾ (الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤) .

فهؤلاء أشد الناس خسراناً في أعمالهم حيث انقلبت مفاهيمهم ونظراتهم في أعمالهم حتى ظنوا القبيح حسناً والفاسد صالحاً ، والمعاصي طاعات ، وأحياناً قد تظهر لهم طاعات وصالحات فيعتزون بها ويفاخرون الآخرين بعملها ولكن ما قيمتها عند الله ما دامت لم تنبثق عن إيمان ، ولا ظهرت عن عقيدة ؟ وما مدى حقيقة ثقتهم بها وبنيل ثوابها وقد ضل سعيهم عن الحق وابتعدوا عن الخير ؟ إن حِسبانهم بصحة أعمالهم وقبولها لا يتلاءم وإحسان الصنع واتقان العمل والتجرد من شهوات الغرور والتعالي .

ظنون المجترحين : وهم الذين اكتسبوا سيئات أعمالهم فانحرفوا وكذبوا وخالفوا أوامر الله ، فلا يتساوون في الحياة الدنيا والآخرة بالمؤمنين الصالحين ، وأن ظنوا أنهم متساوون معهم ﴿ أم حسِبَ الذين اجْترحُوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ سواءً مَحْياهم ومماتُهم ساء ما يحكمون ﴾ (الجاثية : ٢١) .

إن الحكم السيء هو في تغيير الحق وتبديل القيم وشتان بين الصالحين الملتزمين والمقترفين الضالين . إنه حكم من طرف واحد ولمصلحة فئة بعينها

وتجاوز فكري وحكمي ومساواة للقيم والمنكرات ، فهل يصحّ أن يؤخذ بحكمهم ويسمع لرأيهم واقوالهم ؟

ومتى كانت حضارة القرآن تسوّي بين هؤلاء وألئك في صناعة الحضارة وأعمالها وعامليها ؟ وإذا نفت الاية مستنكرة التسوية في الحياة فإن اعتبار التخالف بين فئات المجتمع على حسب أعمالهم هو ما ينبغي أخذه والعمل به ، فالتسوية هنا فوضى وتدمير وظلم وخسران .

الاستدراج بالخيرات : وإذا كان الأخسرون عملاً الظانون سوءاً المقترفون إثماً ينطلقون في ظنونهم من ذاتية نفوسهم ورؤيتهم المنحرفة فإن أناساً آخرين يظنون الخير في إعطائهم الأموال والذرية مع فساد أحوالهم ومخالفاتهم ﴿ أيحسبُون أَنما نُمِدّهم به مِن مالٍ وبنينَ . نسارعُ لهم في الخيراتِ بلْ لا يشعرون ﴾ (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) فإن دواعي ظنونهم إمداد الله لهم بالبنين والأموال خارجة عن ذواتهم وإن بلغت منها مبلغاً عميقاً ، ولذا فإنهم لا يشعرون أنه تأخير وإمهال وإملاء .

وإن التعبير القرآني بالمسارعة (نسارع) وجمع الخير بـ (الخيرات) ينبههم إلى ضلال فكرهم مرة بعد مرة ، وخيراً بعد خير في أزمان متسارعة متسابقة إن نفعهم التنبه والتفكير ، . . . وبعد آيات ثلاث وصف الله المؤمنين المشفقين من خشية ربهم الموحدين بقوله : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (المؤمنون : ٦١) وشتان بين مسارعة الله في الخيرات إمداداً وبين مسارعة المؤمنين بالخيرات إيماناً وخشية . وقد كشف الله عن هذا الحق وأمثاله حتى لا يقع المسلمون في وهم وباطل وظنون حيث أعلن عن هذا الحق مرات في الآيات بعدها .

وحِسْبانات عديدة في مثل العبودية للأولياء وعجز الله عن عقوبة المذنبين ، وترك المؤمنين من غير افتتان ودخولهم الجنة من غير جهاد ، وخلق الإنسان عبثاً . . . إنها وأمثالها ظنون ضارة تجتنب ولا يعوّل عليها في تصور الإسلام وحضارته حتى لاتنتشر آثارها المدمرة ومعاولها المهلكة .

نموذجان متقابلان في ظنون متعارضة

النموذج الأول : الرسول داود عليه السلام بعد أن تقاضي إليه خصمان وطلبا منه أن يحكم بالحق ولا يشطط ، والمسألة المتقاضى عليها هي أن واحداً منهم قال : إن أخي يملك (٩٩) نعجة ولي واحدة ثم طلب مني بحجاج ومغالبة في البيان أن يمتلكها ويكفلها فهل هذا عدل ، فأجابه داود : ﴿ لقد ظلمكَ بسؤالِ نعْجتك إلى نعاجهِ وإن كثيراً من الخُلَطاء لَيبْغي بعضُهم على بعض إلاّ الذين آمنوا وعملَوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم وظنَّ داودُ أنما فتنَّاه فاستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً وأنَاب . فغفرْنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحُسنَ مآب . . . ﴾(ص : ٢٤ ، ٢٥) .

فالقصة هي اختبار الله نبيه في فصل الخصومة بين أخوين في الدين أو الصداقة أو الألفة أو أخوة الشركة،وبعد النطق بالحكم ظن داود أن الواقعة فتنة من الله فاستغفر وسجد وتاب فغفر له وقربه منه وله عنده حسن مرجع في الجنة [١] .

النموذج الثاني : قارون أغنى قوم موسى عليه السلام حتى أضحت مفاتيح خزائنه ذهباً تثقل بالحمل من الأقوياء ، وحين خرج على قومه في زينته وذهبه ظن أهل الدنيا أنه الخير وطلبوا لأنفسهم مثله ﴿ إنّه لَذو حظٍ عظيم . وقالَ الذين أُوتوا العلمَ ويْلكم ثوابُ الله خيرٌ لمنْ آمنَ وعمل صالحاً ولا يلقَّاها إلا الصابرُون ﴾ ثم يقول : ﴿ تلكَ الدارُ الآخرة نجعلُها لِلذين لا يُريدون عُلوّاً في الأرضِ ولا

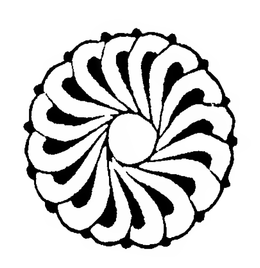
---

(١) انظر قول بعض المفسرين منهم أبو السعود والرازي في تفسير النعجة : والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة ، وأن الخصمين ملكان أو شخصان ، وظن بمعنى علم استدلالاً ويرجح الرازي : أنه الظن على اعتبار الخصمين من البشر وليسا ملكين .

فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ (القصص : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣) .

وهذا النموذج زاخر بالمعاني والعبر والقيم فهو يصور قارون بنفسيته المستعلية ودنياه الغنية وموقف أهل الدنيا وأهل الآخرة منه وندم الأولين على ظنهم وقالتهم ، وارتياح الآخرين على صدقهم وإيمانهم وقناعتهم ثم التعقيب التعليمي والتوجيهي أن القيم المعنوية هي الأبقى ولا يستحقها المستعلون المفسدون ، وأن نعيم الجنة عقباهم ومصيرهم .

إنه درس حسيّ بلغت عظاته النفوس حين شاهدوا الأرض تتزلزل بقارون وأمواله وتخسف تحت أقدامه ،وهو درس دنيوي معاين أما درس الآخرة فهو إعلاء المعاني وإزكاء التقوى وأهلها في جنة الخلد .



التجارة مع الله ومع الناس

من المشهور أن العرب وبخاصة أهل مكة كانوا تجاراً يجوبون بقاعاً واسعة من الأرض في بلاد الشام واليمن وما جاورهما ، وأن التجارة كانت مصدر رزقهم الوحيد باعتبار أن مكة في واد غير ذي زرع ، واشتهر عدد غير قليل من الصحابة تجاراً .

وفي القرآن الكريم آيات في البيوع والتجارات المادية والمعنوية .

فقد ذكر نوعي البيع (٨) مرات واشتق منها : يبايعْنك ، وبايعتم ، ويبايعونك . باعتبار أن بيعة الإمامة عقد بين طرفين . وذكر التجارة بنوعيها (٨) مرات أيضاً،وأكثر من التجارة المعتادة فكانت خمساً والتجارة مع الله ولأجل رضوانه ثلاثاً ، موصوفة بالمصطلحات التجارية المعروفة [١] .

والملاحظة العامة هي أن جميع آيات البيع مدنية ماعدا آية واحدة في سورة إبراهيم (الآية : ٣١) ، وأن جميع آيات التجارة مدنية أيضاً ماعدا آية واحدة في سورة فاطر ، (الآية : ٢٩) وأن معظم آياتها تشتمل عليهما معاً ويفترقان قليلاً . . . وهذا يعني اشتغال أهل المدينة في البيع والتجارة أيضاً وإن كانوا يعملون في أرضهم حرثاً وزراعة . ونقتصر هنا على التجارة المعنوية : التجارة مع الله .

١ ـ **مشترو الضلالة** : ففي سياق المنافقين ومعظمهم من كفار المدينة ويهودها يقول الله تعالى : ﴿ وإذا لقُوا الذين آمنُوا قالوا آمنّا وإذا خلَوا إلى شياطينِهم قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدُّهم في طغيانهم يَعْمهُون . أولئك الذين اشترَوُا الضلالةَ بالهُدى فما ربحتْ تجارتُهم وماكانوا مُهْتَدين ﴾ (البقرة : ١٤ ـ ١٦) .

---

(١) ولم نذكر عملية الشراء وهي داخلة في البيع وإن وردت في القرآن مادة ومعنى .

ففي الآيات من مصطلحات التجارة : الشراء ، الربح ، التجارة . وفيها من مصطلحات الخير والشر : الضلالة ، الهدى . وفيها من العملية التجارية : ربحية الضلالة وخسران الهداية ، وهي أخسّ أنواعها وأحط أصنافها .

والتعبير القرآني ﴿ اشتروا الضلالة ﴾ دليل على عمههم وطغيانهم وضلالهم فليس ثمة مخلوق يتاجر ببضاعة كاسدة لا بسبب قلتها ولكن بسبب نوعيتها ، فهم (اشتروها) وأخذوها برغبتهم ورضاهم .

ومعلوم أن المنافقين كانوا يمثلون الكفر المستور والشرك الخفي والمعاندة الخائفة فيظهرون مالا يبطنون ويأخذون مالا يأخذه العقلاء المؤمنون ، وقد يمدّهم الله طغياناً وسلطاناً ولكنهم الجبناء المخذّلون . فهل بعد هذا تربح تجارتهم وهي قائمة على شراء الكفر والضلالة ؟ وكيف يصبح تجارهم راشدين مهتدين ؟

٢ ـ وفي تغيير المفاهيم الشائعة : إلى مفاهيم أفضل منها في العمل وخيراً منها في الجزاء والمثوبة . فالتجارة معاوضة الشيء بالشيء ، أما التجارة بين أهل الإيمان والله تعالى فهي ذات مفهوم خاص وبضاعة خاصة وجزاء خاص ، وكما أن التجارة بالعروض تنجي من محنة الفقر فإن التجارة مع الله تنجي من النار وتغفر الذنوب وتدخل الجنة ، وتحوز على النصر والفتح القريب ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنْجيكم من عذابٍ أليم . تؤمنونَ بالله ورسولهِ وتُجاهِدون في سبيل الله بأموالكمْ وأنفسكمْ . . . وبشر المؤمنين ﴾ (الصف : ١٠ ـ١٣) فهل يتقاعس المسلمون عن التجارة مع الله ويفضلون عليها التجارة بالأموال والعروض مع الناس ؟ إن التجارة العامة دعامة من دعامات الاقتصاد فلا يرفضها القرآن بدليل أنه نبه إليها في آيات عديدة ، ففيها قوة المجتمع حين تكون مع الاقتصاد جانباً من حضارته ووسيلة لخدمة الإسلام والمسلمين ، وعندئذ تنتقل من المعاوضة المادية إلى التجارة مع الله مادام أهلها يؤمنون ويجاهدون كما نصت عليه الآيات . وعندئذ تمتزج المادة والمعنى ، والمظهر والمخبر ، والقيم المعنوية بالسلوكيات الفاضلة فتجتمع تجارتان : مع الله ومع الناس . وهذا جانب من مفهوم العبادة الجامع . فالمفهوم القرآني الخاص

بالتجارة لا يتعارض مع مفهومها العام الشائع وإنما (الخيرية) تقوم على التوازن بين تجارة مادية وأخرى معنوية ،وحين تتعيّن مثل هذه الموازنة ، فالتجارة مع الله الأفضل وأعمالها الأكرم ونتائجها وآثارها الأصلح والأحسن .

وإذا جاز لنا القول : إن اقتباس القرآن مصطلحات حسيّة مثل مصطلحات البيع والشراء المعهودة للتعبير عن المعنويات والمجردات في التصور الإيماني والجهادي وما ينتج عنهما من أعمال فإن مثل هذا الاتجاه التربوي الاصلاحي أبلغ في النفوس وأعمق في العقول مما جعل لصيغ الاستفهام مثل : ﴿ هل أدلكم ﴾ والإخبار مثل ﴿ تؤمنون ﴾ ﴿ وتجاهدون ﴾ تدل على الإغراء بها والأمر بلزومها رغبة وإرشاداً وتعليماً .

و(الخيرية) في مثل هذه التجارة تنبىء عن ألوان من المعاني التي ترجوها النفوس وتحبها في الدنيا والآخرة ، فهي المغفرة ودخول الجنة والنصر على الأعداء وفتح البلاد .

فالماديات تحافظ على ماديتها وبالمفهوم المادي في القرآن أحياناً ، ولكنها في أحيان أخرى تكتسي أردية معنوية تصفها بالفضل والخير بل والأفضل والأحسن ، وعندئذ تتطور المفاهيم وتتغير وفق مقاصد القرآن العظيمة .

ومن أهم (السلع) أو (البضاعة) المعنوية إذا صح القول هي الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس المعطوف على الإيمان بالله ورسوله . فلا ربح إذا تجردت من إحدهما ولا خير إن افتقدتهما . يقول الرازي : والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة : جهاد فيما بينه وبين نفسه ، وهو قهر النفس ، ومنعها عن اللذات والشهوات ، وجهاد فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع منهم ، ويشفق عليهم ويرحمهم ، وجهاد فيما بينه وبين الدنيا ، وهو أن يتخذها زاداً لمآله . . .

٣ ـ التجارة النافقة مع الله : فنَفاق التجارة وكسادها يعتمد على نوعية العمل وإتقانه والاستمرار فيه تماماً مثل أنواع التجارات المادية باستثناء أن هذه قد تهلك أو تبور وتلك عند الله باقية نامية يزيد صاحبها من فضله ﴿ إنّ الذين يَتْلون كتاب الله وأقامُوا الصلاة وانفقوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانيةً يرجُون تجارةً لن تَبور .

لِيوفيَهم أجورَهم ويزيدَهم من فضلِه إنه غفورٌ شَكور ﴾ (فاطر : ٢٩ ، ٣٠) وإن اشتراك اللسان بالذكر والجسم بالصلاة والمال بالإنفاق تعني أن نفاقها بها مجتمعة ، فليست التجارة بالأقوال وحدها مثل ما يدّعي بعض الناس حتى يرّوج كلامه المعسول وبيانه المنمق وأحياناً تلاوته المصطنعة ، فمثل هذا يتاجر مع الناس وللناس ولا يتاجر مع الله ولله وربما راجت عندهم ولكنها بائرة عند الله .

وإن السياق والسباق الذي بيّن القرآن فيها التجارة الرابحة يشعر بأهمية خاصة لها ، فهي تالية للآيات في خشية العلماء ، وخص منهم علماء الكون وما فيه ومن فيه ، وسابقة لآيات الوحي الإلهي الحق ليشعر (تاليه) بهذا الحق ويفهم العامل به أنه محقٌّ مادام مصدقاً لما بين يديه .

ويلاحظ الإخبار عنهم وبصيغة الاستمرار (يتلون) المقترنة بسبق الصلاة عليها (وأقاموا) والإنفاق (وأنفقوا) وفي جميع الأحوال خفية وجهراً مما يؤكد تلازم العبادات اللسانية والبدنية والمالية في التجارة الرابحة مع الله .

ثم إن هؤلاء التجار (يرجون) رواج أعمالهم وقبولها لديه ، وهذا شأن المؤمن ألّا يوجب على الله ما لم يوجبه على نفسه ، ولا يلزمه بشيء لم يلزم به ذاته إنه (رجاء) ، ولكن الأجور وفاء من الله ، وحق لعباده يزيدهم منه فضلاً وإحساناً .

ومن أسمى المكافآت الإلهية هنا هو شكر الله لطاعة عبده وامتثال أوامره والإخلاص في عبوديته ﴿ إنّه غفورٌ شكور ﴾ ، ألا تعجز الكلمة عن تقدير هذا الفضل الإلهي (الشكر) قدره ، وحقه من التعظيم ؟ وصدق الله العظيم ﴿ وما قَدرُوا الله حقَّ قدرِه ﴾ (الأنعام : ٩١ ، الزمر : ٦٧) .

ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة : فهو خير الرازقين إن رغب المرء بالتجارة والربح ، ولكن التجارة معه وبسبب ما عنده من جزيل العطاء وكريم المنن وسعة الرحمة والمغفرة ، وعظيم الإحسان يفوق منافع التجارة وأموالها ويفضل أعمالها وآثارها ، فإن ما عند الله باقٍ وما عند غيره فانٍ وما عنده خير رزق معنوي ومادي ﴿ وإذا رَأَوْا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوكَ قائماً قلْ ما عندَ الله خيرٌ من اللّهو

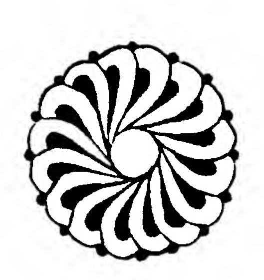
ومن التجارة والله خيرُ الرازقين ﴾ (الجمعة : ١١) .

إنه مثال للانصراف عن الله ورسوله بسبب الميل إلى اللهو بدق الطبول وقرع المزامير وبسبب الحرص على التجارات التي تغريهم رؤيتها وتصرفهم أموالها .

وكأن الله أنزل آيته اليوم ، فإن إقبال الناس على ألوان اللهو أنساهم سمو الروح وعبوديتهم للمال،والتجارة من أي سبيل حجبتهم عن معاني الخير وجوهر البر ، فمتى يقبل المسلمون إلى الله ويتاجرون معه نجاة وفتحاً ؟ ألا ينبغي أن تكون أموالهم وتجاراتهم وسيلة لتمتين أواصرهم بالله وحسن صلتهم به ؟ وهل ترقى حضارة قطعت صلتها بالله وانغمست في المادية المفرطة ؟

إن تفضيل المعاني والجوهر لا تنفي الفضل للمادة والحس ، وخيرية القيم وحسناها لا تتنكّر لأصل الخير والحسن في معايش الناس وأمورهم الحياتية وتطلعاتهم الانتاجية ، والحق أن خيرية الأولى تدفع إلى صلاح الثانية ولا عكس ، وإن جوهرية المعاني والمثل تهدي إلى الخير الدنيوي في إطار النعم الإلهية التي لا تعدّ ولا تحصى .

ولكن سلّم (الأولويات) الحضارية لابد أن تجد الخير والصلاح والفضائل مكانها في الأرفع والتقديم على اعتبار أنها قيم فكرية وخلقية يمكن أن تنبثق منها كل الأعمال والأحوال والمظاهر الطيبة .



في العواطف الإنسانية المختلفة

ويزخر القرآن بمجموعة كبرى من العواطف الإنسانية المتعارضة مثل : الحب والكره ، والرضا والغضب، والإعجاب والتواضع ، والسرور والبؤس ، والاستجابة والتمرد، والتسامح والحقد ، والرجاء واليأس . . .

وهو قادر بأروع بيان على تصوير العواطف ضمن إطارين كبيرين : الترغيب والترهيب ، قدرته على إثارة عواطف الخير والبر والصلاح لترغيب صاحبها في فعل الخير والدعوة إليه ، وللترهيب من فعل الشر والدعوة إليه . واستخدم لها أدوات مثل : ألا ، أما ، لام البعد ، وأنواع الاستفهام غير الحقيقي ، وأدوات التأكيد والتنبيه ، والقسم والتحذير . . . وأساليب مؤثرة مثل : الدعاء ، والرجاء ، وتغيير الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب وبالعكس ، والصور الفنية الرائعة ، والحوار .

وإذا ثبت أن بعض مكونات الإيمان ركن عاطفي يزيده العمل الصالح حرارة ويضعف وهجه الفساد فهذا يعني أن الجانب العاطفي في القرآن كله لا يقل حجماً ولا أهمية عن الجوانب العقلية والعملية .

ولقد عالج القرآن في (أغراضه) المتنوعة الوجود الكوني والإلهي معالجة تتداخل فيها الأبعاد العقلية والعاطفية والعملية ، وربط ذلك كله بقيمة الخير ومجالات الشر ربطاً يوحي أنه لابد من أن تصنف في واحد منها مهما تلونت وتزينت وأصابها الغبش الذي قد يعشو العين .

الحب والكراهية : فللإنسان أي إنسان نزوع إلى الحب وإن اختلفت المحبوبات ، وهو يشتهي أشياء مما هي في محيطه وخارج محيطه وإن تباينت المشتهيات ، ويكره أشياء يشترك معظم الناس في كراهيتها وإن تعددت المكروهات ، ويبغض أحوالاً وأحداثاً وأشياء من ذكرياته وواقعه ويتخوف منها في

مستقبله وإن وضحت أو خفيت المبغوضات ، فهو يحب النساء والبنين والأموال والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . كما تقدم في الآية الجامعة .

ألوان من الحب :

حَبّ ، أحبّ ، تُحبون ، حُب ، حبِّه ، أحباؤه ، محبة ، استحبوا . . . من أطول المفردات الجمالية .

وهي إذ تدل على صدق مضمونها واستقامة مشاعرها ، ونظافة عاطفتها فإن تعدد متعلقاتها ومجالاتها يشيع روح الألفة والأنس وأحاسيس المودة والالتزام .

ومع تشعب هذه المادة في الاشتقاق والمتعلقات فإنها لا تضعنا وحدها في معالجة موقف (الحب القرآني) إن صح التعبير ، وإنما لابد لنا من أن يمتد النظر والمعالجة إلى مواد أخرى مثل : المودة ، الرضا ، الحق ، الشهوات . . . حتى يتجلى أمامنا الرأي العام لهذه القضية الحساسة ، ولكن عملنا سيقتصر على تصنيف هذه المادة وحدها وإلقاء الضوء على دلالتها الجمالية .

فللإنسان عموماً محبوبات ، وللمؤمن محبوبات باعتباره إنساناً ومؤمناً ، ولله محبوبات ومكروهات . . . فالحب صفة مشتركة بين المخلوق والخالق .

فالإنسان عموماً يحب الحياة الدنيا ﴿ كلّا بل تحبُّون العَاجلة ﴾ (القيامة : ٢٠) ويحب المال كثيراً ﴿ وتحبُّون المالَ حبَّاً جَماً ﴾ (الفجر : ٢٠) ﴿ وإنّه لحبِّ الخيرِ لَشديد ﴾ (العاديات : ٨) . وقد انحرف (الحب) هنا إلى مبالغات مرفوضة نابية عن الفطرة السليمة . ولكنه في المحبوبات الأخرى يقرر القرآن استجابات الفطر الإنسانية العامة لها كما مرت في آية (آل عمران : ١٤) .

وفي آية(التوبة : ٢٤) ،التي سنذكرها فيها بعد ، محبوبات أخرى : كالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ، والتجارة الرائجة ، والمساكن الرضية . . .

ومن الحب الحرام (والشرير) الذي يدل على انحراف الفطر : حب الأنداد لله (البقرة : ١٦٥) ﴿ ومن الناسِ مَنْ يتخذُ من دونِ الله أنداداً يحبونَهم كحبِّ الله ﴾ ، والحب الشغوف للدنيا ﴿ إنّ هؤلاء يُحبون العاجلةَ ويذَرُون وراءهم يَوماً ثَقيلاً ﴾ (الإنسان : ٢٧) وامرأة العزيز التي ﴿ قد شغَفَها حُباً ﴾ (يوسف : ٢٠) . . .

ومنه : حب الثناء والشهرة من غير عمل ﴿ ويحِّبون أن يُحمَدُوا بما لم يفْعلوا فلا تحسبنَّهم بمفَازةٍ من العذاب . . . ﴾ (آل عمران : ١٨٨) ومحبة نشر الفساد والفواحش ﴿ إن الذين يحِّبون أن تَشيع الفاحشةُ في الذين آمنُوا لهم عذابٌ أليم في الدنيا والآخرةِ . . . ﴾ (النور : ١٩) .

المؤمن يُحب ويُحَب : فهو يحب المشتهيات البشرية التي سبق الكلام عليها ولكنه أعظم حباً لرسالته التي حمله إياها الإسلام والمهمة التي خلقه الله من أجلها ، فقد عقب الله على محبوبات (الناس) التي ذكرها في آية آل عمران بقوله : ﴿ قلْ أؤنبِّكم بخيرٍ من ذلكم للذين اتقَوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ، ورضوانٌ من الله والله بصيرٌ بالعباد ﴾(آل عمران : ١٥) . فأين هذه المحبوبات الخالدة والنعيم المقيم ورضوان الله من مشتهيات فانية نبه القرآن إليها للابتلاء والامتحان ؟ .

وصرح القرآن بالحب (الأفضل) وآثاره العظيمة في آية التوبة ﴿ قلْ إن كان آباؤُكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتكمْ وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كَسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتِيَ الله بأمرهِ والله لا يهدي القومَ الفاسقين ﴾ (التوبة : ٢٤) . إنها محبوبات إنسانية أقل (خيرية) وفضلاً من حب الله ورسوله . . .

ولذلك فالمؤمن يحب النظافة والتطهير الظاهرين والباطنين : ﴿ فيهِ رجالٌ يحبّون أن يتطهَّروا . . . ﴾ (التوبة : ١٠٨) ﴿ يحبُّ التوابين ويحب المتطهِّرين ﴾ ، ويحب أخاه المؤمن ويؤثره على نفسه ﴿ يحِّبون مَن هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُوتوا ويؤثرونَ على أنفسهم ولو كان بهم

خصَاصة ﴾ (الحشر : ٩) .

ويحب إنفاق المال لذوي القربى والمحاويج ﴿ وآتى المالَ على حُبه ذوي القُرْبى واليَتامى والمساكينَ . . . ﴾ (البقرة : ١٧٧) ويحب انتصار الإسلام وإعلاءه في الأرض ﴿ وأخرى تحبونَها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب ، وبشّر المؤمنين ﴾ (الصف : ١٣) ، ويحب هداية حبيبه ويسعى إليها ﴿ إنك لا تَهْدي مَن أحببتَ ولكنَّ الله يهدِي مَن يشاء ﴾ (القصص : ٥٦) .

ويحب أن يعفو ويصفح حتى يغفر الله له ذنوبه ﴿ ولْيعفُوا ولْيصفحُوا ألاَ تحبونَ أن يغفرَ الله لكمْ والله غفورٌ رحيم ﴾ (النور : ٢٢) .

وهو لا يحب الرذائل ومنها الغيبة ﴿ أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً فكرهْتموُه ﴾ (الحجرات : ١٢) .

ولكن أعظم المحبوبات وأخلصها وأعمقها هي حبه لله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشدُّ حباً لله . . . ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

وهذا يقتضي متابعة الأوامر الإلهية وطاعة رسوله عن محبة والتزام ﴿ قل إن كنتُم تُحبون الله فاتّبعوني يحبْبكُم الله . . . ﴾ (آل عمران : ٣١) .

٢ ـ الله محب وحبيب : فهو يصرح بحبه للمؤمنين والمحسنين ، والتوابين ، والمتطهرين ، والمتقين ، والصابرين ، والمتوكلين ، والمقسطين ، والمجاهدين ﴿ إن الله يُحبُّ الذين يُقاتلون في سبيلِهِ صفاً كأنهم بنيانٌ مَرْصوص ﴾ (الصف : ٤) .

وعلى العكس فإنه يصرح بأنه لا يحب المعتدين والفساد والمفسدين ، والكافرين ، والظالمين ، والمستكبرين ، والخائنين الآثمين والمسرفين ، ومدعي الحب من اليهود والنصارى ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه قل فلمَ يعذبكُمْ بذنوبكمْ . . . ﴾ (المائدة :١٨) وما أجمل وشائج المحبة وروابط المودة بينه وبين المؤمنين ، فهو يرضى عنهم ويرضون عنه ، ويودهم ويودونه و﴿ يحبّهم ويحبّونه ﴾ (المائدة : ٥٤) ، فحبب إليهم ﴿ الإيمانَ وزينّه ﴾ في قلوبهم ، وأجرى فيهم محبته وفق حكمته البصيرة ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ

والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

والحب قدر الله لعباده وعلى عباده لا يجد معه الإنسان فكاكاً ﴿ وألقيتُ عليك محبةً مني ولتُصْنعَ على عيني . . . ﴾ (طه : ٣٩) .

ولابد أن يجعله بين المؤمنين الصالحين المتحابين فيه ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعلُ لهمُ الرحمنُ وُدّاً ﴾ (مريم : ٩٦) . وبين الزوجين ﴿ وجعلَ بينكم مودةً ورحمةً . . . ﴾ (الروم : ٢١) ، والأعداء ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتمْ منهم مودةً . . . ﴾ (الممتحنة : ٧) ولا عجب في ذلك فهو المحب لمن آمن به وتاب إليه وسار على منهجه ﴿ وهوَ الغفورُ الودودُ ﴾ (البروج : ١٤) .

وأخيراً فإن (الحب) الذي اعتاده اناس ، عاطفة مؤلمة ومشحونة بالحنين واللوعة وكان هذا مبعثه الجمالي عند الشعراء والأدباء اتخذ في المفهوم القرآني مجالات أرحب ، و(محبوبات) أغزر وجماليات أكثر ثم أضحى شعوراً هادئاً وعميقاً يظهر مكامن العواطف الأخوية ، وتربط المؤمن بمحبة الله العلي الأعلى [1] . ونتيجة عامة لما سبق هي أن الحب منه ماهو خير ومنه شر .

وعاطفة التعظيم تجمع بين عاطفتي الحب والتقدير تشعر بإكبار المعظمات والمقدسات باعتبارها معالم وشعائر عظمى . ﴿ ذلك ومَن يعظِّم حرماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربه ﴾ (الحج : ٣٠) إن المعظم يحبها لأنها من محبوبات الله ويقدرها لأنها من حرمات الله ، ومقتضى ذلك الرعاية الكاملة فلا تمس بسوء ولا تنتهك لها حرمة . وأي خير أعظم منها في النفس وأعمق في الحياة حيث يأمن فيها الناس من البغي والعدوان ويعيشون في منطقتها بروحانية وسلام ؟ وهل يقل خير الآخرة عن ذلك عند الله وما يكرم به المعظم من جزيل العطاء ووافر المنح وكريم المصير ؟

---

(١) من كتاب : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم للمؤلف .

المحبوب مكروه والمكروه محبوب :

والأشياء إما أن تكون محبوبة أو مكروهة أما (المحايدات) فلا تدخل في إطار العواطف ، والشيء المحبوب قد يكون خيراً عاماً أو خيراً خاصاً ، أو يكون شراً عاماً أو شراً خاصاً. فإن أحب المرء الخير وكره الشر عاماً أو خاصاً فهو خير، ومثله أيضاً إن كره الشر عاماً أو خاصاً فهو خير،وهذا يدل على سلامة فطرته وثاقب نظرته ، وهو ما يفهم من جانب الكراهية معنى قوله : ﴿ وعسىَ أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

وإن كان المحبوب شراً عاماً أو خاصاً حيث تزين له أو خدع به فإن كرهه بعد أن عرفه على حقيقته فهو خير ، وهذا معنى قوله : ﴿ وعسىَ أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكم ﴾ (البقرة : ٢١٦) . أما إذا أحبه في صورته الخادعة فهو شر وهذا هو ما يفهم من الآية السابقة أيضاً .

وبالمقابل حين يكون الشيء مكروهاً : فقد يكون في حقيقته وجوهره خيراً عاماً أو خاصاً ، وكراهيته قد تعود عندئذ لصعوبته أو لعدم تبيّنه ، فإن حبه له على كره منه خير ، حيث عرف حقيقة الشيء خيراً ، ولذا فلا ينبغي أن يكرهه بعد أن تبين له أنه خير وإن كان مكروهاً لدى بعض البسطاء ومن كان في البداهة الخاطفة .

فالعمل المشروع مثلاً خير للعام وخير للخاص وفيه خير عام وخاص ، فإن أحبه الإنسان وقام به فهو خير له وللآخرين وإن بدا فيه ما يكرهه من الصعوبات والمشقات،وحينئذ فإذا كرهه فلا تكون الكراهية في موضعها السليم وهذا هو ما يفهم من قول الله السابق : ﴿ وعسىَ أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ﴾ . وقريب منه النجاح في المهمات المشروعة والمشكلات المستعصية .

وترك العمل المشروع شر للعام وشر للخاص وفيه شر عام وخاص ، فإن أحب ترك العمل فهو شر وإن بدا فيه الراحة وعدم التعرض للمشكلات ، وإن كرهه وأقبل عليه عاملاً نشيطاً ماضياً فيه ، مستهيناً بمتاعبه ومعوقاته ، فهو خير ،

وهل هناك خير أعظم من أن يترك الإنسان الكسل والعقود والبطالة وينشط للعمل شاغلاً مجداً صبوراً ؟ وهذا أيضاً معنى قول الله السابق .

والنتيجة هي أنه ليس كل محبوب خيراً يستحق عاطفة الحب لأنه قد يتضمن الشر ، كما أنه ليس كل مكروه شراً ويستحق عاطفة الكراهية فإنه قد يتضمن الخيرية ، فإن ارتباط الشيء بالخير والشر يرجع قبل كل شيء إلى محتوى العمل وطبيعته ضمن معايير صحيحة وعادلة ، وإن علاقة الإنسان بالشيء حباً وكراهية يرجع إلى نظرة الإنسان الثاقبة أو السطحية أو المنحرفة في القيام به أو تركه .

وتقديرات الإنسان للشيء خيراً وشراً لا تصح دوماً من خلال نظراته فله نظراته المختلفة ولا من خلال ممارساته فله ممارسات سليمة وخاطئة ، ولا من خلال ارتباطاته بغيره فإن ارتباطاته مستقيمة ونفعية . وعندئذ قد يكتشف فيما بعد أنه على صواب بعد أن ظن أن عمله كان شراً ، وقد يكتشف أنه على خطأ وربما كان خطأ جسيماً بعد أن ظن أن عمله كان خيراً ، فإن الواقع قد يغيّر الأسماء والصفات والنظرات ولكن لا يغيّر الحقيقة والماهية . وتلك حكمة باهرة تجعل الإنسان مفكراً وعاملاً ومختاراً .

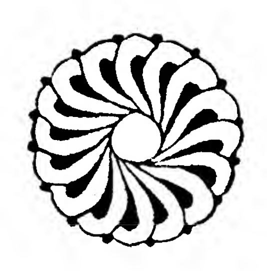
وهذا يؤدي بنا إلى نتيجة عامة هي أن الحب عموماً فيه خير وفيه شر ، ومنه خير ومنه شر ، وأن الكره عموماً فيه شر وفيه خيرٌ ومنه شر ومنه خير وبتغلب الأول على الثاني في كليهما يتحدد مفهوم الحب والكراهية ، فهناك مثلاً حب عقلي مثل الذكاء والنبوغ ، واللذات العقلية ، والسعادة الفكرية ، وحب الحق . . . وحب قيمي مثل : حب الخير والجمال والفضائل ، والوالدية ، والولدية . . . ويدخل فيه ما يسمى بالحب العلوي مثل : حب الروح ، ومحبة الله ورسوله ودينه ، وألوان أخرى من الحب المتقدم .

وإلى جانبه ألوان من الحب المحرم والمشبوه والشهواني والأهوائي والبهيمي .

ويغلب على الأول صفة الاستمرار والدوام بينما يأخذ الثاني صفة النزوة

الآنية ، وكذلك فقد يصبح الحب الخير عاطفة ثابتة وسائدة على حياة المحب ، ويتقلب الشرير في انفعالات طائشة عجلى .

والمهم هنا هو تبين الحكمة من التصرفات والمعاينات والعلاقات المحبوبة والمكروهة وعدم التسرع في الحكم عليها وعدم اليأس من رحمة الله ومواصلة العمل وتجديد الثقة بكفاءة المصاب ، وعدم الاسترسال الدائم في بحور الآمال والأماني المعسولة ، وهو جانب فكري وعاطفي وعملي قيم في حضارة القرآن .



في العواطف المرفوضة

وإذا كان معظم العواطف مكتسبة حسب دوافعها وموضوعاتها فإن إرادة الإنسان الحازمة قادرة على تطويع كثير منها وتهذيبه بتحكيم الشرع والعقل والمصلحة ، إذ إن قدرته على التخفيف من تحكم الحب والكره وتلطيف الحقد والحسد وتصعيد الهلع والجزع . . . وغيرها من الرياضات النفسية التي ثبت نجاحها وبالعكس فإن طغيان هذه العواطف أو بعضها أو واحدة منها مما يدعى بالعاطفة السائدة يبلور قدرات الإنسان ونشاطاته جميعها ضمن سيادة هذه العاطفة وغلبتها وهيمنتها إن بقي لصاحبها قدرات ونشاطات .

والقرآن حين يصور شدة هذه العواطف في أحداث معينة ونماذج مشهورة فإن الوجهة التهذيبية منها كفيلة أن تنبه إلى ضرورة التخفيف أو الإقلاع ، وذلك لأن القرآن بتقديمه النماذج الحادة الشديدة يمنح البشرية وعياً لها ، واستجابة عقلية وحسية لشدتها ، وكثيراً ما يترك للعقل أن يناقش مثل ما يدفع بالإرادة القوية التي تتبصر مع العقل أو ينشط معها في تكامل القوى والفعاليات .

وهي مسألة أو طريقة تربوية قادرة على التغيير كلياً أو جزئياً قدرتها على التلطيف والتخفيف .

الحسد والفرح الحاسد : وبعضه متصل بالحب المرفوض يتعمق في الجذور الدينية حيث تنبثق عنها سلوكيات أهلها وحضارتهم ، فالكافرون من أهل الكتاب والمشركون لا يحبون أن يصيب المؤمنين أي خير من الله فهم يكرهون ذلك ويحسدون المسلمين عليه ، ولكنهم يظهرون المودة والصلات الحسنة ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهلِ الكتاب ولا المشركين أن ينزَّل عليكم من خيرٍ من ربكمْ . . . ﴾ (البقرة : ١٠٥) والخير يفسر بعمومه مثل : العلم والنصرة والرحمة وفي مقدمته : الوحي المنزل من الله فهم يرون أنهم من هذه الناحية أولى

به فلليهود الدراسة وللمشركين الرياسة ، وإذاً فإنهم يحسدون المؤمنين على اختصاصهم بالوحي الإلهي وغيره .

أما اليهود فلأنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون في مهابط الوحي ، وأما المشركون فلخوفهم على الجاه والمال والزعامة [1] . . .

وإذا عمم (الخير) ولم يحدد بمفردات في الآية السابقة فإن فئة ثالثة أشد اتصالاً بالمؤمنين وأدنى موضعاً منهم هم المنافقون الذين يطلعون على المسرات التي تأتيهم والمصائب التي تنزل بهم واحدة بعد أخرى ﴿ إن تمسَسْكم حسنةٌ تسؤهمْ وإن تُصبكمْ سيئةٌ يفرحُوا بها وإنْ تصبرُوا وتتقُوا لا يضرُّكم كيدُهم شيئاً إن الله بما يعملُون مُحيط ﴾ (آل عمران : ١٢٠) فقد جمعوا العداوة من جميع أطرافها ، ففي حالة النعمة والخير يضطربون وتقلق نفوسهم ويأكلهم الحسد وتضنيهم الشماتة،وفي حالة المصيبة والشر يفرحون ويعلنون فرحهم لا من أجل أنهم نجوا منها ووقوا شرها وإنما من أجل أنها نزلت بهم وأصابهم ضرها وبلواؤها .

والعجيب أنهم قد يشتركون مع المسلمين بالخير والنفع الدنيوي مثل : الصحة ونماء الزرع والكسب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وسائر منافع الدنيا ، كما يشتركون معهم في المصائب والشر مثل : المرض والفقر والهزيمة والقتل والنهب والغارة .

ولكنها العدواة المتناهية والمنتهية إلى الحسد والكراهية ، والتعبير القرآني يلهم أن (مس) الحسنة مجرد المس يزعجهم ويؤلمهم فهي أدنى مراتب الإصابة بالحسنة ومدار مساءتهم ، بينما التعبير (بإصابة) السيئة هو مناط فرحهم فلا يفرحون للمس الخفيف وإنما بغلطة الضر وسوئه .

وبين القرآن علاج الحسد والفرح الحاسد بشيئين : بالصبر عليه حتى يأكل بعضه بعضاً ، والتقوى التي تربطهم بالله في الأوامر والنواهي ، وإن صبرهم وتقواهم كفيلان أن يعصموا أنفسهم من كيدهم وضرهم بفضل الله تعالى

---

(١) سأعود إلى تفسير الآية بتوسع .

وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ، وذلك على الرغم من أنهم قادرون بقدرة الله على منازلة خصومهم الحاسدين وإيقافهم عند حدهم .

الهلع : وفسرّه القرآن تفسيراً نفسياً وسلوكياً ، فهو الخوف والشكوى في الشر ، والمنع والشح في الخير ﴿ إن الإنسانَ خُلق هَلُوعاً . إذا مسّه الشرُ جَزوعاً . وإذا مسّه الخير منوعاً . إلا المصلّين الذين هم على صلاتهمْ دَائمون ﴾ (المعارج : ١٩ - ٢٣) .

قال الرازي : هلع الرجل يهلع هلعاً وهلاعاً فهو هالع وهلوع وهو شدة الحرص وقلة الصبر ، يقال : جاع فهلع ، وقال الفراء : الهلوع : الفجور ، وقال المبرد : الهلع : الضجر ، يقال : نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الأقران . . . ثم يقول : والمراد من الشر والخير : الفقر والغنى أو المرض والصحة . . . والتعبير القرآني عموم الخير والشر . فالإنسان قلق ضجور في حياته وبخاصة في عصر التخوف على المستقبل والحروب المفنية والشهوات المدمرة ، فهو متخوف منها قبل وقوعها وجزوع لها أثناء وقوعها ومتوقع حدوث مثيلاتها بعد الانتهاء منها ، وما أكثر الشرور والمساوىء التي تصيب الإنسان ، فإذا كان واحد منها يجعله جزوعاً خائفاً دائم الجزع والخوف ، فقد لايتوقع تغييراً ولا فرجاً ويبتلى باليأس من إصابته به وشموله حياته بعد أن كان مساً خفيفاً ، ولكن حين يمسه الخير فإنه يبخل به على الآخرين ويتخوف من المستقبل المجهول الذي قد يأتي له بالمصائب والأمراض والفقر فيستأثر به لنفسه ويحرص عليه أشد ما يكون الحرص . إنه الإنسان الذي خلا قلبه من الإيمان ، وتجردت نفسه من اليقين بالله وانقطعت صلاته بصلاته عن ربه وصلاته بالمحاويج ، وكذب بيوم الدين . . . أوليست هذه الصورة أدق الصور صدقاً في التعبير عن ملامح نفسية الإنسان الهالع الجازع المانع في عصر التكالب على المادة والخواء من الإيمان والقوى الروحية ؟ ألا تحتاج حضارة القرآن في تأسيسها وإعمارها إلى مثل هذا الينبوع الطاهر الثر الذي لا ينضب ؟

العجلة بين الله والناس : فالناس يتلهفون إلى الخير ويستعجلون طلبه من أي

مصدر حتى من الله تعالى فهم يطلبونه بسرعة تتناسب وقصر أعمارهم وتخوفهم من عدم الإجابة ، والخير يشمل طلب المنافع الدنيوية وكشف المصائب والشدائد ، والله تعالى يجيبهم تنبيهاً واستدراجاً وإسعافاً، ومن رحمته بهم وسعة حلمه عليهم أنه لا يعجل لهم العقوبة بل يمهلهم ، إنه يترك لهم فرص المراجعة والأوبة إليه فلا يقضي إليهم أجلهم ويذرهم في طغيانهم وتمردهم يترددون فيه حتى يلزمهم الحجة بالعناد والإعراض ﴿ ولو يعجِّل الله للناس الشرَ استعجالَهم بالخير لقضيَ إليهم أجلُهم فَنذرُ الذين لايرجُون لقاءنا في طُغيانهم يَعْمهون ﴾) يونس : ١١) . فالله ليس مثل الناس فلا يعاملهم بمثل ما يعاملونه به ، ولا يسرع بهلاكهم حتى وإن ضجر بعضهم ودعوا بالشر فالله يرحمهم فلا يعجله لهم استعجالهم بالخير والفضل .

وعندئذ يقصر في دعائه بالكشف عنه في أحواله كلها ، مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً فإذا كشف الله عنه السوء رجع إلى غيه واستمر في ضلاله ونسي حالات التضرع إليه ﴿ وإذا مسّ الإنسانَ الضرُ دعَانا لجنْبه أو قاعداً أو قائماً فلما كَشفنا عنهُ ضرَّه مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍ مسَّه كذلكَ زُين للمسرفين ماكانُوا يعملون ﴾ (يونس : ١٢) .

ومثل هذا التنبه القاصر والآني لا يرفع الإنسان إلى مستوى الإيمان البصير النفاذ المستمر،وإن مجرد استجابة الله له وكشفه الضر لا يجعل صاحبه في صف المؤمنين الواعين حقيقة الدعاء ومستلزماته وإنما هم المسرفون الذين زينت لهم أحوالهم وأعمالهم فطمست على بصائرهم وحقائق وجودهم .

وهي زينة مرفوضة سنفصل الكلام عليها بعد قليل ، ولكن الملاحظة هي في التعبير (بالناس) في الآية الأولى حين يراد إهلاكهم جماعة ، و(بالإنسان) المصاب بالضر في الآية الثانية حين يكثر الضرر ويتنوع لكل إنسان حسب مواقفه وعلاقاته وهذا كله يعني أن يحذر أولو الرأي والحكمة والبصر من خراب حضاراتهم حين تبدأ بالزوال حتى تدمّر من بعد ذلك تدميراً .

العجلة واليأس : وقريب مما سبق قوله : ﴿ ويدعُ الإنسانُ بالشرِّ دعاءَه بالخير

وكان الإنسانُ عَجولاً ﴾ (الإسراء : ١١) . إنه في وقت الضجر يسب ويلعن وأحياناً يدعو . فلو استجاب الله دعاءه لهلك وهلك من يدعو عليه وإن كان أعز أقربائه وأنسبائه وأصدقائه . وهذه العجلة التي تعني التسرع في الأحكام ، وردود الفعل لا تدعه يفكر في حقيقة حاله ومآله فربما ندم عليه بعد فوات الأوان ، وكذلك فإنه حين يتعجل الخير بالدعاء فإن قد يتعجل شيئاً يبدو خيراً وفي حقيقته شر وضرر ، والعجول وحده يتحمل نتائج عجلته سلوكاً طائشاً مغتراً بظواهر الأمور غير متفحص حقيقتها وأسرارها . وفي الآية توجيه إلى تهذيب العجلة في حالات غير مجدية واستبطاء الخير في وقته وموضعه ، ولذا فإن تعبيره (عجولاً) بصيغة المبالغة يقتضي مثل هذا التهذيب ولا يقتضى حسمه من نفسه وعواطفه .

واليأس متلازم مع العجلة والإكثار من المطلوبات ﴿ لا يسأمُ الإنسانُ من دعاءِ الخيرِ وإن مسّه الشرّ فيؤوسٌ قَنوط ﴾ (فصلت : ٤٩) . فلا تنتهي طلباته عند حد ، ولا يملّ من دعواته المتتالية فهو يستزيد منها ويطمع بها ، ولكن ما أن يمسه الحرمان والضر فإن اليأس يتملكه حتى تسودّ الدنيا في وجهه وتؤول حاله إلى يأس قاتل ، يظهر في أساريره وأحواله الظاهرة . ويلاحظ من الآية قبلها ﴿ مَن عملَ صالحاً فلنفسه ومَن أساء فعليها وما ربُّك بظلّام للعبيد ﴾ (٤٦) إنها دعوة إلى العمل الصالح مجانباً الدعاء المستمر العجول ، منصرفاً عن اليأس والفشل والآية بعدها تؤكد سابقتها ﴿ ولئن أذقناهُ رحمةً منا من بعدِ ضرّاء مسّته لَيقولَنَّ هذا لي وما أظنّ الساعةَ قائمةً ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده للحسْنى ﴾ (فصلت : ٥٠) .

إنه خواء الإيمان وفراغ العقيدة والتقلب المضني وادّعاء على الله بحقيته وملكيته فلا يزول عنه ، وامتداد بالوهم والآمال الكاذبة أحقاباًطويلة إلى يوم القيامة .

فهل لهذا وأمثاله قدرات وفعاليات لأن يشيدوا حضارة القرآن ويكونوا رجالها وحامليها ؟

الأعجاب وغرور الأماني : ونظير السابقين أولئك المنافقون الخادعون المخدوعون

بمظاهر جمالهم وحسنهم حتى يوهموا الآخرين بأنهم على حق وخير .

وعاطفة الإعجاب بالمظاهر هنا كثرة ونوعاً لا يمكن أن تتحول إلى خير وحسن حقيقيين، وتبقى هذه العاطفة مريضة بالغرور وضعف النظرة وسطحية الرؤية ﴿ قل لا يستوي الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبكَ كثرةُ الخبيثِ ﴾ (المائدة : ١٠٠) فالخير ليس بالكثرة ولا بخداع المظهر ولا بالإعجاب السراب فهؤلاء المنافقون يسوء حالهم في الدنيا مهما كان حالهم معجباً ، وفي الآخرة حين يضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ بسورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرهُ من قِبَله العذَاب . يُنادُونهم ألم نكنْ معكم قالوا بلى ولكنكم فَتنتُمْ أنفسَكُم وتربَّصتمْ وارتَبتمْ وغرّتكمُ الأمانِيُّ حتى جاءَ أمرُ الله وغرَّكم بالله الغَرور ﴾ (الحديد : ١٣ ، ١٤) .

إنهم كانوا مع المؤمنين يعملون الصالحات نفاقاً ويقومون بها خداعاً ، ويشاركونهم حياة الصلاح مكراً ، وهذه المظاهر وحدها كافية في نظرهم ليصيروا مثل المؤمنين ، ولكن المؤمنين يردون عليهم بأنهم فتنوا أنفسهم بالنفاق المضمر ، وتباطئوا بالإيمان وأحاطهم الشك ، وخدعوا بالأماني الكاذبة أنهم على خير وصلاح .

فكيف يمكن لأمثال هؤلاء أيضاً أن يقيموا حضارة القرآن ويحملوها ويرعوها حق رعايتها ؟

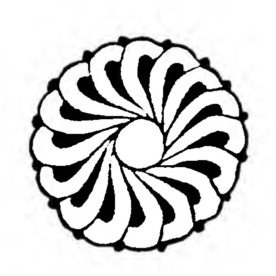
الإعجاب وتزيين الشر والسوء : وهؤلاء وأولئك لا يتلبسون بالشر مجرداً ولا بالسوء خالياً وإنما يزينونه ويزخرفون ظاهره حتى يخدع به بسطاء الناس ، والتزيين سلوكية للعواطف التي تظهر الحب والإعجاب في تشكليلات وصور مختلفة .

فالتغيير التزيني الظاهري للكفر والضلال قد يغرّ صاحبه والآخرين فيعجب بعمله المزخرف مهما كانت طبيعته وهدفه من الإثم والسوء، وعندئذ فلا يقبل الهداية ، ولا يرجى إسلامه ولا يتحسر على كفره ﴿ أفمَن زُين له سوءُ عملهِ فرآه حسناً فإن الله يضلُّ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاء فلا تذهبْ نفسُك عليهم

حسراتٍ أن الله عليمٌ بما يَصنعون ﴾ (فاطر : ٨) .

وعلى هذا فلا يتساوى المستبين من علاقته بربه والمتبع هواه في تزيينه المرفوض ﴿ أفمَنْ كانَ على بينةٍ من ربِّه كمن زُين له سوءُ عملهِ واتبعُوا أهواءَهم ﴾ (محمد : ١٤) . قال أبو السعود في تفسيره : فمن كان مستقراً على حجة ظاهره وبرهان نيّر من مالك أمره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ من الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبح القبائح ، (واتبعو) بسبب ذلك التزيين (أهواءهم) الزائفة ، وانهمكوا في فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ماهم عليه فضلاً عن حجة تدل عليه .

إنه تزيين خادع وزخرفة سراب فكيف إذا جعله الإنسان إطار زينة للشر والسوء ؟ .



الإلهيات والخير

أخذ (الخير) ومرادفاته حيزاً كبيراً في الجانب الإلهي من القرآن الكريم ، فإن كثيراً من الآيات تتحدث عن الألوهية والنبوة والكتب والجزاء وأخصها القرآن وما يتبعه من العقيدة والتشريع والعبادة ثم الرسول ﷺ ، وهذا يعني اهتمام القرآن به مثل اهتمامه بالحق ، فالله مصدر الخير والطيب والصلاح والحسن والبر،ولذا فإنه قيمة عقدية مثل ما أنه قيمة خلقية سلوكية تجعل الناس يتطلعون إلى خيره نعمة وعطاءً ، وتجعل المؤمنين يقيمون حضارتهم على أسسها الإيمانية والعملية .

الله والخير

لم يرد (الخير) اسماً لله تعالى ضمن أسمائه الحسنى ولا في غيرها ، على عكس مامر معنا في اسم (الحق) المصرح به في الآيات والأحاديث الصحيحة . وما دامت أسماؤه توقيفية فليس لأحد أن يزيد فيها أو ينقص منها . . . ولكن جاء في قوله تعالى : ﴿ خيراً ﴾ في آيات كثيرة ، منها : قول سحرة فرعون المؤمنين حكاية ﴿ والله خيرٌ وأبْقَى ﴾ (طه : ٧٣) يقول أبو السعود في تفسيره : أي في **حد ذاته** . . . وأبقى جزاءً ثواباً كان أو عذاباً أو هو خير ثواباً وأبقى عذاباً والقول الأخير للرازي يشير إليه : ﴿ والله خير ﴾ ثواباً لمن أطاعه ، ﴿ وأبقى ﴾ عقاباً لمن عصاه . وسائر المفسرين على ذلك ، فشيخهم (الطبري) يقول : والله خير منك يا فرعون جزاءً لمن أطاعه ، وأبقى عذاباً لمن عصاه وخالف أمره ، وبعد أن يسند القول إلى شيوخه يأتي برواية أخرى عنهم : خير منك إن أطيع ، وأبقى منك عذاباً إن عصي . ويبدو أن القاضي أبا السعود أراد أن يحترز عن شبهة التفاضل بالخيرية بين الله وغيره ومنهم فرعون فقال : **في حد ذاته** ، مما

يشعر بالتفاضل ، وهو غير مراد .

وجاء في الصحيحين وغيرهما قوله : . . ورأيت فيها بقراً، والله خير فإذا هم المؤمنون يوم أحد ، وإذا الخير ماجاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي آتانا الله به بعد يوم بدر[1] .

يقول ابن حجر[2] : قوله (والله خير) هذا من جملة الرؤيا كما جزم به عياض وغيره ، كذا بالرفع فيهما على أنه مبتدأ وخبر ، وفيه حذف تقديره : وصنعُ الله خير ، قال السهيلي : معناه رأيت بقراً تنحر والله عنده خير ، قلت : في رواية ابن اسحاق : وإني رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً . وهي أوضح ، والواو للقسم والله بالجر ، وخيراً مفعول رأيت . . .

ويقول في مكان آخر[3] : في هذا السياق إشعار بأن قوله في الخير (والله خير) من جملة الرؤيا ، والذي يظهر لي أن لفظه لم يتحرر إيراده ، وأن رواية ابن إسحاق هي المحررة ، وأنه رأى بقراً ، ورأى خيراً . . .

وكان النووي من قبل قد نقل عن القاضي : والأولى قول من قال : والله خير ، من جملة الرؤيا[4] . . . واكتفى بذلك من غير تعقيب . ومما سبق نستخصل ماقدمناه أن (الخير) لم يرد اسماً لله تعالى ضمن أسمائه الحسنى ولا في غيرها .

ولكنه ورد صفة أو خبراً كثيراً وهو يفيد التفصيل عموماً ، فهو خير الرازقين ، وخير الفاصلين ، وخير الحاكمين ، وخير الغافرين ، وخير الوارثين ، وخير المنزلين ، وخير الراحمين . . . كما سيأتي .

ـ وإذا أدّى (الخير) معنى (البِر) ودلالته فإنهما لا يتساويان في إطلاقهما على

---

(١) البخاري : المغازي ٤٠٨١ ، والتعبير ٧٠٣٥ ومواضع أخرى ، ومسلم : الرؤيا ١٥ / ٣٢ ، ٣٣ بشرح النووي .

(٢) فتح الباري ٧ / ٣٧٧ .

(٣) السابق ١٢ / ٤٢٣ .

(٤) شرح مسلم ١٥ / ٣٢ .

الله اسماً ، فالبّر من اسمائه الحسنى ورد صراحة في القرآن والسنة الصحيحة ، فقد قال تعالى : ﴿ إنّه هوَ البّر الرَّحيم ﴾ (الطور : ٢٨) فالله فاعل البر والإحسان يحسن على عباده بالخير ، أو البارّ الذي لا يصدر عنه القبح ، ونقل النووي [1] عن إمام الحرمين : البَرّ خالق البِرّ ، وحكى الواحدي عن الكلبي وغيره أنه الصادق فيما وعد أولياءه . . .

- **في العلم** : فعلم الله شامل وعام في كل خير ﴿وما تفعلُوا من خيرٍ يعلمْه الله﴾ (البقرة : ١٩٧) وقوله : ﴿ وما تفعلُوا من خير فإنّ الله به عليمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٥) . وفي العلمية هنا فائدتان : حث على فعل الخير مهما صغر أو كبر فإن الله يحيطه بعلمه ، والجزاء العادل الذي لا يضيع شيء منه مادام في علمه . وإذا جهل الناس أو تجاهلوا خير الإنسان وفعاله الكريمة فإن الله يعلمه ويجازي به ، ولذا فإن الخير يعمل لله قبل أي شيء .

- **في العدل** : فعدل الله مطلق يستحيل عليه الظلم فهو العادل في كل شيء وبخاصة في جزاء الأعمال ﴿ وما تقدِّموا لأنفسكمْ من خيرٍ تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ (البقرة : ١١٠) فيوفيهم أجورهم ﴿ وما تُنفِقُوا من خيرٍ يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون ﴾ (البقرة : ٢٧٢) ولن يتركهم بغير جزاء ﴿ وما يفعلُوا من خيرٍ فلن يُكفَروه ﴾ (آل عمران : ١١٥) وهذه العمومية والشمولية واضحة في قوله : ﴿ يوم تجدُ كلُ نفسٍ ما عملت من خير محضَراً ﴾ (آل عمران : ٣٠) .

- **الاختصاص بالخير**: فالله مصدر الخير وواهبه فهو من اختصاصه ومنه: الملك الصالح ، والعزة بالله ﴿ بيدك الخيرُ إنك على كل شيءٍ قدير ﴾ (آل عمران : ٢٦) . ونسخ الآيات والآيتان ببديلها ، منه وحده ﴿ ما ننسخْ من آيةٍ أو نُنسها نأتِ بخير منها أو مثلِها ﴾ (١٠٦) والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وما يصيب به فهو منه ﴿ وإن يمسسْك بخير فهو على كلِّ شيءٍ قدير ﴾

---

(١) في التهذيب .

(الأنعام : ١٧) . وهذا لا يعني عدم التعاون بين المسلمين على البر والتقوى . وهو حده يتقبل الإيمان والصالحات من الأعمال ﴿ إليه يَصْعدُ الكلِمُ الطيِّب والعملُ الصالحُ يرفعهُ ﴾ (فاطر : ١٠) .

- **شتان بين خير الله وخير الناس**: فقد تقدم نصاً أنه خيرهم في الرزق والحكم والغفران والإرث والرحمة ، والنصرة . . . ولا يرتاب في ذلك إلا الجاهل . ويضاف لما سبق اشتقاقات الخيرية الأخرى . فهو خير من يجازي مكر الضالين ﴿ والله خيرُ الماكرين ﴾ (آل عمران : ٥٤) ويعطي الأكثر والأفضل ﴿ من جاءَ بالحسنة فلهُ خيرٌ منها ﴾ (النحل : ٨٩) و(القصص : ٨٤) وخير حافظاً ﴿ فالله خيرٌ حافظاً ﴾ (يوسف : ٦٤) وخير ثواباً وعاقبة ﴿ هو خيرٌ ثواباً وخير عُقْباً ﴾ (الكهف : ٤٤) ، وخير من يبدل السيء إلى خير ﴿ عسىَ ربُّنا أن يُبْدِلنا خيراً منها إنّا إلى ربنا رَاغبون ﴾ (القلم : ٣٢) ، ويبدل المعاندين خيراً منهم ﴿ فلا أقسمُ بربِ المشارقِ والمغارب . إنا لقادرون على أن نُبَدِّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ (المعارج : ٤٠ ، ٤١) ويضاعف في الإكرام والأجر الإلهي العظيم ﴿ وإن تكُ حسنةً يُضاعِفْها ويؤتِ من لدنهُ أجراً عظيماً ﴾ (النساء : ٤٠) .

فأين خير الناس من الخير الإلهي الشامل العظيم ؟ وكيف ينصرف الناس عن مثل هذا الخير العميم ؟

القرآن والخير

وقوام الخيرية في القرآن : ما تقدم معنا من مرادفات الخير مثل : البر والصلاح والحسن والطيب ، وهذه جميعها مكونات (الهداية) و(التربية) ، فالقرآن ﴿ هُدى للناس ﴾ (البقرة : ١٨٥) و﴿ هُدى للمتقين ﴾ (البقرة : ٢) ، وهدايته مثل الخيرية ﴿ يهدي للتي هي أقْوم ﴾ (الإسراء : ٩) . وهو (شفاء) لما في الصدور ولما في الحياة من المشكلات ، ورحمة وارفة ﴿ ونُنزِّل من القرآن ماهو شِفاء ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ (الإسراء : ٨٢)

ومصدق للديانات الإلهية السابقة ﴿ وهذا كتابٌ أنْزلناهُ مبارك مصدِّق الذي بين يديه ﴾ (الأنعام : ٩٢) إنه تبيان واضح وهدى عام ورحمة سابغة ﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تِبياناً لكل شيء وهُدى ورحمة ﴾ (النحل : ٨٩) فهل من خير أوسع مفهوماً وأعمق تأثيراً وأرحب مجالات من خيرية القرآن ؟

إنه خير يحمل مفهومه وقواعده ونماذجه ومجالاته ومواقعه عبر آياته الكريمة .

فهو خير للإنسان ظاهراً وباطناً حيث كرّمه الله وسخر له الموجودات وهيأه لحمل مسئولية الخلافة .

وخير للمجتمع بداية من الأسرة في صياغتها الإسلامية ونهاية بالمجتمع الذي جعل رابطة العقيدة أسمى الروابط وأحقها ﴿ إن أكرمَكمْ عند الله أتقاكمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وخير للإنسانية باعتباره دين الإيمان والإسلام والعدل والحوار وكرامة الإنسان ، والعلاقات البشرية المتكافئة . حتى يخلصها من التوترات المزمنة والطارئة .

وخير للمنهجية والنظامية بين الإنسان وربه ، والإنسان والإنسان ، والإنسان وسائر الخلق ضمن أنظمة شاملة وعامة .

وخير للقيم الفكرية والعلمية والخلقية باعتباره محرراً من الخرافة والجهالة والانحلال وبانياً الشخصية على صدق التصورات السامية لله والكون والإنسان والحياة .

وخير للعربية والإسلامية حيث بوأهما مراكز القيادة في المعارف ، والريادة في الرسالات والإمامية في القيم .

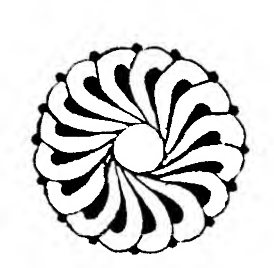
وهو أخيراً خير للحضارة ، فهو مع الحق حقيقتها وجوهرها ووجودها وماهيتها تقام على الربانية الثابتة ، والبشرية المبدعة ، والتوازن العام والشامل .

إنه ذكرهم وعزهم ومجدهم ومصيرهم ، فإذا أحسنوا له فازوا بالخير ، وإن أساءوا فيه أساءوا لأنفسهم ولأمتهم وحضارتهم فخابوا وخسروا وضلوا وأضلوا .

إنه (جامع لكونه حقاً وصواباً) كما قال الرازي في تفسير قوله : ﴿ وقيل للذين اتَّقَوا ماذا أنزلَ ربُكم **قالوا خيراً** للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ، ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ ولَنعمَ دارُ المتقين ﴾ (النحل : ٣٠) .

فقد أوحى الله بالقرآن خيراً ونزّله صلاحاً وبراً ، فالصالحون يحيون بسببه حياة دنيوية حسنة طيبة هادية مهدية ، وآخرتهم أفضل منها فإنها نعم دار المتقين .

وهم ينادون دوماً ويدعون أبداً : ﴿ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار.أولئك لهم نصيبٌ مما كسبُوا والله سريع الحساب ﴾ (البقرة : ٢٠١ ، ٢٠٢) إنه الكمال الإنساني في خير الحياتين فهل يحظى سواهم بمثل عائدات الخير كله والفضل جميعه والإحسان الإلهي الشامل ﴿ فآتاهمُ الله ثوابَ الدنيا وحسْنَ ثوابِ الآخرة ﴾ (آل عمران : ١٤٨) ﴿ والله عنده حُسْنُ الثواب ﴾ (آل عمران : ١٩٥)



الرسول ﷺ معلّم الناس الخير (*)

من سمات النبوة المحمدية ومعالمها أن القرآن لم يكن سجلاً دعائياً للرسول ، ولا إعلاماً متحيزاً له من ناحية . فهو لا يغفل أدق النأمات والحوادث في حياته عليه الصلاة والسلام ، ومن ناحية أخرى كان يتعمق في تبيان الخير والأكثر خيراً في سويداء نفسه وبخاصة في بيته وظاهر تصرفاته وخفيّها ، وينبهه إلى تجنب الضلال والضالين والظلم والظالمين في صيغ من العتاب لا يتحملها أهون الناس مكانة وأقلهم خطراً ﴿ فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظّالمين ﴾ (يونس : ١٠٦) ﴿ فتطرُدهم فتكونَ من الظالمين ﴾ (الأنعام : ٥٢) ، بل إنه نفسه يعلن نسبته إلى الضلالة حين يتبع أهواءهم ﴿ قل لا أتّبع أهواءكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهْتدين ﴾ (الأنعام : ٥٦) وآيات هي منارات في الإعلام الصادق المسئول .

ويمكن أن نصنف مواقع الخير ومرادفاته المتصلة به في ثلاث مجالات :

١ - الشمائل والصفات :

وهي أدق ما تكون في السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة بحيث لا تضيع صفة ولا عمل من غير أن تبينه وتظهر العبرة منه بصورة لم يعهد مثلها في العظماء والمصلحين والأبطال والأنبياء .

معلم الناس الخير : فهو لا يبلّغهم القرآن وحده وإنما يعلمهم إياه مثل ما يعلّمهم الحكمة وينقذهم من الأمية الدينية والانحراف العقدي والضلالة الخلقية التي كانوا يعيشونها قبل نبوته وتعليمه ﴿ ويعلّمهمُ الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبلُ لَفي ضلالٍ مبين ﴾ (الجمعة : ٢) . وهل من خير أعظم من التعليم النبوي ، تعليم هو مصدر الخير ومحتواه ؟ تعليم للناس مستمر ، وتعلّم من الله

(*) أدخلت مرادفات الخير معه لمناسبة البحث .

دائم ، حتى جمع الرسول طول بعثته كلها بين التعلم والتعليم .

الكفاف في العيش : وما دامت مهمته تعليمية خيرية فلا يتوقف على الغنى والرياش ، ولا تعظمها القصور وجنات الأرض فإن صياغة النفوس وتهذيبها لا تكون بهذا ﴿ تباركَ الذي إن شاء جعلَ لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ويجعلْ لك قُصوراً ﴾ (الفرقان : ١٠) وما أيسر أن يمتلك الرسول القصور والجنات إن أراد .

أذن خير : وهي صفة اقترنت بالإيمان بالله وتصديق المؤمنين ورحمة بهم ﴿ ومنهمُ الذين يؤذون النبيَّ ويقولون هو إذُنٌ قل أُذُنُ خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ﴾ (التوبة : ٦١) فالمنافقون يؤذون الرسول ويتهمونه أنه يسمع كل ما يقال من غير تدبر وتمييز ، ولكنه في الحقيقة والواقع كان يتحرى في السماع الجودة والصلاح والحق والخير فهو أذن وسماع لها .

التبرؤ من الضلال : وتقدمت آية (الأنعام : ٥٦) التي تنفي اتباع أهواء الكفار فينتفي معها الضلال ، وإنه ليعلن أيضاً أن ضرره يعود عليه ﷺ ﴿ قل إن ضَلَلتُ فإنما أضِلُّ على نفسي وإن اهتديتُ فبما يُوحي إليّ ربي إنه سميع قريب ﴾ (سبأ : ٥٠) . فلا فرق بينه وبين أي إنسان في هذا ، فالخير يعود على صاحبه بالخير ، وبالعكس ولذا فقد ربطها القرآن بالحق والباطل في الآيات السابقات [١] .

٢ ـ البيت النبوي :

وهو مدرسة التعليم النسائي خاصة على الرغم مما يحدث من خلافات زوجية في بعض الأحيان وزوجات الرسول هن معلمات ومجاهدات وممرضات وأمهات رائدات للمؤمنين والمؤمنات ، وصلاته بهن زوجاً ومعلماً ورسولاً أكثر الأزواج والمعلمين والرسل براً وخيراً « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » [٢] .

---

(١) اقرأ الآيتين ٤٨ ، ٤٩ من السورة .

(٢) ابن ماجة : نكاح .

حدود الزوجية : فلم يعرف عن الرسول أنه عاب زوجة أو ضربها أو أهانها وإنما كان على العكس الصبور عليهن الرفيق بهن ، السامع لمشورتهن ، الخلوق بمعاملتهن ، ولكن إذا استعصى بعضهن ، وأردن الطلاق بسبب ضيق ذات يد طلقهن ، وإن الله يبد له خيراً منهن بمواصفات خيرة ﴿ عسى ربُّه إن طلقكنَّ إن يُبْدلَه أَزْواجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيباتٍ وأبكاراً ﴾ (التحريم : ٥) . فهل ألح القرآن أو لمح هنا على صفات ترغب في النساء عادة من الجمال والمال والحسب والسن ؟

فهو لا يريد طلاقهن ولا أن يبدل بهن خيراً منهن ، إذ أنهن أفضل نساء الأرض كما أشار إليه الرازي في تفسيره ، يقول : فيه إشارة إلى أن تزوج النبي ﷺ ليس على حسب الشهوة والرغبة ، بل على حسب ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وأقول : والدليل عليه من نص الآية قوله : عسى ربه ـ إن طلقكن ـ أن يبدله . فالزواج والإبدال من الوحي الإلهي .

ثم ما أجمل وأجدى اقتران الربانية بتصرفات الرسول الخاصة بما جاء في الآية بعدها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسَكُم وأهليكم ناراً . . . ﴾ (الآية : ٦) . إن البيت النبوي حريٌّ بالقوّام عليه رسول الله أن يجنّب زوجاته النار ويقيهن شرها .

النبوة والهدى والأمر بالصلاة خير من زهرة الدنيا : فقد وجّه الله رسوله إلى القناعة بالكفاف من العيش وعدم الاغترار بالقصور والمتع التي عجلت لبعض الناس،فإن رزق الله من النبوة والهدى في الدنيا وما ادّخر له في الآخرة لا يكاد ينقطع ، ففيه الخير كل الخير ﴿ ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متّعْنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لِنفتنهمْ فيه ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى . وامرْ أهلك بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نسألكَ رزقاً نحنُ نرزقكَ والعاقبةُ للتقوى ﴾ (طه : ١٣١ ، ١٣٢) .

روى الطبري بسنده قال : كان عروة إذا رأى ما عند السلاطين دخل داره فقال : (لا تمدن عينيك . . .) الآيتين ، ثم ينادي : الصلاة الصلاة يرحمكم الله .

ورواية أخرى له : أنه كان إذا رأى شيئاً من الدنيا جاء إلى أهله فقال :

الصلاة ﴿ وامر أهلك بالصلاة . . . ﴾ الآية .

وإذاً فإن رسول الله قد رُبي على القناعة ، وكذا ينبغي أن تفعله أمهات المؤمنين ، والمطلوب منه أن يأمرهن بالصلاة دوماً والمثابرة عليها أبداً ، فإن في ذلك سلوى وصفاء وبناء .

٣ - في مواقف الناس من الرسول :

منهم المؤمنون ومنهم الكافرون :

الرسول قدوة للمؤمنين : فهو إمامهم واقتداؤهم به هو الأولى لهم والأحسن لحالهم والأجدى بهم ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة ﴾ (الأحزاب : ٢١) . وهذا يعني الأدب معه في الخطاب والمجلس فإن غضّ الصوت أمامه وحواره مواجهة تقدير لنبوته وإمامته ﴿ ولو أنهم صبرُوا حتى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾ (الحجرات : ٥) أما الصياح عليه ومناداته من وراء الحجرات ، ومساواته في الخطاب وسائر الناس فيحتاج إلى توجيه وتأديب ، وهذا لا يعني (الفوقية) عليهم ، ولا التعالي على ضعفائهم فلم يكن ذلك من شمائل رسول الله ﷺ .

والكافرون يحسدونه على نبوته ، ويستكثرونها عليه ، ويعتبرون الأموال والزعامات والعشيرة مؤهلاتها ، ولذا فإنهم لا يدعونه إلا تندراً بالسؤال تارة وبطلب المحال تارة أخرى ، وأحياناً يستعلجون الشر والعقوبة منه ﴿ ويستعجلونك بالسيئةِ قبل الحسنةِ وقد خلَت من قبلهمُ المثُلاث ﴾ (الرعد : ٦) . فهم على علم بما حصل للأمم السابقة أمثالهم من وخيم العاقبة ولا يبالون بها ولا يعتبرون بمصائرها .

وأحياناً لا يعقلون أن النبوة لا تتنافى مع البشرية فكانوا يتعجبون من أنه رسول وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويطلبون أن يروا ملكاً ينزل إليه وإليهم ، ﴿ أو يُلقَى إليه كنزٌ أو تكون له جنةٌ يأكل منها وقال الظالمون انْ تتبعونَ إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربُوا لك الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعون

سبيلاً ﴾ (الفرقان : ٨ ـ ٩). وأمثال هذه الضلالات التي لا تهديهم طريق الإسلام .

إن (المفترض) أن يؤتى بالأمثال للتقريب والتقوية والتمثيل ولكن هؤلاء يضلون بأمثالهم فلا يستطيعون سبيلاً .

وتبلغ بهم الجراءة إلى (همهم) بإضلال الرسول عن دعوته والإضرار به ﴿ ولولا فضلُ الله عليك ورحمتُه لهمَّت طائفة منهم أن يُضلِّوك وما يضلِّون إلا أنفسَهُم وما يضرونكَ من شيء وأنزلَ عليك الكتاب والحكمة وعلمكَ ما لم تكنْ تعلمُ وكان فضلُ الله عليك عظيماً ﴾ (النساء : ١١٣) ففضل الله ورحمته عليه قبل أن يحاولوا إضلاله ، وفضله ورحمته عليه أيضاً بعدهالأنه أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلمه من لدنه ما لم يكن يعلم .

قال الرازي : ولولا أن خصّك بالفضل وهو النبوة ، وبالرحمة وهي العصمة لهمّت طائفة منهم أن يضلوك ، ونقل عن القفال في تفسير قوله : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ وجهين : أحدهما ما يتعلق بالدين فقد أنزل عليه الكتاب والحكمة وأطلعه على أسرارهما وأوقفه على حقائقهما مع أنه ما كان يعلم شيئاً من قبل ، والثاني : وعلمه من أخبار الأولين فكذلك يعلم من حيل المنافقين ووجوه كيدهم ما يقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم .

وأقول الوجهان وغيرهما تدخل في العلم مما ينبه إلى أن له فضلاً خاصاً مثل ما للنبوة ذاتها من فضل خاص أيضاً ، وأن في الكتاب والحكمة علوماً يفضل بها العالمون ، وقواعد علمية تدفع المسلمين إلى مزيد من العلوم الدينية والدنيوية .

وقريب من الآية ما نبه الله إليه في قاعدة مبدئية وهي : أن طاعة الكثيرين لا تعني الوصول إلى الهدى والخير ولا تغنيها عنها ، فقد تتعدد الأمزجة والأهواء والمصالح وعندئذ تفسد المتابعة ويضلّ صاحبها ﴿ وإن تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرض يضلّوك عن سبيل الله إنْ يتّبعون إلا الظنَّ وإنْ هُم إلا يَخْرُصون ﴾ (الأنعام : ١١٦) .

إن قاعدتين حضارتين تلمح لهما الآيتان : الإمامية المكتسبة في فضل العلم والعلماء ، واتباع المبادىء والمعايير السليمة التي توصل إلى الحق وتبتعد وتبعد عن الدجل والكذب والخرص والخراصين .

العقيدة والخير

إذا كان الوحي القرآني خيراً وصلاحاً كله فإن أي غرض فيه يقتبس جزءاً من هذه الخيرية الشاملة ، وإذا أضيف إلى ذلك أن نسبة الغرض القرآني إليها ووصفه بها باعتبار مضمونه وطبيعته فإن اجتماع الخيرين في الغرض الواحد ينبه إلى كماله في الخيرية وتمامه في الصلاح ، وإذاً فهو خير من خير .

وبالإضافة إلى ما مر من الكلام على صفات الله تعالى وكتابه المبين فإن جوانب أخرى منها تصرح بالخيرية لفظاً ومضموناً .

الإيمان والخير : فالخير القلبي هو (خلوص إيمان وصحة نية) كما يقول أبو السعود في تفسير قوله : ﴿ يا أيها النبيُّ قل لِمَنْ في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكمْ خيراً يؤتِكم خيراً ممَّا أخذُ منكم . . . ﴾ (الأنفال : ٧٠) . فليست الأسرى ولا غيرها من الغنائم ولا نظيرها من الأموال تحجب سلامة إيمانكم وعمران قلوبكم بخيره وإن الله سيعوضكم أفضل مما أخذ منكم من الأموال ما دامت قلوبكم عامرة به .

قال العباس عم الرسول ﷺ وقد نزلت فيه الآية : . . . فأبدلني الله خيراً من ذلك (مما أنفقه من مال على فك الأسرى) لي عشرون عبداً ، وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا انتظر المغفرة من ربي[1] . . .

وفسر (الخير) الأول بالإيمان ، والثاني : بالأموال والبدائل والمنح الإلهية التي هي الأفضل . والإيمان يمنح الكثير والكثير فهو يكسب النفس صحة عقلية

---

(١) من تفسير أبي السعود .

وعاطفية وبدنية ويربطه بجماعته بأنبل الروابط والوشائج ويدفعه إلى العمل الصالح والقول السديد ويبعده عن مفاسد الأحوال والأعمال ، وبه تصلح سريرته وعلانيته ويلتزم بفضائله الفردية والاجتماعية ، مهما كانت التضحيات من أجله وفي سبيله

والعلاقة وثيقة بين الإيمان والخير ، فلا جدوى من خير بلا إيمان ، ولا إيمان من غير خير ، وإذا توسعنا في مفهوم الإيمان كما سبق فإن تطابقاً فكرياً وعملياً وظاهراً وباطناً بينهما حتى يمكن أن تبرز الحقيقة التالية وهي : الإيمان هو الخير ، والخير هو الإيمان .

في أهمية الإيمان والخير الحضارية : ويؤكد العلماء على أن الإيمان الكامل يقتضي عملاً صالحاً وهو يزيد به وينقص بعدمه ، وهذا هو المشهور والآيات في ذلك كثيرة مثل قوله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكَر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبة ولنجزينّهم أجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملُون ﴾ (النحل : ٩٧) وأمثالها كثير ، وهي جميعاً تظهر أهمية العمل في الإيمان وتردّ على مدعي فصل السلوك عن العقيدة .

والمسألة الجديدة هنا هي تسمية العمل الصالح بالخير واقترانه بالإيمان في قوله : ﴿ . . . يوم يأتي بعضُ آيات ربك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبل . أو كسبت في إيمانها خيراً قلِ انتظروا إنّا منتظرون ﴾ (الأنعام : ١٥٨) ويتبع ذلك توقيت الإيمان وضرورة الخير المكتسب له لكماله وتمامه . فلا ينفع حينئذ (عند قيام الساعة) نفساً لم تقدم إيمانها ، أو قدمته ولم تكسب فيه خيراً ، كما قال أبو السعود ، وقال الرازي : أجمعوا على أن المراد بهذه الآيات علامات القيامة . . . ثم يقول : إن أشراط الساعة إذا ظهرت ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان نفساً ما آمنت قبل ذلك ، وما كسبت في إيمانها خيراً قبل ذلك .

وفي الطبري وابن كثير أحاديث وروايات تستشهد بالآية السابقة ، ثم يقول ابن كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل

ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو خير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبة كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة . . . ثم يقول : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . . .

ومن ذاك يتبين أن الإيمان اعتقاد وعمل في وقته ، وهذا هام من الوجهة الحضارية فهو أولاً لا يقتصر على العقيدة كفكر وإنما لا بد من الالتزام السلوكي المتناسب معها وهو ثانياً لايصح إلا في حالات تتطلبها حضارتهم ومع جماعة المؤمنين ، والتأخر في مثل هذه الأحوال ربما يضر في المسيرة الحضارية ، وإن كان مقبولاً عند الله تعالى . وهو ثالثاً : لا بد من تنسيق الأعمال و الأفكار في حالات وأزمنة متناسبة يلتحم فيها الظاهر بالباطن ويتواكب العمل الفردي مع الجماعي حتى يؤتي ثماره الطيبة المرجوة .

الانتهاء من ألوهية البشر : فالمقرر أن الإسلام عقيدة التوحيد وكذا سائر الديانات ، ولا داعي لتأويلات فنسفية ولا تنظيرات كنسية ، وحين انشقت (البروتستانتية) كان جل اعتراضها في صميم الألوهية والبشرية حيث تأثرت بالفكر الإسلامي الموحِّد قبل عصر الاصلاح الديني وأثناءه ، وكان قد نشأ قبله روايات (غير مقبولة للانجيل) مثل رواية (متّى) ، والقرآن الكريم من حيث أنه حافل بالتاريخ الديني وتطوره فإن يعلن معالم هذا التاريخ ليصححه ، ويصرح بالانحراف فيه ليقوّمه ، ثم إنه لم يكتف بالعرض والسرد والتصحيح وإنما يوجه المنحرفين المعاصرين لمتنزله وفي كل عصر إلى العقيدة الدينية الخالصة من شوائب الوثنية والشرك التي توجه إلى وضع الحدود الفاصلة بين البشرية ومخلوقيتها والألوهية وخالقيتها ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تغْلُوا في دينكم ولا تقولُوا على الله إلا الحقّ إنما المسيحُ عيسى بن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسُلِه ولا تقولوا ثلاثةٌ **انتهوا خيراً لكم** إنما الله إلهٌ واحد . . . ﴾ (النساء : ١٧١) .

فقد ضم الله في الآية الخير إلى الحق ، وجعل الحق أصلاً في التوحيد الذي يؤدي إلى الخير في العقيدة والعمل .

وإذا كان محور الانحراف التصوري هو المغالاة في الدين وإعلانهم غير الحقيقة فإن بيان هذه الحقيقة والتوسط الحق في التصور هو ما ينادي به القرآن أساساً لحضارته لا من منطلق الفكر الديني وحده وإنما من أجل أن يتغلغل التوحيد في مرافق الحياة ويلفها بردائه الشامل .

وتقتضي الخيرية قول الحق والانتهاء من التثليث الصريح والمؤول إذعاناً وطاعة وليس تأويلاً وعصياناً وعندئذ لا يشذ دين عن الأديان ولا ينحرف تصور لنبي بشري عن سائر التصورات النبوية البشرية .

فإذا وفق هؤلاء لمعرفة هذه الخيرية وتعمقت في عقولهم وقلوبهم فإنهم يقبلون على التوحيد الإسلامي وبساطته واتساع مجالاته واستجابته للفطر البشرية ، وعندئذ يدركون فضل الإسلام في هذا وغيره فيدخلون فيه عن قناعة وحب وحماسة ، ولمثل هذه الخيرية في معقوليتها وبساطتها وفعاليتها سبق الإسلام سائر الديانات السماوية والوضعية في الإيمان به والدخول فيه بنسبة ٢٢٥ ٪ وهو قادر بإذن الله أن يصبح الدين الأول في القارات الخمس : وهذه بداية النهاية في المهمات العظمى لحضارة القرآن .

التوبة خير من التمادي في الباطل : وهي إنابة العبد إلى الله وحده بعد أداء حقوق الناس إن كانت تتضمن ذلك ، ومن غير وساطة ولا وسائل سوى العمل الصالح وتقوى الله تعالى . والتوبة تعني تجديد الصلة بالله والعلاقة بالناس والإقبال عليهم بنفس صافية في طاقة من العمل الصالح بعد أن تمسح الأوزار والآثام وآثارها من حياة التائب من خلال صلاته بربه وبالآخرين . فقد ذكر القرآن صوراً تاريخية لجماعات أنابت إلى الله مثل بني إسرائيل الذين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل إلهاً فخاطبهم الله بقوله : ﴿ فتوبوا إلى بارئكمْ فاقتُلوا أنفسكمْ ذلك خيرٌ لكم عند بارِئكم فتابَ عليكم إنه هو التوَّاب الرحيم ﴾ (البقرة : ٥٤) إنها أقسى التجارب الإنسانية في التوبة النصوح أن يقتل بعضهم بعضاً تخلصاً من الذنوب وتحرراً من آثاره . وصوراً أخرى معاصرة للدعوة الإسلامية متمثلة في انحرافات المنافقين ثم في عودتهم إلى جادة الصواب

ولكن بمواصفات وشروط تزيد على غيرهم من التائبين ﴿ إلا الذين تابُوا وأصلحوا واعتصَمُوا بالله وأخلصوا دينَهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ (النساء : ١٤٦) . وهي العودة إلى الله ، وإصلاح الفساد والانحراف ، والاعتصام بشريعته ، والإخلاص لدينه ، إنها شروط لتوبة المنافقين تتناسب ونفسياتهم وأعمالهم وعلاقاتهم .

وتبقى التوبة أفضل وأصلح لهؤلاء وإن اتخذوا الأيمان على صدقهم وقالوا كلمة الكفر أمام خواصهم وأعلنوه وكفروا بعد إسلامهم ، فإن المجال أمامهم ما يزال مفتوحاً والتوبة مقبولة ﴿ فإن يتوبُوا يكُ خيراً لهم وإن يتولَّوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ومالَهم في الأرض من وليّ ولا نصير ﴾ (التوبة : ٧٤) .

وإن آية التوبة هذه وآيات أخرى في توبة المتخلفين الثلاثة يوم تبوك ، وفئات أخرى عصت ثم رجعت وخالفت ثم استقامت تؤذن بأن بابها واسع والإقبال عليها من سمات المؤمنين الخاطئين ولكن ليس على سبيل الاستمراء وفي إطار الهزء والتمادي في الباطل .

ومهما بلغ الذنب من الخطورة والإثم والظلم فإن الله يقبل التوبة بشروطها السابقة ، وفي مقدمتها : إصلاح النفس والعمل والاستمرار على التوبة النصوح ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحُوا فإن الله غفور رحيم . إن الذين كفروا بعد إيمانهمْ ثم ازدادُوا كفْراً لن تُقْبلَ توبتُهم وأولئك هم الضالّون ﴾ (آل عمران : ٩٠) .

ومن الوجهة الحضارية فإن (الضالين) أعظم الفئات في إعاقة المسيرة الحضارية ، وإحداث البلبلة والقلاقل والخلل في البنيان الحضاري ، فهم على طرفي نقيض مع (التائبين) العائدين إلى جماعة المسلمين وعمل مخلصين . فإن الرحمة قد أوجبها الله على نفسه في الخاطئين التائبين ﴿ كتب ربُّكم على نفسه الرحمةَ أنه مَن عمل منكم سُوءاً بجهالةٍ ثم تابَ من بعدهِ وأصلحَ فـأنّه غفورٌ رحيم ﴾ (الأنعام : ٥٤) . إنها رحمة مكتوبة على الله لكل من أقبل إليه بالتوبة

النفسية والإصلاح العملي . وهي توبة في حضارة القرآن جزء من الواقع الحضاري الذي يعالجه بالحكمة والمصلحة الإسلامية وتعاون النفوس وتكاتفهم على إزالة العوائق وقبول الأعذار التي تنبىء عن الندم والإقلاع والعودة السليمة بأحسن من قبل . وأعظم منها جنات الخلود مصيرهم ومأواهم ينعمون فيها بألوان النعيم المادي والمعنوي ﴿ فيهنَّ خيراتٌ حسانٌ ﴾ (الرحمن : ٧٠) فهن زوجات خيرات الأخلاق صالحات فاضلات حسان الوجوه وحور مقصورات على أزواجهن . . . وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . إن التوبة خير كلها فهي الأفضل في الدنيا والأصلح في الآخرة .

الأنبياء مبشرون ومنذرون : ومن مرادفات الخير الكثيرة الصلاح والإصلاح كما سبق .

وقضية النبوة ذات صلة بالتوبة والإيمان وذات صلة بالبشرية والألوهية وبريادة الإنسانية في (تحضير) النفوس قبل (تحضير) الأشياء، فهم مرسلون مبشرين ومنذرين ﴿ وما نرسلُ المرسلَين إلا مبشِّرين ومنذِرين فمَن آمنَ وأصلح فلا خوفٌ عليهمْ ولا هم يَحزنون ﴾ (الأنعام : ٤٨) . وهي دعوة للبشرية ﴿ يا بني آدمَ إمّا يأتينَّكم رسلٌ منكم يقصُّون عليكمْ آياتي فمَنِ اتقى وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (الأعراف : ٣٥) . إنهم مبينون ومبلغون ومبشرون ومنذرون ومصلحون وهي وظائف الرسالات كما أخذ الله عليهم العهود ، وهم من جنسهم ولغاتهم ، كما تقتضي حكمته وتدبيره وعندئذ فلا خوف عليهم في المستقبل ولا هم يحزنون في الماضي ، فالمخاوف تزول كلها ويستبدل بها الخيرات والصالحات والحياة الآمنة .

دعوة إصلاحية مبرأة من المصالح الذاتية والزعامية.والانتمائية ، فقد نشروا في الناس الدين ونهوهم عن الفساد في الأرض بنشر المعاصي والآثام ودعوهم إلى عبادته خوفاً وطمعاً ﴿ ولا تفسِدُوا في الأرضِ بعد إصلاحِها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

وهكذا يتكفل الله بإصلاح البشرية ببعثة الأنبياء الذين هم وسائط

الرحمات في إيصال الخير والنعمة القريبة من المحسنين . ومن الأنبياء الذين صرح الله بدعوتهم الاصلاحية شعيب عليه السلام الذي كان يقول لقومه : ﴿ ولا تفسِدُوا في الأرض بعد إصْلاحِها ذلكمْ خير لكم إن كنم مُؤمنين ﴾ (الأعراف : ٨٥) فقد جمع الله فيها الاصلاح والخيرية وربطها بالإيمان ، وذلك بعد أن نهاهم عن الإفساد في الأرض بجميع أنواعه وأصنافه ، وكان من أكثرها شهرة انقاص الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم وذلك بعد انصرافهم عن عبادة الله وحده .

فإن أخذ الأموال بغير رضى أصحابها يوجب المنازعة والخصومة وهما يوجبان الفساد ، وإن بخس الناس أشياءهم يشجع على الغش والغرر والحصول على الأرباح بطرق شتى وفي ذلك فساد اقتصادي واجتماعي ، فما بالنا إذا اجتمع معه فساد في العقيدة والإيمان أو كانت هذه ظواهر من فساد العقيدة والإيمان . وهذا يعني أن صلاح الأرض لا يبلغ كماله إلا حين تتوافر عناصر الإصلاح جميعها معنوية ومادية ، وقد تلهم الآيات التي تصرح بالخيرية أو الإصلاح وحده أو تجمع بينهما أن زيادات في العائدات والانتاج يمكن أن تدخل ضمن الخير الدنيوي مادامت منبثقة من الينابيع الدينية الاصلاحية ، كما تلهم بوحدة الدعوة الاصلاحية لدى الأنبياء كلهم ، فإن الدعوة إلى مكارم الأخلاق وأصول العقيدة واحدة ، وهو يعني تنبيه أصحاب هذه الدعوات إلى الالتفاف حول حضارة النبوات التي أعلن القرآن مصدرها وغرضها وتعاون المتدينين فيها على البر والتقوى . وهذا لا يخفف من التطرف الديني وحده وإنما يشعر أن الحضارة القائمة على الدين الواعي المتسامح باقية معطاءة وهادية ، وإن مثل هذه الانعكاسات الحضارية تبرز حضارة شاملة عامة لا نظير لها .

ومن خلال هذه الدعوة النبوية المتسامحة العامة يكسب الإسلام ثقة المتدينين ، ودخولهم فيه والتزامهم به ديناً وحضارة .

ومن مرادفات الخير (الطيّب) : وكفاه خيراً أن الله جعله اسماً للتوحيد أو صفة له في قوله : ﴿ ألم تر كيفَ ضرب الله مثَلاً كلمةً طيبة كشجرةٍ طيبة أصلُها ثابتٌ

وفرعُها في السماء . تُؤتي أكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (إبراهيم : ٢٥) .

يقول (الظلال) : إن الكلمة الطيبة ـ كلمة الحق ـ لكالشجرة الطيبة ، ثابتة سامقة مثمرة . . . ثابتة لا تزعزها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ، ولا تقوى عليها معاول الطغيان ـ وإن خيّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان ـ سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ـ وإن خيّل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في الفضاء ـ مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد أن . . .

ويتصور الخيال هذه الشجرة من التعبير القرآني :

إنها ليست خيالاً ضاربة في الوهم والتخريف ، ولكنها من الفن المتخيّل الذي يمكن تصوره وتوقعه . . . هي شجرة معمرة ومعمرة جداً ولكنها معطاءة ومعطاءةً كثيراً بإذن الله ثابتة الجذور في الأرض ممتدة الفروع في السماء .

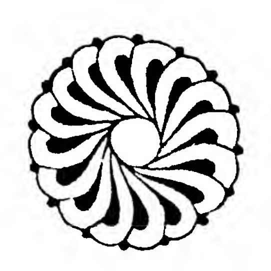
والتعبير القرآني يضربها مثلاً عجيباً . . . :

- بالفردية في كل شيء فهو مثل واحد ، وشجرة واحدة ، لها أصل واحد ، وفرع واحد تؤتي (أكلها) بمعنى مأكولها ، كل (حين) .
- وبثمرها الطيب وريحها المنعش فليس لها ثمر ولا ريح خبيث ، وهو دائم في كل حين فلا ينقطع . . . فأي ثمر هذا يجنَى في الليل والنهار ، وفي الصيف القائظ والشتاء القارس والخريف العاري والربيع المورق . وأية شجرة هذه تعطي ثمرها الطيب مدة العام الكامل وعلى طول الأعوام القادمة من غير نهاية .
- إنها وحدها (تؤتي) أكلها كل حين ، لا يطلبها القاطف ، ولا يشتد الجاني بأخذها ، فهي تعطيه ثمارها بسخاء ورغبةٌ .
- وعطاؤها الدائم بإذن ربها الذي خلقها بهذه الصفات والأفعال ، وليست بإذن صاحبها الذي قد لا يملك من أمرها وأمره شيئاً غير ما اعتاده الناس في مثل هذه الحال .

جمال المنظر وطيب الثمر وحلاوة المذاق وديمومة العطاء وطلاوة الظلال ،

ألوان من الحسن تتجمع في الشجرة المباركة المعمرة التي تزيدها الأيام جمالاً وطيباً وحلاوة وعطاءً وظلاً . والشجرة الطيبة تذكرنا بالشجرة المباركة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم :

● فهي شجرة الزيتون التي كانت جانباً من لوحة النور الإلهي البهي ﴿ كأنّها كوكبٌ دريّ يوقد من شجرةٍ مبارَكة زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسسْه نارٌ نورٌ على نورٍ. . . ﴾ (النور: ٣٥). إنها وما يتصل بها تأخذ مساحة كبيرة في هذه اللوحة الجمالية الفريدة[١] .



(١) من كتاب : الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم : للمؤلف .

التشريع والخير

والتشريع من أهم مقومات الحضارة ، فإذا كان شاملاً وعدلاً وثابت الأصول الربانية ومستوفياً حاجات الناس ومستجداتهم مثل التشريع الإسلامي فإنه أساس الحضارة الإسلامية وباعثها ودافع إليها ،

وإذا قصرنا مفهوم التشريع على تنظيم العلاقات والمعاملات بين الناس كما يرى بعضهم فإن ما يزيد عن ٣٠٠ آية قرآنية من طوال الآي تختص بالأحكام العملية التفصيلية وأدلتها . ولكن إذا فهمنا التشريع أنظمة مستوفية لجميع متطلبات الإنسان والحياة ولجميع مقتضيات الألوهية والكونية فإن القرآن جميعه سجل تشريعي خالد في قصصه وأمثاله ومشاهد القيامة ومعارفه ومعجزاته العقلية والبيانية إلى جانب القواعد الكلية والفرعية في المعاملات والأخلاق والتصورات .

- **التحاكم إلى شريعة الله**: ففي الأحوال المعتادة لابد من مرجع يضبط الحقوق ويثبت الأنظمة ، والشرائع عموماً ماعدا الإلهية يدخلها قسط كبير من الحظوظ المختلفة : حظوظ الحكام ، وحظوظ المصالح ، وحظوظ الفئات الغالبة ، وحظوظ الطبقات المنتفعة والمستغلة ، وإهمال الفئات والطبقات الأخرى حتى وإن كانت لها الغالبية العددية .

فكيف إذا وقعت أحوال تنازع وأوضاع اختلاف ؟ إن المرجعية عندئذ آكد في الخصومات والمنازعات والتحاكم إلى شريعة الله أفضل وأصلح ﴿ يا أيها الذين آمنوا اطيعُوا الله وأطيعُوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإنْ تنازعتُمْ في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرَّسولِ إنْ كنتمْ تؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ (النساء : ٥٩) .

والرد إلى الله والرسول جانب من الإيمان بالمشرِّع الإلهي وخاصية إسلامية لا تحيد عنه ، والرد إلى الله في كتابه لا يغني عن السنة النبوية المفسرة والمفصلة

والمنشئة في كثير من الأحيان . ويلاحظ أن الآية ربطت الرد بالإيمان فهو منه لا يتجاوزه إلى أي تشريع آخر كما ربطه بالخيرية الدنيوية والآخروية ، ومن ناحية ثانية فإن نقل هذا المجتمع من التحاكم الفردي والقبلي والعشائري إلى الشريعة نقلة فكرية وتشريعية وحضارية ، ونقلة من الأحكام التعسفية والتقاليد والأعراف البالية العتيقة ثم تدوينها في سجل مقدس تعهد الله بحفظه يؤذن أن تدوين الشريعة للرجوع إليها لا يقل أهمية عن الالتزام بها وقبولها وتطبيقها .

ومن ناحية (الأدلة) التشريعية يقول الرازي : اعلم أن هذه الآية آية شريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه . . . أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ . وقوله : ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة ، والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم . . . ومَنْ أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابد وأن يكون معصوماً عن الخطأ . . . فثبت قطعاً أن أولى الأمر لابد أن يكون معصوماً ثم نقول : ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة ، لا جائز أن يكون بعض الأمة لأنابينا أن الله تعالى أوجب طاعة أولى الأمر في هذه الآية قطعاً . . . ثم يتابع الدليل على حجية إجماع أهل الحل والعقد في الأمة ، ثم يدلل على حجية القياس من قوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء ﴾ وذلك بعد التصريح بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر . . .

وإذا طلب الله أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل وهذا واجب أولى الأمر بنص الآية السابقة فإن من حقهم طاعتهم ضمن طاعة الله تعالى ، وهذا يبعد الحكم الإسلامي من التسلط الديني والتشريعي والاستبدادي عموماً ، ويرى أبو السعود أن تقديم (الخيرية) على (الأحسنية) يفيد اتصافه في نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل في حد ذاته من غير اعتبار أفضليته على شيء يشاركه في أصل الخيرية والحسن . أما أهمية استنباط الرازي للأدلة الشرعية الأربع من الآية السابقة ـ وأشار أبو السعود إليها فإنها تنبه إلى اعتبار القياس أو الاجتهاد مصدراً تشريعياً قرآنياً فيما لا نص فيه وفي كل زمان ومكان .

وإذا ادّعى أحدهم أن في القوانين الوضعية خيراً للواضع والموضوع لهم فإن جمع الآية بين الخير والأحسن في نهاية يدل على كمال الخير في الشريعة الإسلامية وأحسن المآل والعاقبة .

ـ **في العبادات**: وهي الركن الأعظم بعد (الخير) الإيماني السابق. **ومن ذلك** صوم رمضان وهو خير من رخصة الإفطار للشيوخ والعجائز وغيرهم ﴿ فَمَن كانَ منكمْ مريضاً أو علَى سفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مِسْكينٍ فمَنْ تطوَّع خيراً فهو خيرٌ له ، وأَن تصومُوا خيرٌ لكم إن كنتمْ تَعلمُون ﴾ (البقرة : ١٨٤) . ففي الآية ثلاثة خيرات : أولها : أن يطعم مسكيناً أو أكثر ، أو أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب ، أو أن يصوم مع الفدية . والخير الثاني : فهو اسم تفضيل لمن يقوم بزيادة عن الحد الواجب في الفدية ، ولذا سماه القرآن تطوعاً ﴿ فمن تطوع ﴾ ، والخير الثالث : صوم المشقة والمطيق خير من الفدية ، وكذلك صوم المريض والمسافر باعتبار اللفظ العام ﴿ وأن تصوموا ﴾ . ولا ريب أن الصوم يبعث على التقوى ﴿ لعلكم تتقون ﴾ وهي جماع الخير النفسي والاجتماعي[1] .

ـ **وفي الحج والعمرة**: يقوم المسلمون بالسعي بين الصفا والمروة في نسك الحج والعمرة ، فهما من أعلام أعماله ومن أعظم علاماته ، ومن زاد على ما فرض عليه فإن الله يشكر تطوعه ، ويعظم ثي أجره ﴿ إن الصَّفا والمروةَ من شعائرِ الله فمَن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُنَاح عليه أن يطَّوفَ بهما ومن تَطوَّع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم ﴾ (البقرة : ١٥٨) .

يقول الرازي : وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة ، وسعي هاجر بين الجبلين ، فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية . . . ثم يقول : وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى ، واستدلوا بذلك على أن من

(١) مقتبس من تفسير الرازي .

صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات . . . ثم يقول : فانظر إلى حال هاجر وإسماعيل كيف أغاثهما وأجاب دعاءهما ، ثم جعل أفعالهما طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة ، وآثارهما قدوة للخلائق أجمعين ليعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين . . . ولكن هل من تلطّف أنعم وتعطف أكرم من أن يشكر الله للمتطوعين عن الفرض أو الواجب الذي يقومون به ، بعد أن وصفه بالخيرية والفضل ؟

ـ في البيت المسلم :

ـ الأساس الإيماني: فاختيار الزوجة على أساس الإيمان، ﴿ ولأمةٌ مؤمنةٌ خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتْكم ﴾ (البقرة : ٢٢١) ومثلها اختيار الزوج على أساس الإيمان ﴿ ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبَكم ﴾ (البقرة : ٢٢١) فإن التناظر الفكري والعاطفي في الإيمان بين الزوجين عماد السعادة الزوجية حتى وإن توهم أحدهما أنه لا أهمية لاختلاف الدين بسبب شدة الجذب بينهما في أول الأمر ، فإن أمارات الاختلاف الديني تبدو في الكلام والأفعال والتصرفات ثم في تربية الذرية التربية المسئولة ، والحل الواقعي الناجع إما أن يؤمن المشرك أو المشركة وإما أن لا يقع الزواج أصلاً ، وتنبه الآية إلى الحكمة : ﴿ أولئكَ يدْعون إلى النّار والله يدعُو إلى الجنّة والمغفرةِ بإذنهِ ﴾ . (البقرة : ٢٢١) وإذا تأملنا قليلاً في الخيرية نجد أن المظهر المعجب لا يكفي للتفاهم الزوجي ، ومثله تكلف المعاملة ومعسول الكلام ، وأحياناً الثروة والجاه ، فهذه الأعراض وغيرها لا يمكن أن تصبح بديلاً عن الإيمان العامل المشترك الكبير في العلاقات الزوجية .

ـ الزواج بالإماء: وقريب منه الزواج بالإماء حين لايقدر الزوج على مهر الحرة فهو غير محرم ولكن الصبر عنه خير للبيت المسلم ﴿ ومَن لم يستطعْ منكم طَوْلاً أن ينكِحَ المحصناتِ المؤمناتِ فمنْ ما ملكتْ أيمانُكم من فَتياتكم المؤمناتِ . . . وأَن تصبرُوا خيرٌ لكم والله غفورٌ رحيم ﴾ (النساء : ٢٥) .

فالزواج من الأمة يعرض البيت المسلم للرق بالنسبة للأولاد ويوسع انتشاره في الوقت الذي يوجه الإسلام فيه إلى منعه بالتقليل منه وسد أبوابه

ومنافذه . قال عمر بن الخطاب : أيما حر تزوج بأمة فقد أرقّ نصفه ، ويعقب أبو السعود بقوله : لأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد في السفر والحضر ، وعلى بيعها للحاضر والبادي ، وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده ما لا مزيد عليه . . .

ـ **الاستفتاء في زواج اليتيمات**: والقرآن يوجه إلى الزواج بالمرأة يتيمة أو غير يتيمة لمصلحة البيت المسلم وعلى أساس الإيمان كما سبق ، أما استغلال اليتيمة لضعفها وحيازة أموالها فهو منهي عنه : ﴿ ويستفتونكَ في النساءِ قلِ الله يفْتِيكم فيهنّ وما يُتْلَى عليكمْ في يَتامى النساءِ اللاتي لا تُؤتونَهنَّ ما كُتبَ لهنّ وترغبونَ أَن تنكحوهنّ. . . وما تَفعلوا مِن خيرٍ فإن الله كان بهِ عليماً ﴾ (النساء : ١٢٧)، إنهما مسألتان يستفتيان بهما رسول الله ﷺ يجمع بينهما ضعف الحال والمآل : زواج اليتيمات ، والمستضعفون من الولدان ، فقد كان العرب لا يجعلون لهم نصيباً في الميراث ولا قيمة في الحياة . ونخص الكلام على الزواج من اليتيمة ، فقد أشارت الآية إلى طمع الخاطب بها فلا يعطيها مهرها ويرغب في نكاحها لا لأجل كرامتها والرغبة بها ولكن لأكل مالها وميراثها من أبيها . وصورة أخرى هي عضل وليها فلا يزوجها من الكفء طمعاً في ميراثها .

وأشهرها وأعمها أن اليتيمة تكون عند الرجل فإذا كانت جميلة ولها مال تزوج بها وأكل مالها ، وإذا كانت دميمة منعها من الأزواج حتى تموت فيرثها .

وصور استغلالية أخرى يرفضها الإسلام ولكنها كانت شغل الجاهليين ومصدر ثروة لهم واستغلال ، فلا بد من أن يعالجها القرآن معالجة تليق بكرامتها وتقوي ضعفها وتجعل الرغبة بها لأجلها وليس لمالها ومتاعها .

والتعقيب بالخيرية الشاملة لهما ولغيرهما ينبه إلى أن المسائل الفقهية ينبغي أن تبنى عليها وتدفع إليها فإن أي خير يجازى به صاحبه ويوفّى عليه أجره .

ـ **أدب المعاشرة بالمعروف**: وهو أدب يبدؤه الرجل ويلتزم به في فترات الملل والكراهية ﴿ وعاشِروهنَّ بالمعروف فإن كرهْتمُوهنَّ فعسى أن تَكرهُوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (النساء : ١٩) . ويمكن للمرأة الحصيفة أن تتحمل هذا

الأدب وتعلّمه لزوجها حفاظاً على بيتها ، والحكمة واضحة في المعاشرة المهذبة هي التأني بالطلاق والتصبر على عواقبه وعدم الاستجابة لردود الفعل الآنية فإن أشياء مكروهة في ظاهرها تؤول إلى الخير في حقيقتها ونهايتها . وهو ليس خيراً مجرداً ولا عادياً ، وإنما هو موصوف بالكثرة (خيراً كثيراً) وكفى به توجيهاً لصيانة البيت المسلم من الضياع والتمزق والنزوات [١] .

ويلاحظ أمران :

ـ **الصلح بين الزوجين خير**: وكما سبقت الإشارة إلى أن المرأة الحصيفة قادرة على معالجة نشوز زوجها وإعراضه عنها وإيقاف مشكلاته عند حد والتخفيف أو التخلص منها ، وذلك بتحكيم الصلح بينهما والتجاوز عن الأخطاء .

وعندئذ فلا يبخل الزوج على زوجته التي بادرته بالمعاشرة الطيبة ، وليكرمها وليقلع عن البخل عليها ﴿ وإنِ امرأةٌ خافت من بَعْلها نُشوزاً أو إعْراضاً فلا جُنَاح عليهما أَن يُصلحا بينهُما صُلحاً والصلحُ خيرٌ وأُحضِرتِ الأنفسُ الشحَّ وإن تُحسنوا وتتَّقوا فإن الله كان بما تَعملون خَبيراً ﴾ (النساء : ١٢٨) .

١ ـ **المدار الأعظم** في أدب المعاشرة واقع على الزوج بمقتضى ختام الآية . فالمطلوب ﴿ أن تحسنوا ﴾ في العشرة ﴿ وتتقوا ﴾ النشوز والإعراض وتصبروا على ذلك رعاية لحقوق الزوجية فإن الله يثيبكم عليه (وفي خطاب الأزواج بطريق الالتفات ، والتعبير عن رعاية حقهوقهن بالإحسان ، ولفظ التقوى المنبىء عن كون النشوز والإعراض مما يتوقى منه ، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة ، والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفى) [٢] .

٢ ـ **الصلح بين الزوجين** هو العلاج الأجدى للخلافات الزوجية فإن الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ آخر ما يفكر فيه الزوج المسلم إذ إنه ليس أصلاً في الحياة الزوجية ، وليس صورة صالحة من أدب المعاشرة بالمعروف ، ومهما بذل كل منهما لأجله فإنه خير ، حتى وإن حيف على أحدهما بشيء فإنه خير،ولكن

---

(١) انظر تفسير مفصلاً لها فيما سبق .

(٢) أبو السعود في تفسيره .

بشرط ألا يستمرىء الظلم والعدوان . وإن إبراز الصلح هنا يتطلب التنازل من الطرفين عن بعض حقهما ومكاسبهما وإلا فلا يتم الصلح . ولا يتحقق الخير غالباً ، فإن في الصلح أحياناً من الافتئات على حق الغير وظلمه ما لايمكن أن يمس الخير والبر والصلاح مساً ، وإذا صلح الخير في سياق البيت المسلم فإن صلاحه شامل لسائر المعاملات والخصومات فقد قيل : (الصلح سيد الأحكام) .

وهو على ما تقدم دعامات راسخة للحفاظ على البيت المسلم واستمراره في حفظ النوع الإنساني وقيامه بالتربية النوعية التي هي عماد حضارة القرآن .

ـ **النفقات والصدقات** : وحث القرآن كثيراً على البذل من كرائم الأموال وأطيبها ويقدم المنفق الأصول والفروع والأقربين الفقراء . ويراعي الإسلام حجم الإنفاق مثل ما يراعي نوعيته ووجوهه ، فينبغي أن يكون طيباً حلالاً يصرف في وجوهه المشروعة ، ففرق كبير بين الطيب والرديء عموماً ﴿ ولا تيَّمموا الخبيثَ منه تُنفقون ﴾ (البقرة : ٢٦٧) ، وانفاقه على نصرة الإسلام متميز على ما ينفقه الكافرون في الصد عنه أو تمزيقه ﴿ لِيميزَ الله الخبيثَ من الطَّيب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ فيركُمَه جميعاً ﴾ (الأنفال : ٣٧) . ويفضل الصدقات السرية ولا حرج من إعلانها وبخاصة إذا كان من وراء ذلك مقصد شريف ﴿ إنْ تُبْدو الصدقاتِ فنعمّا هي وإن تخفُوها وتُؤتوها الفقراءَ فهوَ خيرٌ لكم ﴾ (البقرة : ٢٧١) .

فالمعلنون لها فضيلة والساكتون عنها أفضل ، وهذا المبدأ الأخلاقي العام يلاحظ الأحاسيس المرهفة والمشاعر الرقيقة ، ومن وراء ذلك وحدة المجتمع الإسلامي كله فقيره وغنيه ، معطي المال وآخذه . وكثيراً ما تسد (الصدقة) بالمعنى الواسع ثلمة اقتصادية قد تفوق في جزائها العطاء للفقراء ، فالمعسرون يؤجّلون في سداد ديونهم ، وانقاص الدين عن المدين لعجز أفضل عملاً ﴿ وأن تَصدَّقوا خيرٌ لكم ﴾ (البقرة : ٢٨٠) . وهكذا فقد سبق الإسلام الأخلاقيات الإنسانية جميعها بالمسامحة في الديون وتخفيفها عن الدول الفقيرة بعد أن طلب من

الأغنياء أن يعزفوا عن الربا الذي يعقّد قضية الدَّين ويزيد من مشكلاته وبخاصة تلك الفوائد المركبة التي تضع المدينين في إسار النفوذ والإذلال .

إن مسائل المال في الإسلام تبدو الآن غريبة الأوضاع عجيبة التطلعات في عصر التفاوت الاقتصادي بين الدول المتطورة الغنية والنامية والمتخلفة ، حتى إن أخلاقيته تكسبه معانٍ طيبة وآمالاً راقية ، وتلبسه ألبسة جميلة من الخيرات الدينية والأسرية والاجتماعية ، وتدفع بصاحبه أحياناً أن يضعه في ﴿ المؤلفة قلوبهم ﴾ ومن أجل الإسلام ودعوته باعتباره وسيلة كريمة لهدف كريم .

ـ **الجهاد والإنفاق**: ولذا فإن تجهيز الغزاة جهاد، وبذل المال له مقدم في كثير من الآيات عليه ، والجهاد التطوعي والبذل الاختياري ينمي دوافع التضحية بالنفس والمال مثل ما يصفّيها من المقاصد الدنيوية والمصالح الشخصية . ومهما كان في الجهاد مشقة وعطاء فإن منافعه تفوقها وتزيد عليها ، ﴿ كُتب عليكمُ القتالُ وهو كُرْهٌ لكمْ وعسى أن تَكرهوا شيئاً وهوَ خيرٌ لكم وعسى أَن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلمُ وأنتمْ لا تعلمون ﴾ (البقرة : ٢١٦) . فالجهاد فريضة إسلامية لتحقيق أغراضه المشروعة لا تتعلق بمحبته وكراهيته فإن بعض النفوس تكره القتال وتؤثر العافية والسلامة وتنسى نتائجه المدمرة ومحصلته الاستعمارية ، ومهما بلغت مشقته في النفوس وثقله عليها فإن نتائجه خير للمسلمين ودينهم . أو ليس فيه مصلحتهم ، في الحال والمآل مادام يحقق العدل والأمن والنصر ، ويحقق معه دخول الناس في الإسلام ؟

وفي كلتا الحالتين أو أحدهما فإن الفوز بأحدى الحسنين فوز عظيم ، فهو رضوان الله ومغفرته وكذلك فوز أعظم بالنصر أو الشهادة أو بهما معاً . ويكاد يساويهما في الفضل التعرف على الإسلام في السلم والقتال والدخول فيه ، فأي نفع أعظم وأدوم في مقابل الكراهية والمشقة المؤقتة ؟

إن الحكمة العظيمة التي تغيب عن الأذهان هي أن الحب وحده لا يجعل المحبوب خيراً دائماً ، وأن الكره وحده لا يجعل المكروه شراً أبداً ، وأن الخير والشر ونتائجهما لا يستتبعان عواطف الإنسان بالمحبة والبغض ، فإن الواقع يثبت

مخالفتها في كثير من الأحيان ، والجهاد مثل واضح على ذلك .

فإن ما فيه من كلفة ومشقة خير من متاع الدنيا القليل المؤقت ، وهذا لا يمكن أن يتساوى مع خلود المعاني الجهادية وبقائها وثوابها ﴿ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمنِ اتَّقى ﴾ (النساء : ٧٧) . حتى إن جمع المال - وهو مما يرغب فيه الإنسان عادة - ليس بمنزلة الجهاد ، وجامعيه ليسوا كواهبيه ، وشتان بين الأخذ والعطاء وإن كانا يجتمعان كثيراً ﴿ ولئنْ قُتِلتم في سبيلِ الله أو مُتُّم لَمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مِمَّا يَجْمعون ﴾ (آل عمران : ١٥٧) ، إن تعدد مجالات الموت ومواقعه في سبيل الله سبب لغفران الذنوب ورحمة أهلها ، وهي أفضل مما يجمعه الكفار من أموال الدنيا . ويلاحظ أن الخيرية تعود إلى صنفين من المؤمنين : التجار المسافرين في الأرض ابتغاء الرزق الحلال ، والغزاة في سبيل الله ، وأن الضاربين في الأرض مقدمون بالذكر لكثرتهم ولاستمرارهم وهو الأصل في الجانب الاقتصادي خاصة والحياة الإسلامية عامة ، والمجاهدون يقومون بالجهاد عند ضروراته ومستلزماته وهي قليلة بالنسبة إلى سابقتها ، ومع ذلك فإنها تشترك معها في المغفرة والرحمة والخيرية الواسعة .

أحداث في الجهاد من الجهاد : فكل عمل لمصلحة الجهاد أو لمصلحة المجاهدين سلباً وإيجاباً من الجهاد ، وكل ما يتبلي به المجاهدون من المصاعب والمتاعب عمل صالح وجهاد يستحق أعظم التكريم والتقدير ﴿ ذلك بأَنهم لا يصيبهُم ظمأٌ ولا نَصبٌ ولا مَخمصةٌ في سبيلِ الله ولا يَطئُون موطِئاً يَغِيظُ الكفارَ ولا ينالُون من عدوٍ نيلاً إلا كُتب لهم بهِ عملٌ صالحٌ إن الله لا يُضيعُ أجرَ المُحْسنين . ولا يُنْفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعون وادياً إلا كُتِب لهم لِيجْزيَهمْ الله أحسنَ ما كانُوا يَعْملون ﴾ (التوبة : ١٢٠ ، ١٢١) .

إنها أطول الآيات وأشملها في أحداث الجهاد ومثوباته وهي : عمل صالح ، وإحسان عظيم ، وجزاؤهم بالأحسن والأفضل عند الله وعند الناس .
والأعمال والأحداث فيها كما يفسرها أبو السعود : لا يصيبهم عطش يسير ولا تعب ما ولا مجاعة مالا يستباح عنده المحرمات من مراتبها . . . ولا يدوسون

بأرجلهم ، وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوساً أو مكاناً يداس ، ـ ولا ينالون ـ شيئاً ينال من قبلهم (إلا كتب لهم به) أي بكل واحد من الأمور المعدودة (عمل صالح) وحسنة مقبولة مستوجبة بحسب الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى (ولا ينفقون نفقة صغيرة) ولو تمرة أو عُلاقة سوط (ولا كبيرة) كما أنفق عثمان رضي الله عنه ، (ولا يقطعون) أي لا يجتازون في مسيرهم (وادياً إلا كتب لهم) أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والقطع (ليجزيهم) أحسن جزاء أعمالهم .

ويقول الرازي معمماً : دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ، وكذا القول في طرف المعصية ، فما أعظم بركة الطاعة ، وما أعظم شؤم المعصية .

وأقول : إن الأعمال والأحداث في الآيتين يمكن تصنيفهما إلى ثلاثة أصناف : صنف واقع بالمجاهدين مثل الظمأ والنصب والمخمصة ، وصنف واقع بالكفار فاعل فيهم ، هو دخول أرض العدو وأخذهم الغنائم واجتيازهم أرضهم ، وصنف ثالث : الإنفاق للجهاد قليلاً أو كثيراً . . . وهي أعمال ونفقات ومصاعب ومشقات متكاملة وهامة لا يستغنى بعضها عن الآخر في إطار الجهاد الإسلامي ما أحراها بالتكريم وأولاها بالإحسان .

ـ **الحلف بالله والبر:** والبر من مرادفات الخير مثل الصلاح والطيب وقريب من التقوى . فلا ينبغي أن يكون الحلف بالله مانعاً من القيام بالخيرات والمبرات ، كما لاينبغي الإكثار من الحلف به ابتداءً لجلال الله واجتراء على قدسيته ، فلا يكون الحالف براً في الحالتين : ﴿ ولا تَجْعلوا الله عُرْضةً لأيمانكم أن تَبرُّوا وتتَّقوا وتُصلحوا بينَ الناسِ والله سميع عليم ﴾ (البقرة : ٢٢٤) ، وهي مسألة يبرر بها بعض المتهاونين تقصيرهم أو إحجامهم عن الأعمال البارة حين يسبقون إلى الحلف أو يستترون وراءه . فإن عمد بعضهم إلى ذلك فليفعل وليكفِّر عن يمينه . ففيه فسحة وعلاج .

أما أولئك المكثرون بالحلف في مناسبة وفي غير مناسبة فإن سلوكيتهم هذه

تدل على امتهان لاسم الله وذاته سواء قصد ذلك أم لم يقصد ، فإن الاعتياد عليه يقلل من روعة التذكر والاستحضار لجلال الله وسلطانه في نفسه ونفوس الآخرين . وهذا يعني أن يلتزم المؤمن بالكلمة الصادقة والقول المستقيم والعمل الفاضل سيرته كلها وعندئذ فلا داعي للأيمان ولا حاجة للحلف في مثل هذه الأحوال العادية .

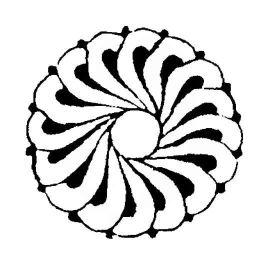
- **في توبة المسيئين للتشريع** : وفي قذف المحصنات لابد من (الإصلاح) حتى يغفر الله لهم قولتهم الشنيعة : ﴿ إلا الذينَ تابُوا من بعد ذلك وأصلحُوا فإن الله غفورٌ رحيم ﴾ (النور : ٥) . يقول أبو السعود : استثناء من الفاسقين لترهب المتوب عنه أي من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل ، أصلحوا أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي والتدارك ، ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقذوف . . . فلا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم في سلك المنافقين لأنه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة .

ولا ريب أن من المحافظة على الأعراض وهي إحدى الكليات الخمس تقتضي صونها عن الاتهام الكلامي وإبعادها عن المهاترات والمزايدات اللسانية ، وهي حق للمقذوف لم يوجد مثله في أي تشريع ، إنه تجريد له من الحق المدني وتفسيقه ﴿ ولا تقبلُوا لهُمْ شهادةً أبداً وأولئك همُ الفاسقون ﴾ وهذا تكريم وتقدير للمحصنات العفائف الدال على نزاهتهن عن الفاحشة ومارمين به ، ثم إنه تكريم وتقدير للمجتمع كله الذي يعتبر نصفه أو ما يزيد من النساء الطاهرات العاملات في حضارة الإسلام .

- **وفي التوبة من السرقة**: لابد من (الإصلاح) أيضاً فإن الله يقبلها ويغفر للسارقين فعلتهم الشنيعة ﴿ فمن تابَ مِنْ بعدِ ظُلْمه وأصلَح فإن الله يتوبُ عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴾ (المائدة : ٣٩) .

يقول أبو السعود : ﴿ فمن تاب ﴾ من السرّاق إلى الله تعالى ﴿ من بعد

ظلمه ﴾ سرقته بالتفصّي عن تبعات ما باشره وهو العزم على ترك المعاودة إليها يقبل توبته فلا يعذّبه في الآخرة ، وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لأن فيه حق المسروق منه وتسقط عند الشافعية في أحد قوليه ـ وهو ـ مبالغ في المغفرة والرحمة . ولا ريب أن المحافظة على الأموال تعني أيضاً بثّ الأمان في المجتمع في مرافقه . ولا يتحقق ذلك إلا بالعقوبة الرادعة فإنها نكال من العزيز الحكيم في مجتمع تحققت فيه الكفاية والعدل والحكم بما أنزل الله ، بينما تتعاظم العصابات وتتفنن في السطو والسرقات في رابعة النهار في أكثر البلاد تقدماً وغنى .



الخير وموازنات فكرية وعقدية وعملية

إن ثنائية الأحكام على الأشياء والأقوال والأحوال بالخير أو بالشر بالحق أو بالباطل منذ أقدم العصور وإلى ما شاء الله تعني عدم التساوي فيها وعدم اعتبارها شيئاً أو قولاً أو عملاً واحداً ، فلذا لا يمكن أن تتوحد هذه الأحكام في القبول والرفض وفي الحسن والقبح ، فإن العقول والشرائع والأعراف تميز بينها وتعطي كلاً منها قيمة مختلفة إن اتفقت العقول والشرائع في القيم أو اختلفت . ومن هنا فلابد أن تختلف الأحوال والأقوال والأشياء قبولاً ورفضاً ، حباً وبغضاً ، صلاحاً وفساداً ، وإلا أهدرت العقول وضاعت الأديان واختلطت المفاهيم فساداً أو سوءاً .

والقيمة الأخرى بعد هذا التصنيف هي أن الخير ليس حجماً واحداً ولا مقداراً ثابتاً تماماً مثل الشر فإن من الخير ما يقل نفعه ويقل المنتفعون ، ومنه ما يعم نفعه ويكثر المنتفعون ، وكذلك فإن من الشر ما يستشري فساده ويسود إثمه ومنه الأقل ثم الأقل ، وكذلك فإنهما قد يقاسان بالدرجة والنوعية مهما قلّا عدداً وحجماً وضاقا مجالاً وموقعاً ، وعندئذ تكون التضحية بالمال والجهر بالحق وإنقاذ الهالك خيراً عظيماً وعلى هذا فالخير حجماً ، والخير دافعاً لا يوزنان بميزان واحد ولا بمعيار محدد، فدرهم واحد سبق ألف درهم ، وعمل صغير يستوعب من الخير ما لا يستوعبه عمل أو أعمال ضخمة لا تنطلق من النوايا السليمة ولا تهدف إلى المقاصد النبيلة .

إن مثل هذه النظرة الشاملة للخير القليل والكثير ، والمدفوع بدوافع مختلفة والهادف إلى غايات متعددة تسع الناس جميعهم فقراءهم وأغنياءهم ، ضعفاءهم وأقوياءهم ، علماءهم ومتعلميهم ، كما تشمل أنواع الخيور وأشكالها المادية والمعنوية حتى تلك الكلمة الطيبة والنظرة الحانية ، والمشاركة الوجدانية . . .

ثم إنها من وجهة النظر الإسلامية ، لا تحدها هذه الدنيا على رحبها ولا العالم الموجود على كثرته وإنما تمتد إلى عالم الآخرة في يوم الجزاء والغفران والإحسان .

وإذاً فلا تتساوى درجات الخيور بعضها مع بعض ، في المقدار والدوافع والأغراض ، حتى إنه يمكن أن يتفاوت الخير الواحد لدى شخصين أو أكثر بتفاوت الدوافع والأغراض ، وأحياناً تتفاوت درجته لدى الشخص الواحد فتختلف قيمه من حال إلى حال ومن زمان إلى آخر .

وصرح القرآن بالتفاوت الخيري في **العقائد والأعمال والأشياء والأقوام والأزمنة والأمكنة في موازنات كثيرة** ليزداد الخير إشراقاً وجلاء والشر قباحة وسوءاً ومن ثم يتميز الخبيث من الطيب بالمعايير الربانية الثابتة حتى يصير الناس أخياراً ، ويجتنب الأشرار شرورهم وآثامهم .

في التوحيد والأرباب : والأنبياء كلهم دعاة التوحيد وحملة رسالته ، فكان يوسف يستنكر على المشركين موازناً بينه وبين الشرك ﴿ يا صاحبِي السجنِ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أمِ الله الواحدُ القهار ﴾ (يوسف : ٣٩) وهو إنكار لا يملك العاقل له إلا جواباً واحداً نابعاً من فطرته العقلية السليمة هو : أن الله الواحد القهار .

وإبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده حتى يلتزموا بها إن كانت لديهم مسكة علم وفهم في موازنة خيرية صريحة ﴿ وإبراهيمَ إذْ قَالَ لقومِهِ اعبُدوا الله واتقُوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (العنكبوت : ١٦) . والخيرية عامة في العقائد والعبادات وشاملة للدنيا والآخرة لأنها واضحة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ﴿ قلِ الحمدُ لله وسلامٌ على عبادهِ الذينَ اصطفَى آلله خيرٌ أمَّا يُشركون ﴾ (النمل : ٥٩) فالحمد لله،يعلّمه لرسوله ، وسلام سابغ على المصطفين من عباده من سمات التوحيد والموحدين .

في المتع العاجلة والآجلة : والأنبياء كلهم دعاة إلى الإيمان باليوم الآخر أيضاً ، فهو أصل في عقيدة التوحيد ، حيث يخيب الشرك والشركاء . . . ومن كانت

لديه مسكة عقل يدرك الفرق بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة ﴿ وما أُوتيتمْ من شيءٍ فمَتاعُ الحياةِ الدنيا وزينتِها وما عندَ الله خيرٌ وأبقَى لِلذين آمَنُوا وعلى ربِّهم يتوكلُون ﴾ (الشورى : ٣٦) والقرآن يؤكد على عموم الخيرية دائماً ﴿ والآخرةُ خير وأبْقَى ﴾ (الأعلى : ١٧) ﴿ ولـلآخرة خيرٌ لك من الأولى ﴾ (الضحى : ٤) ففيها صفتان : الخيرية والخلود ، وقد يكون في الخلود جانب من الخيرية العامة الشاملة كما يكون في الخير تجاوز الزمان والخلود فيه .

في المثوبة والعقوبة : فلا تتساويان ولا يتساوى الصالحون والمفسدون لا في الأعمال ولا في المصائر ﴿ قلِ أذلكَ خيرٌ أمْ جنةُ الخلدِ التي وُعِد المتقون ﴾ (الفرقان : ١٥) ثم يقرر القرآن الخيرية بعدها ﴿ أصحابُ الجنةِ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً ﴾ (الفرقان : ٢٥) وتتضح الموازنة بصورة أجْلي في الشكل العكسي ﴿ أذلكَ خيرٌ نُزلاً أم شجرةُ الزَّقوم ﴾ (الصافات : ٦٢) فالآمن يوم القيامة لا يتساوى مع الخائف الملقى في جهنم ﴿ أفمَن يلْقَى في النارِ خيرٌ أمَّن يأتي آمِناً يومَ القيامة . . . ﴾ (فصلت : ٤٠) . إن العلماء وحدهم يوجهون إلى هذه الحقيقة المصيرية ﴿ وقال الذين أُوتوا العلمَ ويَلكمْ ثوابُ الله خيرٌ لَمن آمنَ وعمِل صَالحاً ﴾ (القصص : ٨٠) وهم والعقلاء يفرقون بين ثواب الله ومصيره وبين أموال الطغاة وسلطانهم .

في التشريع الإلهي : فللبيوت حرمتها وآدابها فلابد من الاستئناس والاستئذان عند دخولها ، وهو خير من المفاجأة التي لا تحمد عقباها ﴿ ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تذكَّرون ﴾ (النور : ٢٧) ، وحجاب المرأة القاعدة وسترها خير من وضع ثيابها عنها ﴿ وأن يَستعْفِفْنَ خيرٌ لهنّ والله سميع عليم ﴾ (النور : ٦٠) .

وفي الجهاد الإسلامي ما يستدعي النفير العام حين يدخل العدو أرض المسلمين ﴿ انفِرُوا خِفَافاً وثِقالاً وجَاهِدوا بأموالكمْ وأنفُسِكم في سبيلِ الله ذلكمْ خير لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾ (التوبة : ٤١) . فإذا هزم الأعداء وانتهوا من معاودة القتال فهو الأحسن لكم ولهم فإنهم على الأقل ينجون من ذل الهزيمة والعار ﴿ إنْ تَستفتِحُوا فقد جاءكُم الفَتْحُ وإن تَنتهُوا فهو خيرٌ لكم . . ﴾ (الأنفال : ١٩)

وفي التشريع الجنائي وغيره لابد من القصاص العادل ، ولكن الصبر عنه والعفو عن الجاني خير وأفضل ﴿ وإن عاقبتمْ فعاقبُوا بمِثْل ما عُوقبتمْ به ولَئِنْ صبرتمْ لَهُوَ خيرٌ للصَّابرين ﴾ (النحل : ١٢٦) .

في الأمكنة والأزمنة والأقوام : فلله خواص فيها لاعتبارات وخصائص قائمة عليها ، فلا يتساوى مسجد التقوى بمسجد الضرار ﴿ أفمن أسَّس بنيانَه على تقوى مِن الله ورضوانٍ خيرٌ أمَّن أسَّس بنيانَه على شَفا جُرفٍ هارٍ فانهارَ بهِ في نارِ جهنم ﴾ (التوبة : ١٠٩) ثم أمر الرسول ﷺ فهدم ، وفضل ليلة القدر متنزل القرآن ﴿ ليلةُ القَدْر خيرٌ من ألف شهر ﴾ (القدر : ٣) ، والموازنة بين قريش والتبابعة ﴿ أهمْ خيرٌ أم قومُ تبَّعٍ والذينَ من قبلِهمْ ﴾ (الدخان : ٣٧) حتى في القوم الواحد فلا يستوي المستجيبون للوعظ والعمل به والمعرضون عنه ﴿ ولو أنَّهم فَعلوا ما يُوعَظون به لَكانَ خيراً لهمْ وأشدَّ تَثْبيتاً ﴾ (النساء : ٦٦) إنه أفضل وأثبت وأقوى . واليهود يوجهون إلى أدب القول والإقلاع عن عوجه وليّه ﴿ ويقولونَ سمعْنا وعصيْنا واسمعْ غَيرَ مُسْمَعٍ وراعِنَا لياً بألسنتهم وطَعْناً في الدِّين ولو أنَّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمَعْ وانظُرْنا لكانَ خيراً لهم ﴾ (النساء : ٤٦) .

إن هذه الموازنات وأمثالها تجلي مواقع الخير وتدفع إلى الالتزام به ، والتحلي بفضائله ، وأولئك العقلاء والعلماء يدركونها وينبهون الناس إليها ويثيرون فطر الناس لمتابعتها ، وهي بتصنيفها الأوّلي الفاصل ، والأولوي الفاضل أسس في حضارة القرآن ومقوماتها وأركانها الفكرية والعملية .

ولكن حضارة القرآن لا تحقق خيرها أولاً وأخيراً إلا إذا تبرّأت من تصورات الجاهلية وأقلعت عن سلوكياتها المنحرفة ولذا فلابد من أن يعلن القرآن براءته من الشرك وأعماله وأهله وينبه إلى ضرورة التوبة والإنابة إلى الإسلام ﴿ وأذَانٌ من الله ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشركين ورسولُه . فإن تُبتمْ فهو خيرٌ لكم وإن تولَّيتمْ فاعلمُوا أنكم غيرُ معجِزي الله ﴾ (التوبة : ٣) .

المسئوليات والخير

يرتبط الخير بالمسئوليات الفردية والأسرية والجماعية كما ترتبط به في شعاب الحياة الدنيا والاخرة ، وفي كلا الارتباطين يبرز في المسئولية جانبها الخيري الصلاحي الطيب مثل ما يبرز في الخير جانبه المسئولي في وجهه الإلزامي أو الالتزامي ، مما يخفف الالزاميات القهرية ليكسبها رغبة وتشوفاً إلى الالتزام الذاتي مادامت تحمل في طياتها ظلال الخير وجماليته وسعادته .

ونوجز هنا الكلام عليهما لنستكمل مفهوم الخير في القرآن ، بينما نؤجل التفصيل فيه من جوانبه كلها في مناسبة أخرى حين نفرد الكلام على موقف القرآن من الإنسان ، إن شاء الله .

مسئولية الإنسان والخير

لم يشهد تاريخ الأديان ولا مضامينها تقديراً للإنسان وتكريماً لإنسانيته مثل ما شهد به القرآن ، ولم يعرف لوثيقة عالمية من الحقوق ما ضمنه الله في كتابه العزيز من قبل خمسة عشر قرناً وإلى ما شاء الله . فالله تعالى في القرآن أقسم به على أنه أشرف مخلوق وأكرم خليفة وأبصر معلم ومتعلم ، وأعقل موجود كان أو هو كائن ﴿ ونفسٍ وما سوَّاها . فألهمَها فُجورَها وتَقْواها ﴾ (الشمس : ٧ ـ ٨) .

موقفان للإنسان (تزكية وتدسية) : والكرامة والتقدير لايتحققان إلا بالخيرية والفلاح في الحياتين ﴿ قد أفلحَ مَنْ زكَّاها ﴾ (الشمس : ٩) أما التمرد على الله والفجور في طاعته بحيث يختار طريق الشر والفساد فإن في ذلك فقداً لكرامته وتقديره ووقوعاً في الخيبة والخسران ﴿ وقد خابَ مَنْ دسَّاها ﴾ (الشمس : ١٠) وهكذا فالنفس تقف على مفترق طريقين : طريق الخير وطريق الشر ، على اختلاف في نسب الالتزام والعمل والسلوك ، الذي تختاره أو تقوم باختياره

وكسب ما يترتب عليه من تبعات ومسئوليات .

والبشرية لا يمكن أبداً أن تسلك طريق الشر دوماً ، وإذا سلكته في فترة فإن عودتها أو عودة بعضها إلى الصلاح عن طريق الرسل والمصلحين لا يتختلف مهما أدلهمت الفتن وشطت بعيداً عن جادة الصواب . وكذلك فإنها في الغالب الواقعي لا يصفو جميع أفرادها ويخلص كل ناسها بحيث تصبح الأرض عامرة بالملائكة وهم بشر ، أو معمورة بالناس الأخيار وهم مختلفون في الكسب والاختيار .

ولو أراد الله لجعل الناس كلهم مجتمع الخير والفضل والتقوى وخلقهم أمة واحدة ، ولكنهم مختلفون متنازعون . متقاربون أحياناً متباعدون أحياناً ، طائعون أوقاتاً ، عاصون أوقاتاً أخرى قريبون منه دهوراً بعيدون عنه دهوراً ثانية . . . هكذا خلقهم وكوّن نفوسهم وجبلهم وتمت كلمة الله صدقاً وعدلاً .

ولكن يبدو من القَسَم الإلهي بالنفس البشرية أنه يصفها بالتسوية الربانية (وما سواها) فهي من صنيعه وتدبيره وتسويته ، وليست من صنيع أحد ولا من تدبيره وتسويته ، وهذا يعني أنها أثر عظيم لمؤثر أعظم ، وتسوية كريمة لمسوٍّ أكرم وأنعم . وإذا أودع الله في هذه التسوية قابليتها للخير والشر والطاعة والعصيان فإن نسبتها إليه يلهم أن التكوين الإلهي في النفس البشرية على أساس الخلقة الربانية المسوّاة ، مما يقدم فكرة الخيرية والصلاحية ويسهلها عليها ويصعب أو يبعد فكرة الشرّية والفساد عنها ، والتقديرات الربانية الأولى والأساسية تبرز كرامة الإنسان وتقديره بالدين والعقل والعلم والخلافة كما صرحت آيات كثيرة بذلك ، يضاف إلى ما سبق مسألة (الإلهام) وتعني إفهام النفس الخير والشر وبيان كل منهما وعاقبته ، فلم يتركها من غير تنبيه ولم يدعها من غير بيان ، وهذا يدل أيضاً على كرامة أخرى في الصيرورة الحياتية وما فيها من علاقات ، مما يشعر أن التكوين والتصيير مهيآن للخير أكثر مما يهيآن للشر .

يقول الرازي في مفهوم التسوية : إن حملنا النفس على الجسد ، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وإن حملناها على القوة المدبرة ،

فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة (الذاكرة والحافظة) ، على ما يشهد به علم النفس . . . وأقول : الأولى هو الجمع بين التسوية الجسدية العضوية وبين استكمالها بالقوى المعنوية البشرية المختلفة ، وعندئذ تكمل التسوية من هاتين الناحيتين حيث علق عليهما الفلاح بالتزكية ، والخيبة بالتدسية . . .

ثم يذكر عن (الإلهام) وجهين : الأول أنه الإفهام والإعقال ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ماشاء منهما ، وهو كقوله : ﴿ وهديناهُ النَّجدين ﴾ ويقول : وهذا تأويل مطابق لمذاهب المعتزلة . . . ووجه مروي عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين ، والوجه الثاني : أنه تعالى ألهم المؤمن المتقي تقواه وألهم الكافر فجوره ، قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها ، وقال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور ، واختار الزجاج والواحدي ذلك ، قال الواحدي : التعليم والتعريف والتبيين غير والإلهام غير ، فإن الإلهام من قولهم : لهم الشيء ، والتهمه : إذا ابتلعه ، والهمته ذلك الشيء : أي أبلغته ، وهذا هو الأصل ، ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، لأنه كالإبلاغ ، ثم يرجح قول ابن زيد يردّ على غيره . . . ثم يشرح التزكية : بالتطهير والإنماء ، و(دساها) : أصله من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، وينقل عن المعتزلة موافقتهما لأصليهما بأن أهل الصلاح يظهرون أنفسهم وأهل الفسق يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية ، أو : دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم ، أو انغماسهم في المعاصي أو دسّهم في الفجور بسبب مواظبتهم عليها ، أو بنسيانهم وخمولهم ، لأنهم تركوا الطاعات واشتغلوا بالمعاصي . . . ثم يسوق أقوال العلماء من أهل السنة : المعنى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى ، وأغواها وأفجرها وأبطلها وأهلكها .

ثم ينقل عن الواحدي كلاماً جميلاً : فكأنه سبحانه أقسم بأشرف مخلوقاته

على فلاح مَنْ طهّره ، وخسار من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق .

ولا يبعد أبو السعود عما قاله الرازي . يقول : أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها ، وأفهمها إياهما (الفجور والتقوى) وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدي إليه كل منهما ، ومكنّها من اختيار أيهما شاءت ، وفاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه مَنْ أنماها وأعلاها بالتقوى . . . وخسر من نقصها وأخفاها بالفجور .

ففي كلام أبي السعود اقتباس وتوفيق وزيادات . والقذف الرباني الذي أشار له الرازي وقبله الواحدي هو ما صرح ابن القيم أنه (قاعدة أساس الخير) حيث يقول [1] : أساس كل خير أن تعلم أن ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فتيقن حينئذ (أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك . وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد ، وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك ، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد ، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه . فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجاً دونه .

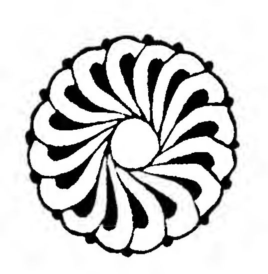
وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته . فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم ، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين ، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم ، وما أتى من أتى إلا من قبل إضاعة

---

(١) الفوائد : ٩٦ .

الشكر وإهمال الافتقار والدعاء ، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد) .

وإذاً فإن الإنسان مسئول عن الخير وتزكية نفسه به ، ومسئول عن الشر وتدسية نفسه عنه ، وهي مسئولية تنم عن التشريف والتكريم والاستخلاف ، ولاريب أن (قيمة) المسئولية من الوجهة الحضارية من أهم قيمها ومعنوياتها فإن وجودها وتغلغلها فيها لا يقل أهمية عن آثارها ونتائجها في جانبي النفع والضر والصلاح والفساد . وإن الوعي بالمسئولية أعظم ما يشيعه الوعي الاجتماعي الحضاري ، ولا يوزايه شيء آخر سوى ما يقوم به الإنسان من الالتزام والعمل الهادي المستمر .



مسئولية الأسرة المسلمة والخير

واهتمام القرآن بالبيت المسلم هو خطة بنائية لقيام المجتمع الإسلامي على دعائم حيوية راسخة تبني بفعاليتها الاجتماعية الأجيال وتوجيههم وتخرجهم صناع الحضارة الإسلامية . ويتخذ القرآن من (فطرية) النمط الأسري (ووجهته الاجتماعية) ما يحقق الفضائل والقيم الأسرية والاجتماعية النوعية معاً ، ولذا فإن (رعاية) الآباء (وقايةُ) لأولادهم ، النار التي وقودها الناس والحجارة ، وإنجاب الذرية الوارثة للصفات البدنية والخلال الكريمة ثم تزكيتها بالتربية الحسنة مما تقر به عيون الكبار وتسعد لها حياة الأولاد والأحفاد .

القرابة أصل ولا أصل :

فالقرابة النسبية ليست وحدها وشيجة الأسرة أصلاً أو فرعاً أو حاشية ﴿ قال يا نوحُ إنه ليسَ من أهلكَ إنه عملٌ غيرُ صالح ﴾ (هود : ٤٦) فلا يتخذ الآباء والأبناء والأخوان أولياء من دون الله إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ولا ينبغي أن يكونوا أحب إليهم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، حتى إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ لا يغني عنها والدها من الله شيئاً . ولكن القرابة اصل من أصول العلاقات الأسرية من حيث الحقوق المالية والمعنوية وهي اللبنة الأولى في قاعدة التكافل الاجتماعي العريضة .

الولد الصالح مدعاة لشكر الله والاستمرار في طاعته : فإذا وفق الأبوان في تربية أولادهم على النمط الوالدي الصالح فإنهم يصبحون في صحيفتهما فليشكرا الله على ذلك وليحمداه على نجاحهما في التربية الفاضلة ، والمدرسة مكملة لمسئوليتهما متممة لعملهما ، وحسبهما من الدنيا أن غراساً نما وأزهر وآتى ثماره وشاع خيره وعطاؤه حتى يكون استمراراً لهما في الذكر والثناء ، ومثوبة دائمة عند الله تعالى ، ومن ناحية أخرى فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا فلا يفتتن الأبوان

بهم ولا يهملا أحوالهم ولا يكفرا بنعمة الولد عليهم ﴿ هو الّذي خلقكُمْ من نفسٍ واحدةٍ . . . فتعالى الله عمَّا يشركون ﴾ (الأعراف : ١٨٩ ـ ١٩٠) .
رعايتان لابد منهما : رعاية مادية فلا يهملا أولادهما من حقهما في النفقة في الحياة ولا من حقهما في الميراث بعد الحياة، ولأن يتركاهم أغنياء يتعففون الناس خير من أن يذراهم فقراء محاويج ﴿ وأما الجدارُ فكان لغلامين يتيمينِ في المدينة وكان تحتَه كنزٌ لهما وكانَ أبوهُما صالحاً فأراد ربُّك أن يبلغَا أشدَّهما ويستخرجا كنزهما ﴾ (الكهف : ٨٢) ، ورعاية معنوية وهي الأهم والأولى ، وقد تكون الرعاية الأولى مساعدة للثانية ﴿ حتى إذا بلغَ أشدَّه وبلغَ أربعينَ سنةً قال ربِّ أوزِعْني أن أشكرَ نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحاً وأصلِحْ لي في ذريتي . . . ﴾ (الأحقاف : ١٥) .

ويلاحظ الاهتمام التربوي هنا بوجود عنصرين أساسيين: بلوغ الأشد والأقوى من القدرة العقلية والعمل الصالح (صلاح النفس والعمل) . وقريب منه دعاء زكريا عليه السلام بإنجاب الذرية الصالحة ﴿ هنالك دعَا زكريا ربَّه قال رب هبْ لي من لدنكَ ذريَّةً طيبةً إنكَ سميع الدعاء ﴾ (آل عمران : ٣٨) .
الذرية الطيبة ثمرة الوالدين الطيبين . فلابد من [illegible] بعضهما بعضاً ضمن معايير الصلاح عموما . صلاح للحياة الروحية [illegible] النفس وصلاح التربية سواء كانوا أحراراً أو إماءً وسواء [illegible] ، فالزواج الطيب البر قضية إسلامية للرجال والنساء [illegible] . من أن يعان الفقراء والأرقاء عليه ﴿ وانكحُوا الأيامَ [illegible] وإمائكم إن يكونُوا فقراءَ يغنِهمُ الله من فضله [illegible] الذين لايجدون نكاحاً حتى يُغنيهمُ الله من فضله [illegible] أيمانُكم فَكاتبوهُمْ إنْ علمتمْ فيهِمْ خيراً وآتوهُمْ [illegible] آتاكم . . . غفورٌ رحيم ﴾ (النور : ٣٢ ـ ٣٣) . فيزوج الفقراء والعبيد ، ويعان المكاتبون عليه بالمال الذي هو مال الله ، [illegible] امتهان العهر للرقيقات . . . إنهما آيتان جمع الله فيهما الخير والصلاح في أخطر قضية اجتماعية .

فأين هذا من معاملة الإقطاعي للفلاح والرقيق الذي لابد من أن يتمتع بزوجاتهم قبل أزواجهم مثلاً ؟

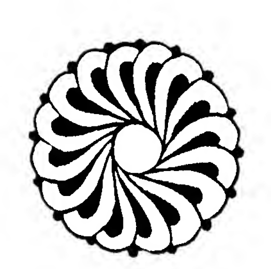
الزوجات الصالحات : وهن المستقيمات المطيعات الحافظات لغياب أزواجهن في أنفسهن وأموالهم ﴿ فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظات للغَيبِ بمَا حفظ الله . . . ﴾ (النساء : ٣٤) . ومنهن ترجى الذرية الصالحة التي يرجو الأنبياء والصالحون أن يرزقهم الله منهن ﴿ ربِّ هبْ لي من الصَّالحين . فبشرناهُ بغلامٍ حليم ﴾ (الصافات : ١٠١ ، ١٠٢) .

إنه دعاء إبراهيم عليه السلام ، فاستجاب له الله وبشره بإسحاق ﴿ بشرناهُ بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ (الصافات : ١١٢) ومن بعده يعقوب ﴿ وكُلًّا جعلنا من الصالحين ﴾ (الأنبياء : ٧٢) .

ولذا فلا بد أن يربي الأبوان بناتهما التربية الصالحة التي تؤهلهن في المستقبل لرعاية أسرهن والقيام بشئونها والحفاظ عليها . فأين هذا من موقف بعض العرب من ولادة الأنثى حيث يظل وجه واحدهم مسوداً كظيم الغضيب متوارياً من العار الذي لحق به من وجهة نظره الحمقاء ﴿ أيمسكهُ على هُون أم يدسُّه في الترابِ ألا ساءَ ما يَحكمون ﴾ (النحل : ٥٩) .

الإصلاح بين الزوجين المتخاصمين : والاختيار ضمن معايير الصلاح السابقة كفيل أن يحسم جلّ الخصومات الزوجية ، وإن وقع بعضها فلا يتفارقان وإنما يتصالحان ، وإن توقّعت الزوجة تجافياً من زوجها عنها وترفعاً عن صحبتها ، ومنعاً لحقوقها ، وإعراضاً عنها فلا ضرر من إقامة الصلح بالتنازل عن شيء من المطالب لكل منهما . فالصلح خير من الفرقة أو سوء العشرة أو الخصومة ، والرجل أولى بالمسامحة وأولى بالجود وحسن المعاشرة ، والمطلوب الإحسان ﴿ فلا جُنَاح عليهما أن يُصْلحا بينهما صلحاً والصلحُ خيرٌ واحضرتِ الأنفسُ الشحَّ وإن تُحِسنوا وتَتَّقوا فإن الله كانَ بما تعملون خبيراً ﴾ (النساء: ١٢٨). فقد جمع الله في آية واحدة الاصلاح ، والصلح ، والإحسان ، والخير ، والتقوى ، فما أكرمه من رباط مقدس وأبره من زواج يكون الصلح والصلاح فيه الأساس والعلاقات .

مصير واحد للأسرة الصالحة : إنه مصير الآباء والأزواج والذرية الصالحين عند الله تعالى فهي ﴿ ذُرِّيَّة بعضُها من بعض ﴾ (آل عمران : ٣٤) وأي تكريم أعذب من أن يجمع الله الأسرة الطيبة عنده في جنات عدن ، وتحييهم الملائكة من كل باب ﴿ جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ومَنْ صلَح من آبائهمْ وأزواجِهمْ وذرياتِهمْ والملائكةُ يدخلونَ عليهمْ من كلِّ باب . سلامٌ عليكم بما صبرتُمْ فنعمَ عُقْبى الدار ﴾ (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) وفي هذا المصير المشترك يلهم أنه محصلة لثلاثة أعمال هامة: الاشتراك في الصلاح ، والتربية التي ساهم فيها الأبوان ، والتربية الناجحة التي تحتاج إلى صبر وحكمة . وهو النعيم المادي والمعنوي المشترك الذي تقرّ به العيون وتثلج له الصدور . والملائكة لا تقوم بالترحيب والتحية وإشاعة السلام بهم وحده وإنما يدعون لهم دنيا وآخرة ﴿ ربَّنا وأدخلهمْ جناتِ عدنٍ التي وعدتَّهم ومَنْ صلَح من آبائِهمْ وأزواجِهمْ وذرياتِهمْ إنكَ أنت العزيزُ الحكيم ﴾ (غافر : ٨) إنها خير في الأرض وصلاح في السماء وعاقبة طيبة في الآخرة . فهل ترجو أسرة أو تحلم بمثل هذه الخيرات ؟ وهل يتم تواصل في صلاح البيت المسلم في الدنيا والآخرة مثل التواصل الحضاري الرحب الشامل ؟



مسئولية المجتمع المسلم والخير

هو مجتمع الأمة الواحدة ، وليس مجتمع العشيرة والقبيلة أو المجتمع القبلي العشائري وإنما يستوعب (قبائل) شتى ، وليس مجتمع شعب واحد أو المجتمع الشعبي وإنما يتسع (شعوباً) عديدة كما صرح القرآن . ولا يصنف ضمن مجتمع ديني يزهد بالحياة ويعزف عن الحظوظ الدنيوية أو مادي تطغى فيه الماديات ، ولا تجمُّع الحكمة العقلية الذي يجعل الفلسفة الإله الأعظم ، وإنما هو أمة الخير والصلاح والهدى والدعوة والدين والدنيا . إنه لا يحد بأرض واحدة ولا قوم معينين ولا لسان خاص وإنما هم المسلمون الذين يقطنون أوطانهم على مختلف أقوامهم ولغاتهم ، تجمعهم عقيدة واحدة هي ثقافتهم وتاريخهم وقيمهم وحضارتهم بلسان عربي مبين . وإذا قلنا أنها أمة الخير والصلاح والهدى . . . فلا تعني شموليات هوائية وعموميات فارعة وإنما تشمل الخيرات والحسنات والمبرات والطيبات جميعها ما عرف منها وما لم يعرف ، وما صلح فيها وما سيعلم صلاحه .

في الجانب المهيض من المجتمع : فالمجتمع مسئول عن اليتامى وتثمير أموالهم ، وأوصياؤهم ـ وهم فئة من المجتمع ـ راغبون في رعايتهم ورعاية ممتلكاتهم ، وقد عبر عنه القرآن بـ (الإصلاح) فقال : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تُخالطوهمْ فإخوانكمْ والله يعلمُ المفسدَ من المصلحِ ولو شاء الله لأعنتكمْ إن الله عزيزٌ حكيم ﴾ (البقرة :٢٢٠) فالآية ترغب في (الإصلاح) وهذا يتحقق في مخالطتهم وهو خير من الابتعاد عنهم وتركهم فرائس سائغة للمفسدين ، وإنهم إخوانهم ومن حق الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع . فإن ضعفهم يصير قوة فعالة لا يستغنى عنها .

وكذلك فمن مسئولية السادة مساعدة أرقائهم ومكاتبتهم كما سبقت الإشارة ، وحين يتحررون بالعتق الخالص أو المكاتبة المالية فإن إكسابهم الحرية

وتمتعهم بها فيما بعد لا يعدله قوة في مقابل رقّهم وعبوديتهم ﴿ فكاتبوهُمْ إن علمتم فيهم خيراً وآتوهمْ من مالِ الذي آتاكم ﴾ (النور : ٣٣) . وهكذا تصرف الزكوات عليهم لنيل حرياتهم حين يفتقر الفقراء والمساكين ومثلهم إعطاء المحاويج أقرباء وأباعد تكافلاً معهم وسداً لحاجتهم وتقوية لضعفهم ﴿ فآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ (الروم : ٣٨) .

إن لهم (حقاً) عند الأغنياء وفي أموالهم وهو حق تطالب به الدولة إن كان زكاة فريضة ، ويدعو له العلماء ترغيباً إن كان صدقة وتطوعاً ، فبالمال يمكن للمحاويج القادرين أن يعملوا ويربحوا من عملهم ويكونوا مثل إخوانهم في مجتمع واحد ، يقوّي بعضهم بعضاً .

الكلمة الطيبة مسئولية : فهي أحياناً أفضل من الصدقة المبتورة ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتْبعها أذى ﴾ (البقرة : ٢٦٣) إنها من كرامة الإنسان وحقه وإن كان فقيراً ، وإعلاء لإنسانيته وإن كان ضعيفاً فليس من أدب العطاء المن والأذى فإن هذا ليس من شيم المؤمنين .

ويطلب القرآن ذلك من المنافقين ، فإن صدقهم في الأقوال والأفعال والأحوال واستجابتهم للمسئوليات الإسلامية الجهادية صلاح لهم ولمجتمعهم الذي يمكنه أن يعفو عنهم إلى حين ﴿ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عزمَ الأمرُ فلو صَدقُوا الله لكانَ خيراً لهمْ ﴾ (محمد : ٢١) . فليس كل قول خيراً ولا كل كلام حسناً ، وإنما هو الصدق فيه وقول المعروف وطاعة أولي الأمر الصادقين .

ومن أولى الكلمة الطيبة تحية المسلم لأخيه بالسلام ، فهي تحية منه وإليه ، وسلام من نفسه إلى نفسه ﴿ فسلِّموا على أنفسِكمْ تحيةً من عندِ الله مباركةً طيبةً ﴾ (النور : ٦١) . وهي تحية ربانية باركها الله وطيّبها ، وبارك صاحبها وطيب أهلها . ولذا فإنها ترد بالأحسن أو المكافىء والنظير ﴿ وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو ردُّوها إن الله كان على شيءٍ حَسيباً ﴾ (النساء : ٨٦) ففي التحية جمال الأدب وأدب الجمال ، وفي ردها بالأحسن والجمال مقابلة الكلمة

الطيبة بمثلها أو بأحسن منها ، وإن (الحسن) و(الأحسن) رداء التحية الإسلامية على النفس والآخرين .

المؤازرة بين المسلمين مسئولية : فلا يتساوى مسيء ومصلح ، ولا يتساوى عمل سيء وآخر صالح ، فكل تصرف مسئول ، وكل عمل مجازى به ﴿ أم حسِبَ الذين اجترحُوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ سواءً محياهُمْ ومماتُهم ساءَ ما يَحكمُون ﴾ (الجاثية : ٢١) .

فالمؤمنون يؤازرون إخوانهم في عمل الصلاح بدافع إيمانهم والمفسدون يهدمون أركان مجتمعهم بعامل الفساد فكيف يتساوون ؟

وهل أظلم من حكم يساوي بين الصالح العامل للصالحات وبين السيء العامل للسيئات ؟

والمؤازرة بين المسلمين من ضرورات الحياة الاجتماعية فإن التقاطع بينهم والتدابر والخذلان فيهم يفسد أحوالهم ﴿ إلّا تفعلُوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾ (الأنفال : ٧٣) فهو بلاء ومعصية كبيرة وبخاصة حين لا يتواصل المسلمون بالمال والجاه والخدمات وإنما يكتفون بالأقوال والمجاملات .

ومن ذلك الشفاعة في الخير : وهي التوسط بالقول في وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية ، أو خلاصه من مضرة ما ، كما قاله أبو السعود في قوله : ﴿ من يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ لهُ نصيبٌ منها ومَن يشفعْ شفاعةً سيئةً يكنْ له كِفْلٌ منها وكان الله على كل شيءٍ مُقيتاً ﴾ (النساء : ٨٥) . والحسنة كما قال : الأمر المشروع روعي بها حق مسلم ابتغاء وجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضاً من الأغراض الدنيوية . إنهما شفاعتان حسب المشفوع له والمشفوع من أجله : شفاعة حسنة وشفاعة سيئة . وللشافع نصيب منهما ، وكفى بالله حسيباً . والأصل أن يصل كل ذي حق إلى حقه في المجتمع المسلم من غير وساطة أو شفاعة ، فإذا كان لابد منها فلتكن في الأمر المشروع ولوجه الله ، وهذا يقوي التآزر بينهم . . . شفيعهم ومشفعهم .

وأعمها جميعاً الإحسان : فهو،بمعنى الاتقان يعاضد الآخرين ، وبمعنى الزيادة عن

الواجب في المعاملة والعطاء والعلاقات،يقوّي المجتمع ، وإن القرآن الكريم يكثر من آيات الإحسان ويصف المؤمنين به ويحض المقاطعين عليه . ففيه الخير والفضل والحسن ، وفي التعامل به بين المسلمين صون لهم من العبث والاستهتار ورفع لهم إلى مستويات حضارية راقية ، ومن ذلك ما نجده في سور (النساء : ١٢٥) و(لقمان : ٢٢) ، و(النحل : ١٢٨) و(الذاريات : ٦٢) ، ومعظم سور القرآن ، وصدق الله العظيم في الصيغة التبادلية الإحسانية العامة بقوله: ﴿ هلْ جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ﴾ (الرحمن : ٦٠) .

وراثة الأرض والتمكين فيها من أخطر المسئوليات : وهي تأتي منطقية وطبيعية في تدرجها من الإنسان الفرد والأسرة والمجتمع المسلم مثل ماكانت عليه سيرة الرسول ﷺ في فترة مديدة زادت على ١٣ سنة في مكة ومطلع الهجرة إلى المدينة .

فالمؤمن لا يخاف الظلم وهضم الحقوق : وإنه بما يستمد من قدرة الله وعلمه وحكمته يجاهد لنيل حقوقه العادلة ﴿ ومَن يعملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْماً ﴾ (طه : ١١٢) فحقه في الحكم والبيعة ، وحقه في البيان والنقد ، وحقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا ينقص منه شيء ولا يهضمه من الوصول إليه أحد كائناً من كان ولا يهاب مستبداً مادام مؤمناً صالحاً ، ويستطيع باحث أن يقول : إنه الحق السياسي نفسه القائم على الحق الاجتماعي الذي يمارسه من غير خوف ولا ظلم ، إذ كيف يهضم هذا الحق والله تعالى يوفيه ثوابه وجزاءه في الدنيا والآخرة فلا يبطل سعيه ويحصيه عليه ؟ ﴿ فمَنْ يعملْ من الصالحات وهو مؤمنٌ فلا كُفْرانَ لِسعْيِهِ وإنّا له كَاتبون ﴾ (الأنبياء : ٩٤) . فهو من أمة الحق والخير والصلاح في مجالات الحياة كلها .

ومن بلاغات القرآن القليلة وراثة الصالحين : وهم الصالحون في كل جيل وزمان يؤذن الله لهم بوراثة الأرض والحكم الصالح قديماً وحديثاً ومستقبلاً ، إنها سنة الله في خلقه وإن تعثرت أحياناً ﴿ ولقد كتبْنا في الزَّبور من بعدِ الذِّكر أنّ الأرض يرثُها عباديَ الصالحُون . إن في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين . وما أرسلناكَ

إلا رحمة لِلعالمين ﴾ (الأنبياء : ١٠٥ ـ ١٠٧) . قضية الإرث حاسمة قديمة كانت أو حديثة ، والوارثون هم العابدون ، والرسول رحمة الله للناس كافة .

ثلاث قضايا في إطار قضية كبرى من أخطر الميراث الحضاري ، أما الموروث فهو الله أصلاً ومصدراً وهو الموروث تشريعاً ومنهجاً فأكرم بالوارث والموروث والوراثة . وأمة لا يخاف أفرادها الظلم والهضم تستحق أن تتحمل المسئولية العظمى : وارثة الأرض كما سبق والاستخلاف والتمكين فيها كما سيأتي .

والوعد الناجز بالاستخلاف والتمكن : شهده المسلمون ويمكن أن يشهدوه ماداموا في عبودية حقيقية وكاملة لله تعالى وحده ، فهم يستحقون إنجاز هذا الوعد لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ وعدَ الله الذين آمنُوا منكمْ وعمِلوا الصالحاتِ لَيستخلفنَّهم في الأرضِ كما استخلفَ الذين من قبلِهِمْ ولَيمكننَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم ولَيبدلنَّهم من بعد خوفِهِمْ أمناً يَعبدونني لا يُشركون بي شيئاً ومن كفرَ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (النور : ٥٥) [١] .

أ ـ فهو وعد ناجز بين آيتين بين بلاغ مبين من الرسول في الآية السابقة (٥٤) وأمر المسلمين بطاعته وطاعة الله فهما طريق الهداية الحقة . وبين تفصيل جزئي لأهم الصالحات وهي الدوام على الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ في الآية اللاحقة .

ب ـ وهو وعد الله الذي لا يتخلف وسنته التي لا تتبدل ، أشار الله إليه بالماضي لتحققه ونسبه إليه ليطمئن المسلمون إلى إنجازه ، ولكنه يبقى (وعداً) لا يتحقق إلا بالفعل الإنساني والحال البشري الذي يتناسب مع وعد الله .

ج ـ وهو وعد الاستخلاف للمؤمنين الصالحين المواظبين على الإيمان

---

(١) كانت هذه الآية خاصة مجال بحث اجتماعي وسياسي لكثير من المفسرين والباحثين والمسلمين ، والخواطر هنا قد يتشابه بعضها بها من غير قصد وقد يضاف إليها أو يعدل فيها .

والصلاح ، أما الكافرون بعد الإيمان ، فهم الخارجون عن منهج الله تعالى فلا ينجز لهم وعد ولا يحقق لهم الاستخلاف والتمكين والأمان .

د ـ وهو وعد يتضمن معنى القسم الذي دل عليه باللام المكررة في الاستخلاف والتمكين والأمان ، وفيه تأكيد للشاكّين والمنكرين في قضية من أخطر قضايا الوجود الحضاري للمسلمين والخاص بهم (منكم) والمشترك مع أمة الرسل قبلهم .

هـ ـ وشرطا التمكّن : الإيمان وعمل الصالحات . والإيمان وإن كان في الأصل عقيدة راسخة في النفس فإنها تشمل الوجود كله ممثلاً بالسلوكيات المتلائمة معه ، والمتناسب مع وصف المؤمنين ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وتشمل النشاط البشري الصالح جميعه من الجائزات والواجبات والمندوبات وترك المكروهات والمحرمات أي فعل الطاعات وترك المنكرات .

فإن من يعمل صالحاً لا يقترف عملاً سيئاً ، وعلى هذا فلا يصح أي إيمان عقيدةً وتصوراً . وإنما لابد أن يكون على العقيدة الموحى بها من الله تعالى ، وليس كل عمل يرفع صاحبه إلى مراتب الصلاح والتقوى وإنما هو عمل الصالحات الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة من البر إلا ويشمله ويحيط به .

و ـ ونتائج الإيمان والعمل كثيرة في مفرداتها تشمل خير الدنيا والاخرة ، وصلاح العاجلة والآجلة وسعادة الدارين فهي تدخل في شمول الاستخلاف عن الله في عمارة الأرض بالخير المادي والمعنوي ، والتمكين الديني الذي ارتضاه لهم في الأرض والنفوس،باعتبار أن أصله يلتزمون به ويدعون إليه وينشرونه فكراً وحضارة . ومثله الأمن من غارات الأعداء لأنهم قوة الله في الأرض ، والأمن من غزو أفكارهم وقيمهم وثقافتهم لأنهم محصّنون ضدها واعُون لانحرافاتها ، والأمن من الظلم والعدوان فلا يهابون الظالمين ولا يخافون المعتدين .

ز ـ العبودية لله وحده : والعبودية الخالصة من شائبة الشرك والشهوة والهوى هي أعظم ثمرات الإيمان وأساس العمل الصالح وسياجه واستمراره فالإيمان عبودية وحرية ، إنه خضوع لسلطان الله وحده ، وتحرر من سلطان

الشرك والشهوة والظلم ، وعمل الصالحات تحقيق عملي ظاهر للعبودية الخالصة فلا يقبل واحد بديلاً عن غيره مهما ظهر نفعه وعظم أثره . وهكذا فالمسلمون ينشئون في حضارة الإيمان والعبودية لله ، الحضارة الخاضعة لمنهجه ، المستسلمة لحكمته ، الظاهرة بسلطانه وقدرته ، المهيمنة على حضارات البشر ، وهم مستمرون فيها قائمون عليها مادامت عبادتهم لله محررة من أية عبودية أخرى ، إن الله خلقهم ووفقهم للاستخلاف والتمكن والأمن ليعبدوه دائماً ويطيعوه أبداً وليس في فترة الرخاء أو الشدة والسراء أو الضرار فلا ينقطعون عنه ولا يتغيرون .

ح ـ الكفر فسوق وضلال : والكافرون المستمرون على كفرهم سواء كانوا مصرّين عليه بعد معرفة دلائل التوحيد والنبوة ، أو ارتدوا بعد إيمانهم فأولئك هم الضالون المستكملون للضلالة والفسق فلا يستحقون حضارته ولا ينتفعون بها ولا ينفعون غيرهم منها سوى ما يتعلق بمصالحهم فقد خرجوا عن الحدود الإيمانية فضلوا وأضلوا .

يقول أبو السعود : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، (كما استخلف الذين من قبلهم) هم بنو إسرائيل استخلفهم الله عز وجل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبابرة ؟! أو هم ومن قبلهم من الأمم المؤمنة (وليمكنن لهم دينهم) ليجعلن دينهم ثابتاً مقرراً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون (يعبدونني) لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد (ومن كفر) اتصف بالكفر بعد ذلك الوعد الكريم (فأولئك) البعداء عن الحق التائهون في تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان .

وبعد أن يربط الرازي الآية بما قبلها وما بعدها يستنتج مسائل منها : علم الله بالأشياء قبل وقوعها ، وقدرته على جميع الممكنات ، وأنه المستحق للعبادة ، وتنزيهه عن الشريك ، وصحة نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام . . .

إنها من أعظم الآيات القرآنية التي يزيد التعمق فيها أعظم العطاء وأكرمه

مثل ما أنها تنبه إلى أخطر مسئوليات المسلمين في المجالات الحضارية فكراً وعملاً وسيادة .

في مسئولية الأجير والخير : وتتعاظم مسئولية الأجير في العمل الخاص والعمل العام والقيام بشئون الأمة بحسب خطورتها وموقعها وآثارها ، ولذا فلابد من أن يتصف بالصفات التي تؤهله للنجاح فيها وتحقيق أهدافها ، فقد وصف الأجير في القرآن بالقوة والأمانة والقدرة على العمل وصلاحيته له ﴿ إن خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين ﴾ (القصص : ٢٦) فلا خير في قوة من غير أمانة ، ولا جدوى من أمانة من غير قوة . وتتضح هذه الصفات في قول شعيب لموسى عليهما السلام : ﴿ أني أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتيَّ هاتينِ على أن تأجرني ثمانيَ حِجَجٍ فإن أتممتَ عشراً فمن عندك وما أريدُ أن أشقَّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ (القصص : ٢٨) وتظهر الآية أن من أدب المستأجر إكرام أجيره ، وعرض خدماته بما يليق بهذه الكرامة ، وعدم مشقته بعمله . . .

شهادة ملكية مجربة : فالفساد من أعمال الملوك الخارجين على طاعة الله المستبدين بأحوال بلادهم وشعوبهم ﴿ إن الملوكَ إذا دخلُوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزةَ أهلِها أذلةً وكذلك يفعلون ﴾ (النمل : ٣٤) .

وعلى الرغم من أن (بلقيس) لم يكن يعرف عنها الفساد مثل غيرها، وأن بعض (التبابعة) عرفوا بعدلهم وأعمالهم وبسيرهم الصالحة وحضارتهم المشهورة فإن فسادهم الديني وأحياناً ألوهيتهم المفتعلة وتشريعهم الوضعي ينأى بهم عن الحق وإقامة الخير .

صفات واهمة للملوك المتألهين مثل فرعون الذي كان يستعلي بعظمة ملكه وبقاء حضارته مدعياً أنها تخلده وتدفع به إلى الربوبية العليا ، وتحقره بالنبوة التي طلع بها موسى وهارون عليهما السلام ﴿ ونادى فرعونُ في قومِهُ قالَ يا قومِ أليسَ لي ملكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يُبين ﴾ (الزخرف : ٥١ ، ٥٢) . يقول ابن صمادح : أفلا تبصرون ما أنا فيه من النعيم والملك ، وما في موسى من الفقر وعي اللسان ، بل

أنا خير مما وصفت به نفسي من الملك والبيان من هذا الذي لا شيء له من الملك والمال ، ولا يكاد يبين في كلامه من الآفة التي بلسانه .

وبطانة السوء : تهوّن على فرعون وأمثاله الفساد والشرور والاعتداء على البراء حتى الأطفال ، والقهر الغاشم لعامة الشعب ﴿ وقال الملأُ من قوم فرعون أتذرُ موسى وقومَه ليفسدوا في الأرض ويذرَك وآلهتَك ، قال سنقتِّل أبناءَهم ونَستحيي نساءَهم وإنا فوقَهم قَاهرون ﴾ (الأعراف : ١٢٧) ثم يهدد موسى عليه السلام بالقتل مستعلياً مستخفّاً بالله ، بدعوى أنه يتخوف أن يبدل دينهم ويفسد في الأرض ﴿ وقال فرعونُ ذروني أقتلْ موسى ولْيدعُ ربه إني أخاف أن يُبَدِّل دينكم أو أن يظهرَ في الأرض الفسادَ ﴾ (غافر : ٢٦) .

الحكم الصالح يميز بين الناس حسب أعمالهم : فلا يقرب منه الطغاة والكبراء ويبعد عنه العلماء والصالحين ، إنه معهم في العمران ، وإمامهم في الخيرات يكافىء محسنهم ويعاقب مسيئهم فقديماً أعطى القرآن نماذج ،منها ذو القرنين المعلن ﴿ وأما مَنْ آمن وعمل صالحاً فلهُ جزاءً الحُسْنى وسنقولُ له من أمرنا يُسْرا ﴾ (الكهف : ٨٨) فله الجزاء الحسن والقول اليسر مادام مؤمناً يعمل الصالحات . وبمثل هذا النموذج يورثه الله الأرض فهو أحق بحكمها وأولى بالاستخلاف عليها ﴿ إن الأرضَ لله يُورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده ﴾ (الأعراف : ١٢٨) .

إن القرآن يذكرنا بأصناف من الأجراء وألوان من الأعمال ، وكل منهم مسئول عن رعيته وعمله ، في قصص الأنبياء والحكام والمسئولين ، ولذا فإن الحكم غرم قبل أن يكون غنماً ، ومسئولية قبل أن يكون كسباًومصلحة ،والحاكم العادل يعتز بخدمة المسلمين ورعاية أمورهم ، وهو مسئول عما يفعل في الدنيا والآخرة ويجازى على ذلك ، وكفاه خيراً أنه في مقدمة الفئات الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فهو الأحق بالإمارة والمسئولية يستعين ببطانة الخير ، ويسمع للنقد الباني ويعدل في رعيته ويصلح شئونهم فهو إمامهم في الدنيا والآخرة .

في بدائل الخير وعائداته

إذا كان الخير قيمة ثابتة وفضيلة راسخة فلا يتبدل جوهرها ولا يتغير رسوخها وإذا كان تطويرها وليس تبديلها إلى الكمال والأكمل فإن صحة هذا يعود إلى صحة الأصل والأساس الخيري القيمي ، وإن تبديل الشر بالخير ، والإثم بالبر ، والفساد بالصلاح ، والضلالة بالهدى يدل على انحراف الفطر وطغيان المادية وانجراف خطير في التيارات الفاسدة .

والمشكلة هنا مزدوجة : عدم قناعة المبدل بصحة التبديل مع إقدامه عليه ، وعبودية المبدل لتبديل الباطل أو الأدنى من غير أن تطمح نفسه إلى مجالات السمو والعلاء .

ومادامت هذه المشكلة تسيطر على إنسان فإن خللاً في فكره ، وانحرافاً في فطرته تجعله يستمرىء الأحط من الأشياء والأعمال ، وهذا يعني أن مرضاً نفسياً ذاتياً يتحكم في حياته ويصور له الأمور مشوهة من خلال تصوراته الواهية المريضة .

ومن البدائل العجيبة :

الأدنى والخير : وبالتفصيل فالإنسان السليم يتطلع دوماً إلى الأعلى ـ الخير ـ ولا يهبط بمستواه إلى الأدنى ـ الشر ، إلا إذا اضطر إلى ذلك . وحين يقدّم مرشد دليلاً على الخير ـ الأعلى فإن المفروض من الإنسان الهابط أن يستدرك حاله فيرتفع ويسمو ، فكيف إذا كان المرشد ربه أو نبيّه يهديه إلى الخير ويرفعه إليه . وحين يرفضه فإن ذلك أمارة على مرض نفسي استحوذ عليه ،مثل بني إسرائيل حين أرسل لهم الطعام الطيب الحلال وأرادوا أن يستبدلوا به الفوم والعدس والبصل والبقول . فاعترضوا على نوعية الطعام ، فما بالك بالقيم والمثل العليا ، ثم قال لهم نبيهم : ﴿ أَتَسْتَبدِلون الذي هو أدْنى بالذي هو خيرٌ . . . ﴾ (البقرة : ٦١)

والأسلوب انكاري لأولئك الذين انحرفت فطرهم عن الخير ورضوا بالأدنى من الحياة . ومثل هذا الانحراف قد يستدل عليه من الأمور العادية والأحوال الطبيعية ومعايش القوم . وهذا يعني أن الخير مادياً كان أو معنوياً يحتاج إلى هاد يهدي إليه ، ومرشد يدل على منافعه وخصائصه .

شراء العهود : وكذلك فإن البيع والشراء المعروفيين بالتبادل فإن اليهود كانوا يظنون أن مثلهما قد يصلحان في شراء العهود لينقضوها ، وبيع الوحي ليغنوا به ، مهما كان الثمن أو العوض قليلاً ﴿ ولا تشترُوا بعهدِ الله ثمناً قليلاً إنما عندَ الله هو خيرٌ لكم إن كنتمْ تعلمُون ﴾ (النحل : ٩٥) .

والآية توضح أن قيمة المال عرضية وليست جوهرية أو أساسية بحيث يصير هدفاً للإنسان يتخذله وسائله المشروعة وغير المشروعة ، كما توضح ضيق الأفق في النظر إلى المال كغاية في الحياة الدنيا وحدها وما يصيبه فيها من الأموال والعائدات واللذائذ ، ولو أنه فكر بسعة وتدبر وعمق لوجد أن الأجر والرحمة والرضوان و(ماعند الله) أفضل من الثمن القليل والكثير، وتنبه فاصلة الآية إلى سعة العلم الذي يمتد من الدنيا إلى الآخرة ومردوده الأكثر والأحسن .

التزيين المرفوض : الخير خير والشر شر ولا ينقلب أحدهما إلى الآخر حتى وإن قدم بأبهى الحلل والتزيين ، وهذا لا ينطبق حقيقة على الخير فإن الإنسان يدركه على طبيعته خيراً ولا داعي لتزيينه وترويجه إلا عند المؤلفة قلوبهم ، وهو ما يحدث في معظم الأوقات والأحوال ، فإن طبيعة الخير وجوهره تفرض خيريتها وفضلها من ذاتية القيمة وأصلها . أما الشر فإنه يتعثر أو يتحجر فلا يقبله العقلاء ولا يرضى به الشرفاء بسبب طبيعته التي تتعارض مع العقل والفطرة وذاتيته التي ينفر منها الناس على مختلف أعراقهم وبيئاتهم ، والذي يحدث دائماً أنه حين يقدم الشر هكذا مجرداً ، وتطرح الرذيلة خالية ، فإن ردود الفعل سريعة في رفضها والإعراض عنها ، وإنما تقدم ضمن (مؤثرات) تزيينية تخدع الأبصار والقلوب ، وتقر بها النفوس البريئة الساذجة . فإذا بالإنسان يسقط في أوحالها ويعيش في أوكارها ، وأحياناً يعجب فتزين له أهواؤه ومؤثراته أنه طيب صالح ، فيراه حسناً

وخيراً وعندئذ يقع في خطئين : خطأ تصوري وخطأ واقعي اجتماعي مما يبعده عن صلاته الاجتماعية الحسنة بالآخرين ويجعله مغتراً بالسوء قبل أن يعمل بالطيب ، وبالشر قبل الخير ﴿ أفمَن زُيِّن له سوءُ عملهِ فرآه حسناً فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي مَن يشاء فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ إن الله عليمٌ بما يصنعون ﴾ (فاطر : ٨) .

إنها رؤية سراب وخداع مرفوضة مهما تلونت بمعسول البيان وجمالية الزينة والحسن . وإن المغرور بها لا يحزن له ولا يغتم من أجله .

الخير والشر وحكمه الله : فمن أحب شيئاً وأفرط في حبه فقد يندم عليه فيما بعد وبخاصة حين يظهر له من الشر ما يكرهه فيه ، ومن كره شيئاً وبالغ في كراهيته فقد يتحسر عليه يوماً حين يظهر له من الخير ما يحبه فيه . وهذا لا يعني أن الخير قد يصبح شراً مكروهاً ، وأن الشر قد يصبح خيراً محبوباً وإنما يعني عجز الإنسان عن تلمس الحكم الإلهية في الكون والإنسان عبر المستقبل القريب والبعيد ، وربما تبين له خطأ حساباته بأمور فاقت التقدير والتخطيط ﴿ وعسى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ﴾ (البقرة : ٢٦١) ، وفي المقابل ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . فكراهية الإنسان لشيء لا تعني أنه شر ، وحبه له لا يعني أنه خير ، وإن الخير والشر لا يقاسان بحب المرء وكراهيته كما لا يقاسان بحكمة الإنسان وتصرفه [1] .

ومادام الابتلاء واقعاً في الخير والشر ﴿ ونبلُوكم بالشرِ والخير فتنةً ﴾ (الأنبياء : ٣٥) فإن من صور الاختبار وقوع النتائج غير المتوقعة ، ووجود المسببات غير المرضية ، فالنواميس الإلهية رحبة المدى بعيدة الآفاق وعلم الله غير محدود وقد يحيط الإنسان بشي منه فتقع النتائج وفق مقدماتها ، والمسببات وفق أسبابها ، أما بعضها المخالف فإن حكمة إلهية مجهولة تنبهه إلى وقائع ونتائج غير متوقعة ولا مستنتجة ومثل هذه ليست مسائل رياضية وقوانين مادية ، أو على الأقل تبدو لنا هكذا من منطلق عجزنا ومحدودية قدرتنا وعلمنا وحكمتنا ، وهذا

---

(١) تقدم الموضوع بتفصيل .

فرق بين علم الخالق وحكمته وقدرته وبين المخلوق .ولكن حين يفتح الله للإنسان المغاليق ويكشف له المجاهيل ويريه من العلوم الاجتماعية والكونية ما يقدره على أن تكون توقعاته وقائع ونتائجه المحتملة ثابتة فإن تصورات كثيرة تتبدل وأحوالاً اجتماعية تتغير ومفاهيم قديمة تتجدد وعندئذ تقترب أفهامنا من أمثال قوله : ﴿ ولا يُحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شَاء ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ومع هذا فتبقى حكمة الله شاملة بالغة وعلمه واسعاً كلياً في الغيب والشهادة ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَن نشاء وفوقَ كل ذي علم عليمٌ ﴾ (يوسف : ٧٦) .

الوالدية وحكمة الله : وهي صورة قرآنية من صور الحكمة الإلهية في الخير والشر غير المتوقع ، فقد كان الغلام (جيسور) ظريفاً وحيداً لوالديه وكان أبواه مؤمنين وأطلع الله (الخضر) على مستقبل الغلام أنه سيكون كافراً وسيفتن والديه وخشي أن يرهقهما طغياناً وكفراً فقتله بأمر من الله وليس منه ، وحين اعترض عليه موسى عليهما السلام قائلاً : ﴿ أقتلتَ نفساً زَكيَّة بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكْراً ﴾ ﴿ قالَ ألم أقلْ لك إنكَ لن تستطيعَ معي صَبْراً ﴾ (الكهف : ٧٤ ، ٧٥) ثم فسّر تصرفه بالحكمة الإلهية التي وجدها الأبوان فيه مستسلمين راضيين فأبدلهما الله به ولادة (جارية) ولدت له عدة أنبياء فهدى الله بهم أمماً ، وقيل عدة من جاء من ولدها من الأنبياء سبعون ﴿ وأما الغلامُ فكان أبواهُ مؤمنينِ فخشينا أن يُرْهقهما طُغياناً وكُفراً فأردنا أن يُبْدلهما ربُّهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً ﴾ (الكهف : ٨٠ ، ٨١) وفي رواية سفيان وغيره : أن الغلام طبع يوم طبع على الكفر وخيف أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه مع حبهما الشديد له فأمر الخضر بقتله وهكذا كان . . . يقول ابن حجر [1] : فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممّن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك ، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه ، ونقل عن ابن بطال : قول الخضر وأما الغلام فكان كافراً ، هو باعتبار ما يئول إليه أمره لو عاش حتى يبلغ ، واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله ، ولله أن يحكم في خلقه ما يشاء قبل

---

(١) فتح الباري : ٨ / ٤١١ وما بعد حديث (٤٧٢٦) ، والأقوال مأخوذة من شرحه .

البلوغ وبعده . والمهم أن ولادة الجارية كبديل من مستقبل الغيب مثل قتل الغلام ذي النفس الزكية ، وفيه من الحكمة الربانية حماية الوالدين من الافتتان بدينه وتحصينهم من الكفر وتعويضهما بولادة الأنبياء الذين هدى الله بهم جماعات . وسوق هذه القصة الغريبة علينا من أجل أن ننتبه إلى حكمة الله التي لا تعرف الحدود ولا القيود ، فنؤمن بها كما وردت ، ونقر بأحداثها كما جاءت وليس لنا تمثيلها ولا تنظيرها فلنا ظاهر الأمور والله يتولى سرائرها ودقائقها .

في عائدات الخير :

في التفكير الإسلامي تربويات هادفة تتعلق بالجزاء كجانب لإصلاح الفرد والجماعة ، وفي مقدمتها أهداف مادية ومعنوية متمثلة في دخول الجنة والتمتع بنعيمها الدائم ، والسعادة الوارفة بظلالها الروحية والتلذذ برضوان الله ورؤيته ، وبالمقابل : الاستجارة من العذاب الاخروي المادي والمعنوي أيضاً ، ويتمثلان في دخول النار والعذاب بجحميها المؤقت والدائم وسخط الله وغضبه . ولقد ثبت جدوى مثل هذه الوسائل التربوية لما تتوافق مع الفطر البشرية عموماً .

ومادام الخير كلياً وعاماً فإن عائداته الخاصة والكبرى يبرزها القرآن رجاء المؤمنين ومتطلباتهم ، وتخوف المخالفين من الشر وجزائه وعقوباته .

فالخير الذي يقدمه المسلمون في الدنيا لا يضيع شيء منه وهو مبدأ العدالة التي يفتقدها كثير من الناس في معاشهم ، فالعائدات النفعية في حالة الخير ، أو الضرّية في حالة الشر تعود إلى فاعلها والقائم بها ﴿ مَن عمل صالحاً فلنفسهِ ومن أساءَ فعليها ﴾ (فصلت : ٤٦) ومثلها (الجاثية : ١٥) وكذلك اتقان العمل أو الإساءة إليه ﴿ إن أحسنْتُم أحسنتم لأنفسكمْ وإن أسأتم فلَها ﴾ (الإسراء : ٧) وحبائل المكر ووسائل الخديعة تحيق بأصحابها ﴿ استكباراً في الأرض ومكرَ السيء ولا يَحِيق المكرُ السيءُ إلا بأهله ﴾ (فاطر : ٤٣) ، وجمعت آية واحدة ثلاث فضائل في انفاق الخير فهو يعود إلى منفقه ، وينبغي أن يكون الإنفاق في سبيل الله ، وأنه سيجزى ثوابه من غير نقص ﴿ وما تُنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم وما تُنفقونَ إلا ابتغاءَ وجه الله وما تُنفقوا من خيرٍ يوفَّ إليكم وأنتم لاً تظلمون ﴾

(البقرة : ٢٧٢) .

والمسألة كما هو واضح وسبقت الإشارة إليها لا تقتصر على الإنفاق وإنما تشمل كل عمل صالح يدل على هداية الإنسان ورشده وبالمقابل يشمل الشر كل عمل آثم ضال ﴿ فمَن اهتدى فإنما يَهْتدي لنفسهِ ومن ضلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ﴾ (يونس : ١٠٨) ومثلها أو قريب منها في (الإسراء : ١٥) و(الزمر : ٤١) فإن في هذا التكرار المؤكد نفي للحكم العشائري أو الثأري أو العادات القبلية البالية وإعلان كرامة الإنسان في الدنيا والآخرة ومسئوليته تجاه عمله حتى ينال كل ذي حق حقه .

وأحياناً يصف القرآن الأشرار بأنهم المضيّعون الخاسرون الغابنون لأنفسهم حين يبتعدون عن رحمة الله ورعايته ﴿ أولئكَ الذين خَسِروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يَفْترون ﴾ (هود : ٢١) وصح أنهم خسروا شيئين هامين : فقد خسروا العمل الصالح وجزاءه وخسروا أنفسهم وأبعدوها عن رحمات الله وعفوه .

وهذا يشعر باطمئنان النفوس ورضاها عن أعمالها وأعمال غيرها وعلاقاتها بالآخرين وعلاقات الآخرين بها إلى جانب ما تربي الأفراد والجماعة التربية الاجتماعية التي هي أساس البناء الحضاري الإسلامي .

ومثله ما مر معنا من عائدات الإنفاق الخيرة والبخل الشريرة ونتائجهما الدنيوية والآخروية فهي العلاج والفوز في الأولى والخسران والبوار في الثانية .

وحين تتضاعف العائدات الإنسانية الخيرة عند الله ويكرم عباده بواسع عطائه وجزيل إحسانه فإذا بالحسنة الواحدة ينالها أضعافاً مضاعفة ، والعمل الصغير يكبر عند الله ويغمر صاحبه بخيره النامي ، فإن دوافع التشجيع النفسية تقوى وتعظم حتى تصيرها سلوكاً فاضلاً وأعمالاً طيبة ﴿ وما تقدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً ، وأعظمَ أجراً ﴾ (المزمل : ٢٠) وإن استغراق أعمال الخير لصالح الأنفس في الدنيا لا يضعف من قيمة عائداتها ولا يقلل من منافعها مهما كثرت وتنوعت ، وعلى العكس فإنها مجزية وعظيمة تتناسب مع المعطي العظيم أكرم الأكرمين .

الآيات الجامعات

مسرد وتصنيف ودراسة

إن نسَباً (معنوياً) فكرياً وقيمياً أو نسباً (لفظياً معنوياً) يصل الحق بالخير ، والخير بالحق مثل ما يربط الخير بالخير ، والخير بالجمال ، ويصل هذا وذاك بالسعادة التي هي غاية الحق والخير والجمال ، وهو وإن لم يكن نسباً كاملاً وكلياً فإن نسبتها إلى بعضها صريحة وواضحة لا يماري فيها أحد .

ففي الحق خير وإلا لما كان حقاً ، إذ لا حق يخلو من خير جلي معاين أو خفي يحتاج إلى تأمل ونظر ، وفي الخير حق وإلا لما كان خيراً ، إذ لا خير يتجرد من حق صريح أو مستتر يحتاج إلى كشف وبحث . ولكنهما ليسا مترادفين ولا متناظرين فلكل مضمونه ومجالاته ونماذجه تتماثل أو تتقارب مع الآخر .

وحين يجمع القرآن لمسألة أو قضية واحدة الخير والحق أو العكس وأحياناً في ألفاظ متقاربة ويصيغها في أطر جمالية :

١ ـ فإن الأفهام والمشاعر والقيم تشترك جميعها في عمق إدراكي للوصول إلى معرفة المعنى المراد في أبعاده الثلاثة العريضة .

٢ ـ والآيات الجامعات للحق والخير ، والآيات الجامعات للخير ومرادفاته ، والآيات الجامعات للخير والشر تثير في الباحث آفاقاً متنوعة ووحدة في وقت واحد .

٣ ـ وتزيد من الإلهامات القرآنية مدى الطاقات البشرية وعبر القرون والأجيال .

٤ ـ وتؤكد على اهتمام القرآن بالأبعاد الحضارية من خلال (المجاميع) الحضارية الكبرى كالحق والخير والجمال والعمل والعلم . . .

أولاً ـ آيات جامعة بين الحق والخير :

وجلّها في إطار العقيدة وأهلها بحيث تنمي التنبه إلى مسائلها الخطيرة ذات الآثار العميقة في الوجود .

الله الحق وهو خير الفاصلين : فالعقيدة الإسلامية واضحة الأركان مرتبطة بالحق الإلهي معلنة تكذيب المشركين في مواقف بشرية مزرية ، وبينما يقف الأنبياء بوضوح وبينة من العقيدة الإلهية فإن المطلوب من الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يعلن ابتعاده عن الشرك واتباع أهواء المشركين حتى لا يضل كما ضلوا ويقيم ذلك كله على حجة دامغة ﴿ قل إني على بيِّنةٍ من ربِّي وكذبتمْ به ماعندي ما تستعجلونَ بهِ إن الحكمُ إلا لله يقُصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين ﴾ (الأنعام : ٥٧) . فوضوح البرهان بالقرآن على تكذيبهم ، واستعجالهم العذاب ، وحاكمية الله وحده وقضاؤه الفاصل الخير بين الحق والباطل أركان في عقيدة الرسول المعلنة للناس .

الحكم الإلهي الحق وخير الفاتحين : إن تمييز المحق من المبطل لا يتم إلا بالمعايير الحقيقية وليس بالافتراء والتهديد والإغراء ، وثبات المحق على الحق قوة بشرية مستمدة من قوة الله والحق نفسه فلا يقع تكذيب المؤمنين من قوم شعيب بعد دخولهم في الدين ونجاتهم من الوثنية السابقة إنهم يمجدون الله ﴿ وسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ علماً على الله توكلنا ربَّنا افتحْ بيننا وبين قومِنا بالحق وأنت خيرُ الفاتحين ﴾ (الأعراف : ٨٩) [1] ويدعونه لأنه العليم الوكيل أن يحكم بينهم وبين قومهم بالحق وأن يظهر أمرهم عليهم فإنه خير الحاكمين . فثباتهم على الحق ،ووصفهم الله بسعةالعلم في كل شيء والتوكل عليه ، ودعاؤهم بظهور دينهم الحق ، ووصفهم أنه خير الحاكمين ، من أهم تصورات المؤمنين للعقيدة الربانية في كل عصر وجيل .

---

(١) وانظر قبلها آيتين صرحتا بالخير .

بيان الحق واعلانه وخير الآخرة :فلا ينبغي لأهل الحق أن يخفوه أو يكتموه فإن الله أخذ عليهم المواثيق ببيانه ومنهم بنو إسرائيل المتلاعبون بالتوراة يخفون منها ماليس من مصلحتهم إظهاره ويظهرون ما فيه مصلحتهم إظهاره وهم لا يكترثون بأمانة العلم وقول الحق ولا يفكرون بيوم الجزاء ﴿ ألَمْ يُؤخَذْ عليهمْ ميثاقُ الكتابِ ألّا يقولُوا على الله إلا الحقَّ ودرَسُوا ما فيه والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتّقون أفلا تَعقلون ﴾ (الأعراف : ١٦٩) . فاليهود المعاصرون للرسول خلْف سوء فقد ضيّعوا ميراثهم للتوراة وباعوا بعضه تحريفاً وطمعاً ، وغرتهم الأماني الكاذبة بغفران ذنوبهم ، وهم متلهفون إلى الاستزادة من أموال الرشا ، فلم تنفعهم دراستهم لكتاب الله بعد أن تلاعبوا بالحق إخفاءً وإظهاراً .

إن إثارة العقل لتبين الحق وإدراك الخير الأخروي ، والتمسك بوسائلهما من العمل الصالح ودراسة الكتاب المنزل وترك الأماني الكاذبة تربط الحق والعقل وخير الآخرة في الكشف عن الحقائق عامة والحقائق الدينية خاصة .

فواصل الألوهية والبشرية حق وخير : فالأنبياء المصطفون الأخيار لا يتبرؤون من بشريتهم ولا يقبلون من غيرهم أن يضعوهم فوق منزلتهم . ويبرءون إلى الله من دعوى الألوهية أو صفة فيها ، ومثل هذا الغلو لا يليق بجماعة أنزل عليهم كتاب الله ، وتبينوا مافيه ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ إنما المسيحُ عيسى بن مريَم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحد . . . ﴾ (النساء : ١٧١) .

ومثل اليهود السابقين فئات من النصارى المغالين المتجرئين على الحق بقول الباطل ، فعيسى عليه السلام رسول الله وكلمته النافذة وروح منه ، فليؤمنوا بالله ورسله ولينتهوا عن التثليث صراحة وتأويلاً . إن الحق الإلهي يقتضي الوحدانية وأن عيسى عليه السلام لا يحمل شيئاً من الألوهية ولا الابنية ، فالله مالك السماوات والأرض وما فيهن ، وأما البشرية والرسالة وصلة نبيه عيسى به صلة قدرة وخالقية وواحدية فهي مما لا ارتياب فيها لأنها حق وحقيقة .

الحق الإلهي وخير الحاكمين : وإذا كان الله مصدر الحق كالقرآن والإسلام فهو للناس قاطبة لأنه خالقهم جميعاً ، ومن الحق أن يترك لهم مجال الاختيار بين الهداية والضلال بينما يوجه رسوله محمد ﷺ إلى اتباع الوحي والعمل به والصبر على إيذاء قومه حتى يقضي الله فيهم ﴿ قل يا أيُّها الناسُ قد جاءكُم الحقُّ من ربِّكمْ فمَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يَضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتَّبعْ ما يوحَى إليك واصبرْ حتى يحكمَ الله وهو خيرُ الحاكمين ﴾ (يونس : ١٠٧ ، ١٠٨) .

فالمسلمون وعامة الناس مدعوّون إلى معرفة الحق الرباني والاهتداء به طوعاً واختياراً وليس لهم عذر في رفضه عناداً وجحوداً ، فإن منفعة هدايتهم لهم وضرر عنادهم عليهم والله يحكم فيهم وهو خير الحاكمين .

والرسالة المحمدية لا تمنع من توجيه الله نبيه إلى كمال الحق وتمام الخير ، وهي إذ تبين ثباته على الإيمان الصادق والاستقامة على دينه حنيفاً ، والاعتماد على الله كاشف الضر واهب الخير فإنها تحثه على دعوة جميع الناس إلى الحق ، وتأمرهم بالاهتداء إليه إن شاءوا ، متبرئاً من كفالتهم ووكالته عليهم ، معرضاً عن وقاحة بعضهم محتسباً صبره عليهم ، ملتزماً بوحي الله راضياً بحكمه وقضائه فهو خير الحاكمين ، وهكذا ينبغي أن يكون ورثة الأنبياء ودعاة الإسلام اتباعاً للحق وإيماناً بالله الحق وصبراً وجهاداً في سبيله .

الحق والخير ومجد المسلمين : فقد هيأ الله لهم رزقاً واسعاً ، فالله الحق خير الرازقين ، ورسوله الداعي إلى الحق لا يطلب منهم أجراً لأنه يعلم أن أجر الله أعظم وثوابه أجزل ، والحق لا يُرى من الرزق قلة وكثرة ، ولا يرتبط وحيداً بالعامل الاقتصادي وجوداً وعدماً ، كما لا يرتبط بالأهواء ثباتاً وتبديلاً ﴿ أمْ يقولونَ به جِنّةٌ بل جاءهمْ بالحقِّ وأكثرُهم للحق كارهُون . ولو اتَّبع الحقُّ أهواءَهم لفسدتِ السماواتُ والأرضُ ومن فيهنّ بلْ أتيناهُمْ بذِكْرهم فهم عن ذِكْرهم معرِضُون . أم تسألهمْ خَرْجاً فخَراجِ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين ﴾ (المؤمنون : ٧٠ ـ ٧٢) .

ثلاث آيات ذكر الله فيها الحق ثلاث مرات والخير مرتين في مسائل تتصل بالحق الثابت والخير الراسخ وشرف الرسالة المنزلة . وكل مسألة منها قضية خطيرة من قضايا الأديان والمذاهب القديمة والمعاصرة .

فمن يأتي بالحق وإن كثر كارهوه هل فيه مس من جنون ويتكلم بكلام لا معنى له ؟ وكيف تصلح السماوات والأرض وما فيهن من غير أن تقوم على الحق الثابت المنزه عن الأهواء ؟ وهل للمسلمين ذكر وعزة ورفعة إذا هم لم يلتزموا به ويحققونه في حياتهم ؟ ومتى ارتبط الحق بالأموال والأجور وهو خالق الأموال والأجور ؟ أليس ما عند الله الحق خير وأبقى وهو خير الرازقين ؟ .

إن مسألتي الذكر والرزق المرتبطين بالحق الثابت هما أرقى التصورات الدينية والفكرية والمصيرية ، فما أكرم المسلمين شرفاً ومجداً بصلتهم بالحق ، وما أعظمهم رزقاً وأوفرهم مالاً بارتباطهم بخير الرازقين .

الحق المنزل والعمل بالصالحات : ومن مرادفات الخير الصلاح والبر والحسن . . . كما سبق ، فالمؤمنون بالحق يعملون الصالحات مظهراً لإيمانهم الحق المنزل على الرسول ، والكافرون يتبعون الباطل ويعرضون عن الوحي المنزل ﴿ والذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ وآمنُوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهمْ كفَّر عنهم سيئاتِهم وأصلَح بالَهُم . ذلكَ بأنَّ الذين كفرُوا اتَّبعوا الباطلَ وأنّ الذين آمنوا اتبعُوا الحقَّ من ربِّهم كذلكُ يضربُ الله للنّاسِ أمثَالَهُمْ ﴾ (محمد : ٢ ، ٣) .

فالناس هنا صنفان : مؤمن ملتزم ، وكافر مبطل . فالمجتمع المؤمن بالحق المنزل من الله هو القائم بالصالحات التي تكفر عنهم سيئاتهم وتصلح أحوالهم وشئونهم ، والكافرون يصدون عن سبيل الله فيضلون وتحبط أعمالهم لأنهم يتبعون الباطل فلا تكفر ذنوبهم ولا تصلح أحوالهم وشئونهم . ومسألة الحق هنا مرتبطة بالسلوكيات والأعمال الصالحات الجامعة لخير الدارين ارتباطها بالنتائج التي يضعها الله لها وهي إصلاح أمور المسلمين وتحسين أوضاعهم ، فالحق صلاح وإصلاح والإيمان به والعمل له قاعدة للنهوض بالمسلمين ، والباطل هبوط

وإحباط والتمسك به يؤول إلى تخلفهم وضياعهم ، والأعمال الصالحات تقوي الحق وتجلو جوهره للناس ، والأعمال السيئة تدعم الباطل وتسلطه على الحق وأهله ولو إلى حين .

التواصي بالحق والعمل بالصالحات : وهو وعي اجتماعي إسلامي يلفّ أفراد المجتمع كلهم فلا يرضون بالشر ولا بالشرير ولا يحتضنون الباطل والمبطل ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإنهم لا يقتصرون على أن يكون كل منهم صالحاً في نفسه أو يعمل الصالحات له ولغيره وإنما لا بد من أن يوصي أخاه بالحق ويحمسه إليه كما يعينه على فعل الخير ويدلّه عليه ﴿ . . . إلّا الذين آمنُوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ﴾ (العصر) فالإيمان وعمل الصالحات أسس التواصي بالحق والصبر ، وهي مرتبة دينية واجتماعية لا يبلغها سوى المؤمنين الصالحين ، فلا يعرفها أو يمارسها الأنانيون أو من طغت عليهم الفردية مثل المجتمعات الغربية المتقدمة التي يزيدها الغنى والتقدم المادي فردية مستبدة في معظم الأحيان ، ولذا شاعت فيهم الانحرافات وضاعت من حياتهم القيم الخلقية وامتهنوا الحريات والجنس حتى أضحت فوضى وعبثاً واستهتاراً ، وكل واحد منهم يدور حول نفسه ويفتش عن مصلحته ويرعى منفعته من غير أن يهتم بصديقه وجاره حتى ولده .

وكان ذم القرآن لليهود من نواح متعددة ، وربما كان أظهرها من الناحية الاجتماعية أنهم كانوا لا يتناصحون فقد ﴿ كانُوا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه لبئسَ ما كانوا يفعلُون ﴾ (المائدة : ٧٩) ، وبالمقابل فإن المجتمعات الشيوعية تصهر الأفراد وتذيب الفردية في الأنانيات الطبقية والفرديات الحزبية ، هذا ما كان حالهم في السيطرة الفئوية وليست الاجتماعية ، وطغيان الطبقية وليست العمومية ، وإذا فشلت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فإن الفردية الرأسمالية تبعدهم عن التناصح وتصرفهم عن التواصي بالحق الخصوصية الاجتماعية الإسلامية ، وقد تتعاون عندهم العقول والأموال والسواعد في أعمال مشتركة ومصالح عامة ولكن ما أبعد هذه الأعمال والمصالح عن الحق والتواصي به والحث

عليه ، فهو نفوذ قائم على الاستغلال والمصالح الوطنية الصرفة ، أما التعاون على البر والتواصي بالحق فهو من غير شك من سمات المجتمع المسلم وحضارته .

الحق والفساد متعارضان : فإذا كان الشيء حقاً فهو صالح بلا ريب ، وإذا كان باطلاً فهو فاسد بلا ريب ، فالحق صلاح في جوهره والباطل فساد في طبيعته ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وكما لا يلتقي حق بباطل ولا خير بشر فإنه لا يصح في الأذهان والأعيان التقاء الحق بالفساد فيكون الشيء حقاً فاسداً أو فاسداً حقاً ﴿ . . . قال موسى ما جِئتُمْ به السحرُ إنّ الله سيُبطِلُه أن الله لا يُصلِحُ عملَ المفسدِين . ويحقُّ الله الحقَّ بكلماتِهِ ولو كرهَ المجرمُون ﴾ (يونس : ٨١ ، ٨٢) .

فالسحر أمثاله من الأباطيل ومن عمل المفسدين ويبقى كذلك ، فكيف يجعله الله صالحاً خيراً ؟ والنبوة والهدى من الحق ومن خصال الخير وعمل الصالحين المهديين ويبقى كذلك فكيف يصيرها الله فساداً وشراً ؟ يقول أبو السعود : ولا يصح أن يراد عدم إصلاح عملهم وعدم جعل فسادهم صلاحاً بل إنه يصح عدم إثباته وإتمامه أي لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويسلط عليه الدمار . . . وهو معنى جدير بالملاحظة والفهم ، ويرى الرازي أن إبطال الباطل هو إهلاكه وإظهار فضيحة صاحبه ، ومعنى إحقاق الحق : إظهاره وتقويته ، ومعنى بكلماته : بوعده موسى وقيل بما سبق من قضائه وقدره . . . وهو معنى ينبه إلى صفتي الحق بالظهور والباطل بالهلاك . وربما جاز المعنى السابق الذي يتناسب مع طبيعتي الحق والباطل ، فالحق ثابت وراسخ وخالد في الحقية فلا يتحول إلى باطل وفساد ، والباطل متغير ومتحول ومتقلب فلا يصير حقاً ولا خيراً ، لأن مصدر الحق هو الله فكيف يصدر منه الباطل ، ولأن الشيء لا يكون حقاً وباطلاً وخيراً وشراً في وقت واحد . وعلى هذا فلا يلتقيان ولا يتحدان .

إن هذه الآيات الجامعات التي تزدحم فيها المعاني الحضارية والقيم الاجتماعية من المنظورر القرآني ، تكسب الحضارة سمواً ورفعة بالالتزام بالحق والخير في مفهومها الشامل ومفرداتها التي لا تحصى .

ثانياً : آيات جامعة بين الخير والشر (مسرد المفردات) :

وهي إحدى الطرق المفضلة في أساليب القرآن التربوية وتشمل مسألتين متلازمتين : جمع المتقابلات ، ورصفها في موضعها تقديماً وتأخيراً ، فقد اهتم علماؤنا بها اهتماماً بلاغياً وتربوياً ، وكلها تجول في إطار الترغيب والترهيب لإبراز فضيلة الخير ومرادفه للعمل به والالتزام بمفرداته ، إلى جانب التنفير من الشر ومترادفه وأحواله وأعماله . وسبق معنا (في العواطف المتباينة) آيات (البقرة : ٢١٦) ، وفي (القيمة الجوهرية للخير) آيات مثل (آل عمران : ١٨٠) وهي ليست شواهد لمسائل قيمية معينة وحسب وإنما تعد نماذج إنسانية تتعمق في أغوار الطبيعة البشرية لتعالجها وتخلصها من مشكلاتها المزمنة والطارئة .

شر البرية وخيرها : فالناس صنفان : أخيار ، وأشرار ، وكل صنف أنواع يبلغ بعضها قمة الخيرية أو حضيض الشرية وسائرها يتدرج في مدارجها المتقاربة والمتباعدة . ﴿ إن الذين كفرُوا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ في نار جهنمَ خالدين فيها أولئك هم شرُّ البريِّة . إن الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحاتِ أولئك هم خيرُ البريِّة ﴾ (البيّنة : ٦ ، ٧) .

فالبيّنة ـ اسم السورة ، مثل القرآن والرسول ـ توضح الأمور وتبين الشريعة بالحجج الظاهرة والوحي الحق . والصنفان : الكفار من الكتابيين والمشركين خالدون في جهنم وهم شر الخلائق ، والمؤمنون الصالحون وهم خير البرية وجزاؤهم المادي والمعنوي في الآية الأخيرة من السورة . والخيرية بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات ، أما الشرية فهي بسبب شركهم ووثنيتهم وكفرهم بالنبوة المحمدية وبسبب أعمالهم المنحرفة عن الإسلام . وعلى هذا فليس الأخيار والأشرار لخاصية نسبية أو عرض دنيوي أو جنسي ، أو علوم لا ينتفع بها ومعارف ضارة ، وإنما خير الخليقة المؤمنون الصالحون والعلماء العاملون ، وشر الخليقة ، حتى أجناس الدواب والحيوان ، الكافرون المشركون وعلماؤهم المزيفون المحرفون ومثل هذا التصنيف النوعي يبرز أهمية القيم الخلقية والعلمية ، وضعة الرذائل

السلوكية والخيانات العلمية بعيدة عن تعيين الأسماء والأشخاص وتحديد الاعتبارات أو القيم الاعتبارية والمتعارفة بين عامة الناس ، وهي من أجل المقومات الحضارية في سموها ومعنوياتها .

امداد بالضلالة وزيادة في الهدى : فليست زيادات المال والبنين والمتع والقوة والتمكن هي من رحمة الله وخيره دائماً وإنما قد يكون منها بالإمداد والاستدراج الذي يبدأ بالامهال ولا ينتهي بالإهمال ، أما المهتدون فإنهم يزدادون هداية ونعماً يشكرون الله عليها بالقول والفعل والحال ﴿ قل مَن كانَ في الضَّلالة فلْيمْدُد له الرحمنُ مَداً . حتى إذا رأَوا ما يُوعَدون إمّا العذابَ وإمّا الساعةَ فسيعلمونَ مَن هو شرٌ مكاناً وأضعفُ جنداً . ويزيد الله الذين اهتدَوا هدىً والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربكَ ثواباً وخيرٌ مردّاً ﴾ (مريم : ٧٥ ، ٧٦) .

ففي الآيتين : قوم الضلالة شر مكاناً في مقابل الآية السابقة (٧٣) (خير مقاماً) ، والمهتدون الذين يزيدهم الله هدى ، وخير الباقيات الصالحات عند الله عاقبة ومرجعاً . قال الرازي في المهتدين : واعلم أنا نبين إمكان (الزيادة) بحسب العقل فنقول : إنه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً بالبعض ، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ، ولا امتناع في كون بعض العلم مشروطاً بالبعض ، فمن اهتدى بالهداية التي هي الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطي الهداية التي هي المشروط ، فصح قوله (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) مثاله : الإيمان هدى والإخلاص في الإيمان زيادة هدى ، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان ، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص . . . وهي نظرة عميقة توضح صوراً كثيرة من التغيير الإلهي والبشري الذي سنفصل الكلام عليه في مناسبته . والمهم هنا هو بيان الإمدادات التي تزيد إثم الإنسان إثماً ، وأن الباقيات الصالحات مثل الإيمان والأعمال الصالحة تزيد الهداية هدى ، إنها خير الدنيا والآخرة ، وعلى هذا فليس التقدم المدني خيراً دائماً ولا شراً أبداً ، وليس انتاجه المتطور فضيلة حقيقية بقدر ما تستخدم في مجالات الهدى والصلاح .

جهالة الجن بالخير والشر المرادين : إن الجن مخلوقات تشبه الناس في تصنيفهم ، فمنهم البر الطائع ، ومنهم الآثم الشرير ، ومهما اتسعت اطلاعاتهم المجهولة بالنسبة للإنسان ، أو قويت اتصالاتهم الخارقة التي لا تصل القدرة البشرية لنظائرها ، فإن اعلانهم عن جهلهم بالشر والأشرار والرشد والراشدين ينبه إلى محدودية معارفهم وقدراتهم ﴿ وأنّا لا نَدْري أشرٌ أريد بمَن في الأرض أم أرادَ بِهم ربُّهم رشَداً ﴾ (الجن : ١٠) . فعالم الجن مسلمون وقاسطون وصالحون ودون ذلك ﴿ كنّا طرائقَ قِدَداً ﴾ (١١) ، والله مدهم بقدرات عجيبة ومعارف كثيرة كانوا يقدرون بها على معرفة ما يجري في السماء للأرض ولكنهم لم يدروا لهذا الاستراق أو لغيره أشراً يراد لأهل الأرض أم هو خير ، وإذا كان اتصالهم بالسماء جهالة لما يقع في الأرض فكيف يمكنهم أن يعلموا غيوب السماوات والأرض اللامتناهية ، وإن الأدب الجنيّ الذي نوه به المفسرون وهو نسبة الرشد إلى الله والشر للمجهول يعلّم الإنس شيئين : محدودية المعرفة البشرية وصلاتها المهذبة مع الله تعالى .

وجوه ناضرة ووجوه باسرة : إن يوم الجزاء هو يوم العدالة والرحمة والإحسان ، ينضر الله فيه وجوه الصالحين ويقرب أصحابها منه ويجعلهم في كنفه ورعايته ويرضى عنهم ويدخلهم جنات النعيم ، ويسوّد وجوه الكافرين والمعاندين والجاحدين وينصرف عنهم فلا يرحمهم ولا يكلأهم لأنهم ليسوا أهلها ويدخلهم جهنم ﴿ فوقَاهمُ الله شرَّ ذلك اليومِ ولقَّاهم نَضْرةً وسُروراً ﴾ (الإنسان : ١١) وأي نعيم أعظم من أن يحفظهم من شر ذلك اليوم الذي تشيب لهوله الولدان ، وأجمل من السرور القلبي والسعادة النفسية التي تظهر آثارها على الوجوه النضرة ؟ إنه نعيم معنوي يفوق النعيم المادي حسناً وجمالاً .

وأولئك المؤمنون عباد الله يوفون بالنذر ويطعمون الطعام من يحبون ومن لايحبون ،ويخافون يوماً عبوساً قمطريراً ، وهم الصابرون على طاعات ربهم ومخالفة أهواء نفوسهم ﴿ وجزاهُم بِما صبرُوا جنةً وحَريراً ﴾ (١٢) .

يقول ابن كثير : وذلك أن القلب إذا سرّ استنار الوجه ، وروى عن

كعب بن مالك في حديثه الطويل : وكان رسول الله إذا سرّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر ، وهذا كقوله : ﴿ وجوهٌ يومئذ مُسْفِرة . ضاحِكةٌ مُستبشِرة ﴾ (عبس : ٣٩) .

إنها حقيقة عضوية نفسية تقوى أماراتها ومظاهرها بقوة دوافعها وأسبابها . وتتأثر هذه الأمارات والمظاهر العضوية بتغير الأسباب والدوافع النفسية والاجتماعية والصحية ، فوجه الغضوب والحزين والمريض مثلاً يتأثر بحالته النفسية وهو يختلف عن الراضي والسعيد والصحيح ، وكثيراً ما كان علماؤنا ينبهون إلى هذه العلاقة وما ينشأ عنها من تغيرات وظيفية في مجالات كثيرة . **عباد الرحمن والخير والشر** : فهم عباد الله الرحمن الذي نسبهم إليه لصفاتهم وأعمالهم فاستحقوا أن يتشرفوا بهذه النسبة بما فعلوا وما ينبغي لهم أن يفعلوا من الخصال وما تركوا وما ينبغي أن يتركوا ، ولم يحظ بها غيرهم لأنهم قصروا ويقصرون . وتلك الخصال المطلوبة والممنوعة من سورة (الفرقان : ٦٣ ـ ٦٧) أربع عشرة خصلة نصفها من الخيور والنصف الآخر من الشرور ، وإن كانت هذه تعود إلى تلك لما أنها التزام بالإقلاع عن المفاسد والابتعاد عن المساوىء ، وإذاً فالأخيار يحق نسبتهم إلى واسع الرحمة وعظيمها (الرحمن) لما فيها من رجاء التوبة وقبولها وصفاتها .

وعليه فإن هذه التسمية والنسبة ليست وساماً خادعاً ولا دعوى باطلة ولا شعاراً هوائياً وإنما هي التزامات بالفعل والترك ، وأعمال سلب وإيجاب . وقيام بالمسئوليات وإقلاع عن المفاسد ، فإن أكره ما يكرهه الإسلام تلك الألقاب الطنانة والشعارات الزائفة والأنساب الهواء . وعندئذ فلا يستحق الأدعياء ما يستحقه العاملون ، ولا يشرف الفارغون العاطلون بما يشرف به القائمون العاملون ، وإن الحضارة مسئوليات وأفعال تعتمد على مسئولين وفاعلين وليست إهمالاً وفوضى ولا مهلمين وفوضويين ، إنها تصورات وضرورات وآداب وزواجر ومكروهات لا تسقيم الحياة بغيرها تركاً وفعلاً ، التزاماً واجتناباً ، **فهي** :

- أدب السير في الطريق وهو الهون والتواضع فليس بغيرهما تقدير ولا تمييز .

- والأدب في الرد والاستجابة للجاهلين بأقوال يسلمون فيه من الشر والأذى .
- والأدب مع الله تعالى والالتزام بعبادة الصلاة والدوام على فعلها والقيام بها على وجهها راكعين ساجدين .
- والدعاء إلى الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشرها وسوءها والاستقرار فيها .
- والقوام في الإنفاق والاعتدال فيه والتوسط به فلا إسراف ولا تقتير .
- والدعاء إلى الله وحده وعبادته الخالصة فإنه الإله الواحد المعبود بحق الخالق بصدق .
- والمحافظة على حياة النفس البشرية والحرص على دماء الناس التي حرم الله قتلها إلا بالقصاص .
- والكف عن الأعراض وترك الفاحشة التي تضاعف الذنوب والآثام .
- والاهتمام بالتوبة في أبعادها السلبية والإيجابية والتصورية والمبادرة بعدها إلى صالح الأعمال .
- والامتناع عن شهادة الزور التي تضيع الحقوق وتخل بالموازين والتقويم السليم بين المتخاصمين .
- والإعراض عن تفاهات الأشياء ولغوها والانصراف إلى أمورها الجادة والهامة .
- والتأمل بالموجودات والبحث فيها والتمسك بالبراهين على صحتها والابتعاد عن التقليد الباطل .
- والدعاء لله والعمل أن يهبهم الأزواج الصالحات والذرية الطيبة التي يسرون بها .
- والرجاء من الله والعمل أن يجعلهم أئمة المؤمنين وقادة المتقين .

إنها خصال الخير تصورات وأقوال وأعمال وتطلعات ، وأعمال الشر وأقواله وشطحاته يلتزم بها المؤمنون فعلاً وتركاً حتى يَشْرفوا بالعبودية الكاملة لله وبـ (الغرفة) في الفردوس الأعلى يوم الدين .

أوامر وزواجر تفصيلية : فأكثر الآيات استيعاباً للخير والشر ومفرداتها آيات (الإسراء : ٢٢ ـ ٣٩) وهي ثلاث وعشرون آية تضمنت (٢٥) خصلة من الأوامر والنواهي ، منها (١٢) خصلة في الزواجر والنواهي وسائرها من أوامر الخير والصلاح كما ذكره أبو السعود . وقبل أن نسردها يحسن أن نلاحظ شيئن : أولهما : الصفات السلبية (النواهي) ويراد من المسلمين الإقلاع عنها وعندئذ فإن التزامهم بالأوامر من أعظم الخير والبر ، فإذا أضيفت (عكوس) النواهي إلى الأوامر الإلهية أضحى المسلمون في درجات الكمال العليا . والملاحظة الثانية هي : امتزاج أنواع الخطاب الفردي بالجماعي في جميع الأوامر والنواهي الواردة هنا ولعل تفسير هذا بالإضافة إلى التشويق في تغيير الأسلوب الخطابي الواحد هو التأكيد على ضرورة التزام الناس فرادى وجماعات بالسلوك الفاضل والانتهاء عن السلوك الآثم ، إذ لا فرق في المسئولية الدينية والدنيوية بين الفرد والجماعة وبين الخطاب الأول والخطاب الثاني .

ويمكن أن تصنف هذه الخصال في قضايا كبرى من حضارة القرآن وهي : **المحافظة على الأديان والعقول والأموال والأنفس والأعراض وما عرف بالقضايا والضرورات الكلية ، ويضاف إليها الاهتمام بالحقوق والآداب الخاصة والعامة :**

- النهي عن الشرك لأنه يؤدي بالمشرك إلى الحطة والخذلان ، وأن الموحد ممدوح منصور .
- الأمر بعبادة الله وحده وهو أعظم أركان الإيمان فهو حق وخير .
- البر بالوالدين الدائم وبخاصة في أزمنة الشيخوخة وحالات الضعف والعجز .
- إعطاء الحقوق المالية لأربابها المستحقين مثل الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل .
- النهي عن التبذير فإن المبذرين أموالهم بالحرام إخوان الشياطين ، وهذا يعني المحافظة على الأموال .

- الأدب مع الفقراء السائلين وردهم بالقول الحسن إن لم يكن بالمال والعطاء .
- التوسط في النفقة على النفس والغير فلا إسراف ولا تقتير .
- الإقلاع عن قتل الأولاد خشية الفقر فإنه خطأ جسيم وذنب كبير .
- المحافظة على الأعراض فلا يقترب من الزنا لأنه فاحشة ومقت وساء سبيلاً .
- الحرص على حياة النفس فلا يعتدى عليها بغيرقصاص، وزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم كما جاء في الحديث الصحيح .
- الإقلاع عن أخذ أموال اليتامى بالباطل إلا إذا أريد تثميره وإنماؤه .
- الوفاء بالعهد فرداً وجماعة ، العهد للنفس والعهد لله والعهد للناس .
- الوفاء بالحقوق وزناً وكيلاً في البيع والشراء ، فلا ينبغي التطفيف بهما .
- اتباع الأمور اليقينية والمحافظة عليها وترك الأمور المظنونة أيا كان مصدرها : الحواس أو العقول .
- الزجر عن التعالي والكبر مرحاً وبطراً فهو من أقبح الخصال . والتأدب بالتواضع فهو من خير الخصال .

إنها أوامر لمصالح الإنسان والجماعة لا يقوم عمران من غيرها ولا تستقيم حياة بدونها ، ونواه تؤذي الإنسان والجماعة وتدمر العمران وتفسد الحضارة وهي في مجموعها أخلاق وسلوكيات من ضرورات الوجود الإنساني وتقدمه النفسي والاجتماعي وتفوقه في المجالات الحضارية الحقة . وحسبها أنها وحي الله وحكمة منه يشرعها الحكيم العليم المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ ذلك مِمَّا أوحى إليك ربُّك من الحكمة ﴾ (الإسراء : ٣٩)[1] .

ثالثاً : آيات جامعة بين الخير ومرادفاته (مسرد المفردات) :

وهي إلى أنها جامعة بين الخير والشر فإنها قد تزيد عليها مرادفات لأحدهما أو لكليهما ، ولا ريب أنها طريقة قرآنية أخرى يستخدمها القرآن لبناء الشخصية

(١) ونماذج أخرى مثل آيات (الشورى : ٣٦ ـ ٤٣) وفيها اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والجزاءات المتماثلة ، والشورى ، والانتصار للمظلومين . . .

الإنسانية، وتشمل مسألتين: تقرير الحقيقة والقيمة، ثم تأكيدها بمرادفها، ومعلوم أن التأكيد بالمرادف ليس مثل التأكيد اللفظي والمعنوي ، إنه تأكيد لغوي للفكرة وتأسيس للمعنى الإضافي فيه كما هو المعروف عند اللغويين في حقيقة الترادف وطبيعته إلى جانب ما يؤكده من غنى العربية بالمفردات ، وبراعة الأسلوب والبيان ، ودقة معناه ودلالاته .

الرسول ﷺ مبشر ومنذر : فقد وجهه الله إلى إعلان مخلوقيته وبشريته والتبرؤ من أن يملك لنفسه نفعاً أو ضراً والتصريح بعدم علمه بالغيب إلا ما يعلّمه الله ﴿ قل لا أملِكُ لنفسي نَفعاً ولا ضَراً إلا ما شاءَ الله ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّنيَ السوءُ إن أنا إلا نَذير وبَشير لقومٍ يؤمنون ﴾ (الأعراف : ١٨٨) وقبلها قوله : ﴿ وممَّن خلقنا أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدِلون ﴾ (١٨١) .

فالآية الأولى تكثر من المتقابلات : النفع والضر ، والخير والسوء ، والإنذار والتبشير ، وفي الوقت ذاته تجمع بين الضر والسوء والآية الثانية تتحدث عن أمة الحق والعدل والهدى وهي أمة الإسلام ، إنها مؤثرات لفظية ومعنوية لترسيخ مفهوم عقدي يتصل ببشرية الرسول عليه الصلاة والسلام ، ووظيفته في الرسالة ، ومهمته في النبوة ، فهو مخلوق لله مالك الخلق وما ينفعهم ويضرهم ، لا يعلم من الغيب سوى ما يعلّمه ربه وإذاً لاستزاد من الخير وصرف عنه الشر ، ووظيفته محصورة في تبليغ الناس . . . وإذا كان الرسول كذلك فأحر بسواه ألا تتجاوز قواه الإنسانية حدودها وقواها .

ولذا فحضارة القرآن طبقاً لتوجيهات الآية ـ علم بالواقع المشاهد ، والنفع الذي يشاؤه الله ، والدعوة إلى الإسلام بشارة وإنذاراً ، وهذه الدعائم قوية الارتباط بأمة الحق والعدل والهداية .

أهل الكتاب المؤمنون : وهم فئة متنامية في دعوة الإسلام وحضارته استجابوا لله والرسول وصدقوا في روايتهم فآمنوا بما جاء في كتبهم والتزموا بما كانوا يعملون له ويقومون به من صالح الأعمال ﴿ ليسُوا سواءً مِن أهلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتلُون آياتِ الله آناءَ الليل وهمْ يسجدون . يؤمنونَ بالله واليوم الآخرِ ويأمرون

بالمعرُوف وينهَون عن المنكر ويسارعُون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (آل عمران : ١١٣ ، ١١٤)ففي الآية الثانية متقابلات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة في الخيرات ، ووصف المؤمنين بالصلاح توضح الترادف والتأكيد . إنهم العناصر البانية في حضارة الإسلام فهم القائمون على تلاوة الآيات ليلاً ، الساجدون ، المؤمنون بالله واليوم الآخر ، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر ، المتسابقون في الخيرات .

إنها صفات يستحقها (الصالحون) تدفع بالمسلمين إلى دعوة الكتابيين للإسلام والتعاون معهم في البناء الحضاري . وهذا يعني تغييرهم إلى الهدى والإيمان وتحويلهم إليه والتزامهم به ودعوتهم إليه حتى إن بعضهم كان أقوى التزاماً وأكثر حماسة ممن سبقهم إليه أو نشأ فيه . فهل يمكن أن يكرموا أو يقدروا بمثل ما كرمهم الله وقدرهم في القرآن العظيم وبمثل هاتين الآيتين ؟ إنه تقدير متبادل بين الله وهؤلاء الكتابيين المسلمين فلم يغفلوا عن أمانة الحق وقوله حتى خرجوا من دين آبائهم وأجدادهم رغبة وقناعة به . وكل هذا محسوب من الله الذي يقدر لهم موقفهم وإيمانهم،وعليه فلا يصح ما يقوم به الباحثون الغربيون من الكشف المتمحّك عن ماضي الكتابي القريب إسلاماً ولا عن تاريخه البعيد بإسلام آبائه وأجداده وينسبون الحضارة الإسلامية إلى مؤهلاته وقدراته الخاصة كما لا ينبغي للمسلمين أن يسئيوا ظنونهم به وينقبوا عن أصوله أو بيئته غير الإسلامية فيعيروه ويعيبوه مادام ملتزماً بالإسلام إيماناً وعملاً ودعوة ، فالقاعدة الإسلامية الكبرى أن الإسلام يجبّ ما قبله . وهذا التصور له أثره وفعاليته في قيام حضارة الإسلام وتفوقها وعمومها .

أولو الألباب والخير : فقد ربطت آيات عديدة بين سلوكيات الخير وأصحاب العقول والألباب وهذا يدل على (معقولية) الخير كما يدل على (خيرية) العقلانية واللُّبية . وإن وشائجهما (متفاعلة) الأثر والتأثير . والقرآن إذ يقوّي هذه الوشائج فإنه يظهر فعاليات العقول في السلوك بحيث لا تدرس وحدها نظرياً ولا منطقياً ، وهي وجهة عملية توجهية لأولي الألباب تفرد بها في حضارته

الجامعة . ومن نماذج هذه الآيات ما ذكره الله تعالى في سورة (الرعد : ١٩ ـ ٢٤) . ومجملها :

- الوفاء بعهد الله بين المسلم وربه ، والمسلم والمسلم ، والدولة المسلمة وغيرها .
- والالتزام والوفاء الدائم وعدم نقض المواثيق الخاصة والعامة .
- وصلة ما أمر الله بوصله من الأرحام ، والنصرة في الجهاد ، ورعاية حقوق العباد بالمبرات ودفع المكروه ، وعيادة المريض وشهود الجنائز وإفشاء السلام وكل مافيه صلة .
- وخشية الله تعالى والخوف من عقابه واستشعار عظمته في كل تصرف وسكون .
- والخوف من سوء العذاب والمصير المظلم وذلك بالابتعاد عن كل ما يجر المسلم إلى هذا المصير .
- والصبر ابتغاء وجه الله وهو صبر على الأذى وصبر على الطاعة وصبر في السراء والضراء .
- وإقامة الصلاة : بالدوام عليها والاستقامة فيها والخشوع في أقوالها وأعمالها .
- وإيتاء الزكاة المصدر العظيم من مصادر التكافل الاجتماعي وتقريب الفوارق وتحقيق العدالة بين المسلمين .
- ودفع السيئة بالحسنة وعدم مقابلة السيئة بمثلها والتسامح في العلاقات .
- وصلاحهم وصلاح أزواجهم وآبائهم وذرياتهم في جميع أخلاقيات الصلاح والهدى والبر .

في البر الكامل والأبرار الصادقين : وإذا كان البر مرادفاً للخير فإنه كما عرفه بعض العلماء : اسم جامع لمراضي الخصال ، فقد صرحت آياته بذلك ، وأجمعها آية (البقرة : ١٧٧) وتليها آية (البقرة : ١٨٩) ثم (آل عمران : ٩٢) ، والآية الأولى على طولها وجمعها الخير والبر فإن مفرداتها تحقيق للحق الذي صرحت بها الآية السابقة (١٧٦) ﴿ ذلكَ بأنّ الله نزَّل الكتابَ بالحق

وإن الذين اختلفُوا في الكتابِ لَفي شقاقٍ بعيدٍ .ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهَكُم قِبَل المشرقِ والمغربِ . . . ﴾ .

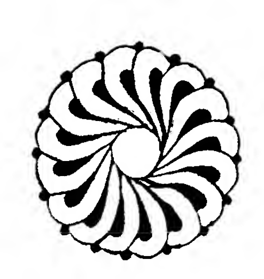
وعلى هذا فالآية جامعة لخصال البر وجامعة للخير والحق أيضاً :

- الإيمان بالله خالصاً من شائبة الشرك .
- الإيمان باليوم الآخر على الوجه الصحيح يوم الحساب والجزاء .
- الإيمان بالملائكة جند الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
- الإيمان بالكتب السماوية هدى للناس وإنقاذاً لهم من الفساد والضلال .
- الإيمان بالنبيين : رسل الله لهداية الناس وقادتهم إلى خير الدنيا والآخرة .
- إيتاء المال تطوعاً ونفلاً برضا وحب ، المحاويج من ذوي القربى واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين وفي الرقاب .
- إقام الصلاة كما شرع الله مستوفية الأركان والآداب معقولة المعنى والحكمة .
- إيتاء الزكاة المفروضة لمستحقيها الذين يستوعبون معظم مرافق المجتمع وحاجاته الضرورية .
- الوفاء بالعهد بين الإنسان وربه ، والإنسان والإنسان ، والدولة المسلمة وغيرها بشرط الا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً .
- الصبر في الفقر والشدة والمرض والزمانة والسلم وأوقات الجهاد ، والصبر على الطاعة وعن المعصية .

قال أبو السعود : الآية الكريمة حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحاً أو تلويحاً ، لما أنها مع كثرة فنونها وتشعب شجونها منحصرة في خلال ثلاث : **صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة مع العباد ، وتهذيب النفس** ، وقد أشير إلى الأولى بالإيمان بما فصّل ، وإلى الثانية : بإيتاء المال ، وإلى الثالثة : بإقامة الصلاة ، ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظراً إلى إيمانهم واعتقادهم ، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق . . .

وحقائق أخرى مرت في آيات سابقة جمعت بين الخير والشر ومرادفاتها مثل

آيتي (يونس : ١١ ، ١٢) اللتين تبينان حرص الناس على مصالحهم الدنيوية وحدها ، وتزينان للمسرفين أعمالهم وأحوالهم ، وكذلك النموذج (القاروني) في سورة (القصص) وموقف الدنيويين منه (الآيتان : ٧٩ ـ ٨٠) . . . إنها مواقف تاريخية ومعاصرة ونماذج إنسانية عبر الأجيال يقع أمثالها في كل زمن وهي بحاجة إلى التنبيه والتوجيه لتقلع عن الخير الوهمي إلى الخير الحقيقي وتأخذ دورها ومسئولياتها في حضارة الإسلام .



قواعد حضارية من الحق والخير والجمال القرآنية
(في المقوّمات والمسئوليات)

وهي لا تفترق عن المسائل الحضارية السابقة في (الآيات الجامعة) سوى أنها تبرز متفرقة ومجتمعة في (نجم) قرآني . فهي استكمال لها إذ تشمل أسساً حضارية أو واحداً منها يلون القرآن حواشيه ويفصل فروعه من منطلق تربوي بنائي . وذلك على اعتبار أن معظم المتنزل الحكيم كان (نجوماً) متعدد الآيات ، يعلِّم كل نجم منها درساً كاملاً في بنائه الحضاري المتميز . ولذا فإن من المناسب تجاوز المسائل الحضارية في الآيات المتفرقات والمبثوثات في كتاب الله إلى عرض نماذج قرآنية نصية ندرك من خلالها المعاني الكبرى والقيم العامة .

المسلمون أمة الحق والخير

ففي النص من سورة آل عمران (١٠٢ ـ ١١٠) قواعد حضارية خاصة مبنية على الحق والخير ضمناً وصراحة وترادفاً تكوّن بمجموعها تشكيلاً حضارياً نوعياً لا نعهد نظيراً له في أية حضارة أخرى . والنص صريح بخطاب الجماعة المسلمة لأنه يتعلق بها كأمة لها خصائصها .

المسلمون أمة : فإنهم لكذلك بمقتضى هذا النص الذي وردت فيه مرتين ، في بدايةالنجم ونهايته بل إنهم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ [١] وهذا المفهوم الحضاري المتقدم للأمة لم تعرفه المجتمعات والفلسفات إلا حديثاً ، حيث يتم تجمع أفرادها على عقيدة وثقافة واحدة مهما اختلفت الأجناس والأعراق والأقوام ، وإن الأمة الإسلامية خاصة تتجاوز الأعراف القبلية والتقاليد

(١) وانظر أيضاً مسألة : الأمة والخير .

العشائرية إلى ارقى مفاهيم التجمع الإنساني الحضاري ، وكل فرد من المسلمين جزء من الأمة وعضو نافع فيها ، حتى وإن قصر أوانحرف أحياناً فإن الوعي الاجتماعي للأمة يعيده إليها كما كان .

ثم إن هذه الأمة إذ لا تضن عليه بالتوجيه والإنابة فإنها لا يمكن أبداً أن تفرط فيه فلا تظلمه ولا تحقره ولا تُسلمه لاعتبارات إسلامية خاصة . وهي أمة لها مقوماتها وتصوراتها وأنظمتها في تحضير البشر وعمران الأرض ، إنها ضاربة في أعماق التاريخ الديني باعتبارها أمة الإسلام والاستسلام والإيمان بالديانات السماوية كلها ، ومستشرفة غياهب المستقبل الذي لا يعرف مداه إلا الله باعتبارها أمة الدين الخاتم والشريعة الأخيرة ، وممتدة في آفاق الأرض جميعها لا تعرف لدعوتها حدوداً ولا توقف نشاطها معوقات ولا قيود . إنها حاملة رسالة الله في الحق والخير لجميع الناس .

وهم أمة الحق الذي ذكر مرتين : في الآية الأولى ﴿ حق تقاته ﴾ فإن إضافته للتقوى يشعر بكمال التقوى وحقيتها وهي أن يطاع فلا يعصى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وكما يحق أو يجب أن يتقى ، وهو استفراغ الوسع في القيام بالموجب والاجتناب عن المحارم ، وواضح أن أمر الله بالتقوى حق تقاته يعمق مفهوم التقوى والالتزام بها أكثر من الأمر بها أو الدعوة إليها مجردة ، فهي التقوى حقاً وكمالاً . ولا ريب أن بناء الذات الإنسانية على التقوى الحقة من أولى قواعد الإسلام الحضارية في الفرد وعمق تهذيبه وصياغته . وفي الآية الثانية : ﴿ تلك آياتُ الله نتلُوها عليك بالحق . . . ﴾ إنها آيات الحق ومن مصدر الحق ، فهو متلبس بها محيط بمعانيها ليس في حكمها شائبة الباطل ، فهي حق بمبادئها وقيمها ، وحق فيما تعرضه من مصائر وجزاءات يتلوها الله على رسوله وعلى المؤمنين ، ومثل هذه التلاوة (المنسوبة) إلى الله تزكي الحق وتعلي شأنه وتطمئن إلى صدقه ، حتى إنه يلاحظ أن معظم الآيات المتلوة الأخرى نسب إلى الله وإلى الحق معاً مثلاً في (سورة البقرة : ٢٥٢) و(سورة الجاثية : ٦) وهنا (آل عمران : ١٠٨) .

وهم **أمة الخير** حيث ورد ثلاث مرات : ففي الأولى ﴿ ولتكنْ منكم أمةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ﴾ وهو كما قال الرازي : أمر المؤمنين بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات . . . ويقول : (أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات . . . والدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان : أحدهما الترغيب في فعل ما ينبغي وهو المعروف ، والثاني : الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر . . . يقول أبو السعود : أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده أثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهي تثبيتاً للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الإخلال بها . . . ثم يقول : والدعاء إلى الخير ء ارة عن الدعاء إلى مافيه صلاح ديني أو دنيوي ، ثم يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الخير . وفي الآية الثانية ﴿ كنتمْ خيرَ أمةٍ أُخرِجت للناس . . . ﴾ وهو نص صريح في (خيرية) المسلمين كأمة ولكن بما وصفهم الله فيها بعد . . . يقول الرازي : تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا ﴿ خير أمّةٍ أُخرجت للناس ﴾ ، والآية الثالثة ﴿ ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خيراً لهمْ ﴾ فهو دعوة رفيقة لينة لأهل الكتاب إلى الخير فإنه أصلح لهم وأفضل .

وهم **أمة المعروف** : وهو مرادف للخير ويقابله المنكر وهو مرادف للشر ، وذكره الله مرتين أيضاً ، في الأولى : ﴿ ولتكنْ منكم أمةٌ يدعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف . . . ﴾ فهو طلب من الله للمسلمين أن يقوموا بحقه ويتحملوا مسئوليته وسبق أن الرازي جعله من الخير ، وبينما يعمم وجوبه على المسلمين جميعاً حتى إنهم يعرفون بأمة الدعوة مستشهداً بهذه الآية ، وأنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف . . . إما بيده أو بلسانه أو بقلبه ، فإنه يخص العلماء بالوجوب ويقول : الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف والمنكر فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف . . . وفي الآية الثانية : ﴿ كنتمْ خيرَ أمةٍ أُخرِجت للناس تأمُرون بالمعروف . . . ﴾ ويبدو أنها

(صفة) لخير الأمم بعد أن أمرهم الله بها سابقاً ينفذون أمره حتى يبنوا خيريتهم عليه ، وهذا يعني أن ملازمة الطاعة لله تعالى في الأمر بالمعروف قد أصبح سجيتهم وحالهم وسمتهم . ولكن هل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف شيء واحد ؟ إن الرازي وجماعة سووا بينهما وجعلوا الثاني مندرجاً في الأول بينما يفرق آخرون بينهما حسب اللفظة المختارة لكلٍ (والذي يقرر أنه لابد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته . فهناك (دعوة) إلى الخير ، ولكن هناك كذلك (أمر) بالمعروف ، وهناك (نهي) عن المنكر ، وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان فإن (الأمر والنهي) لا يقوم بهما إلا ذو سلطان) [1] ومع ذلك كله فلابد أن يكون الداعي إلى الخير والقائم بالمعروف والآمر به والناهي عن المنكر أهلاً له بطبعه ، مؤهلاً بعلمه وأسلوبه ، محققاً الغاية منهما وهو التغيير والتحويل ، ويتأكد هذا حين يصبح الفساد والمنكر ظاهرة في المجتمع أو أن تياراً جارفاً قد يسوق كثيراً من الناس إليه فإن تدخل السلطة مؤكد وإزالة الظاهرة المنكرة لا يكتفي بالدعوة ولا بالبيان ولكن لابد من تدخل قوي للسلطة لإزالته برهبة السلطان وسيفه .

وهم بنعمة الله أخوة في الإسلام : والتعبير الصريح الموحي ﴿ واذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ كنتمْ أعداءً فَألَّف بين قلوبِكمْ فأصبحتمْ بنعمتِه إخواناً . وكنتم على شفَا حُفْرةٍ من النارِ فأنقذكُمْ منها ﴾ والتغيير الصريح من العداوة إلى الألفة ، ومن الشقاق والنفرة والاقتتال إلى الوحدة والمحبة والتآخي مثل ما كان بين الأوس والخزرج وكيف أصبحوا إخوة هو أوضح نماذج الأخوة وأصرحها وأبينها في الانقاذ من الوقوع في نار الدنيا والآخرة .

وقاعدة (الأخوة) من أرسخ القواعد الحضارية الإسلامية التي لا تدخل في المفاهيم الحضارية السائدة ، إنها تعني محبة الخير وإرادة الصلاح والإكرام والتعاون والتضحية والنصيحة والتعليم والتكافل والتضامن والتكامل إلى جانب

---

(١) الظلال .

ما تعنيه من (العواطف) المشتركة والمشاعر الطيبة والأحاسيس المرهفة في ربط (القلوب) ببعضها على أخوة الإيمان ووشيجة الإسلام وحبل الله المتين وتعني أيضاً الوقاية والتحصين ودفع الظلم والمكروه والاستهزاء وعدم الاعتداء على الأموال والأرواح والأعراض والأديان والعقول ، وتعني أيضاً (تصوراً شعورياً) غامراً بالمساواة بين المسلمين في أرض واحدة وتطلعاً إليهم في كل أرض ومساندة لهم في كل صقع ، إن حضارة القرآن لا تقيم الأخوة على التعالي بين المسلمين ولا على (فوقية) طبقة أو أسرة ، ولا تسلط غني أو زعيم عليهم . ولا امتياز أحد على أحد لعرض خلْقي أو مادي . إنهم جميعاً إخوة من غير تفريق بينهم ومن غير تطاول على بعضهم ومن غير تحكم وتسلط ، إنها متشعبة العلاقات : تعني مشاعر نفسية وأعمال خير إيجابية ، والإقلاع عن الشر والسلبية ، فقد ﴿ أصبحتُمْ اخواناً متحابين على الأخوة في الله متحابين متناصحين متفقين على كلمة الحق ﴾ كما قال أبو السعود : ويذكر الرازي أنهما نعمتان دنيوية وأخروية ، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى : ﴿ إذ كنتمْ أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتُمْ بنعمتِه إخواناً ﴾ والنعمة الأخروية فهي ما ذكره الله في آخر الآية . ويلفت الذهن إلى المعنى الذي يمكن أن يستنبط من نسبة النعمة إلى الله (بنعمته) ويقول : يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله ، لأنه تعالى خلق الداعية في قلوبهم . وكانت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل .

إن الأخوة سمو بالعلاقات المصلحية والمنافع الذاتية التي قد تدخل فيها ولكنها ليست أساساً لها ، فهي أنظف الروابط وأسماها وأغناها بالمصالح المشتركة .

أمة الاعتصام بحبل الله : وأيا ماكان مفهوم الاعتصام بحبل الله كالإسلام والقرآن أو العهد بين الإنسان وربه أو الأدلة البينات على الحق الآمنة من الانزلاق في القاع (فكأن المراد من الحبل ههنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين) كما قال الرازي . وكذلك جماعة المسلمين . ولما كان

كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً . . . . . ، ولا بد لهذه الحالة من حضور ذهني ونماء شعوري وقوة إعمار القلوب بالإيمان والالتزام بسلوكيات التقوى الحقة ، والاستمرار عليها حتى الممات كما صرح بذلك في الآية الأولى من النص الكريم . وعلى هذا فلا يتأتّى الاعتصام من فراغ ، ولا يتحقق إلا بشروطه الظاهرة والباطنة . . . ومن ذلك وحدة التمسك بحبل الله وعدم التفرق عليه والاختلاف فيه وقيام الاعتصام على الحق والخير والمعروف . والتفرق المنهي عنه ورد مرتين في قوله : ﴿ ولا تَفَرَّقُوا ﴾ ، وفي قوله :﴿ ولا تكونُوا كالذين تفرَّقُوا واختلفوا ﴾ . . . ففي الأولى نهي للمؤمنين عن التفرق في الدين والاختلاف فيه ، وهذا يدل كما قال الرازي على أن الحق واحد وما عداه فهو الجهل والضلال والباطل ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فماذَا بعدَ الحقِّ إلا الضّلال ﴾ كما يدل على النهي عن معاداة المسلمين ومخاصمة بعضهم بعضاً ، والتحرر من منازعات الجاهلية وأوضارها فإن في ذلك زوالاً للمحبة وقطعاً للألفة ، والثانية تصرح بألا يكونوا مثل الكتابيين حين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات . فهل التفرق والاختلاف شيء واحد يؤديان معنى التأكيد والنهي عن اتباع الأهواء وصيروتهم فرقاً ؟ يبدو أن هنا فرقاً بينهما في المعنى ولكنهما متلازمان ، فالتفرق : هو افتراقهم حتى يصيروا (فرقاً) مثل ما حصل لفرق اليهود والنصارى في الأصول الدينية بسبب اختلافهم على كتبهم تفسيراً وحفظاً وبيعاً وشراء ، وإذا نالت الفرقة من المسلمين لمصالح سياسية وحزبية فإن علماءهم المنتفعين لابد من أن يؤلوا النصوص وفق نحلهم وفرقهم وعندئذ فإنهم يختلفون فيها حتى يصل الاختلاف أحياناً إلى مسخ النص أو تحميله مالا يحمل ، فتتكرس الفرق وتتباعد فيما بينها وتتخذ كل واحدة منهجاً خاصاً في الاستنباط والاجتهاد . فالقرآن نبه المسلمين إلى وحدة التشريع ووحدة الجماعة (العلماء) التي تختص بالتشريع ، ووحدة جماعة المسلمين عموماً، وزجرهم أن يصيروا إلى ماصار إليه فرق الكتابيين ، ويعلن للناس قاطبة أن الدين واحد والمنهج واضح والجماعة واحدة

وأن الحضارة القرآنية لا تشاد على التفرق والاختلاف وإنما على الوحدة في الفكر والمنهج ولا يضير بعد ذلك الاختلاف في الاجتهادات العملية الفقهية مادامت تلتمس ذلك من النصوص الثابتة .

ومن ناحية ثانية يحسن أن ننتبه إلى أن القرآن أكد النهي عن (التفرق) مرتين بينما ذكر (الاختلاف) مرة واحدة وفي معرض الكلام على أهل الكتاب وحدهم ، وهو مما يخص المسلمين دون سواهم ، فقد يفترقون مذاهب بعد أن نهى الله عنه، أما الاختلاف في الأصول فلا يصح أن يقع منهم مادامت الأصول محفوظة ومبرأة من التبديل والتحريف ، وإذا وقع شيء منه فإن ثباتها وسلامتها يعيدهم إليها أصلاً وتداولاً ، ولذا ينبغي اهتمام العلماء بوحدة الاستنباط أو تقارب المنهج والاتفاق على قواعده وأسسه ، فهي (مشكلتهم) التي لابد من معالجتها بالروح الإسلامية وليست مشكلة النص المحفوظ . وهذا يعني أن الاعتصام بحبل الله مبني على سلامة المرجع وصفاء الينبوع وصحة المصدر مما يشيع الثقة بالعمل الاجتهادي مهما تراكمت المسائل ، وتزاحمت المستجدات ، وإن توجيه الله للمسلمين بالاعتصام (جميعاً) يؤكد على التحرر من النوازع والضغوط والمهاترات الفردية والفرقية حتى (يجتمع) المسلمون و(يجمعون) على التمسك بها والاهتداء بمبادئها وتبليغها وتعليمها .

أمة الدعوة إلى الإسلام : وتقدم شيء منها في : أمة المعروف ، والنص قد صرح بالدعوة إلى الخير في الآية (١٠٤) ﴿ ولتكنْ منكُم أمةٌ يدْعون إلى الخيرِ . . . ﴾ ولمحّ إليها في الآية الأخيرة ﴿ ولو آمنَ أهلُ الكتابِ لكان خيراً لهمْ ﴾ ، ومعلوم أن إيمانهم الذي قال الله عنه في التوبة نفسها : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ لابد أن تسبقه دعوة ودعاة ولا يتأتى الإيمان ـ وهو تغيير كلي في تصور الإنسان وسلوكياته ـ من إعمال العقل وأثر الثقافة الذهنية وحدها ، وأن الدعوة الخارجية إذ تفترق عن الأمر بالمعروف النهي عن المنكر داخل البلاد الإسلامية فإن متابعة الآيات تلهمنا بأمور عديدة منها :

أ ـ الدعوة أساس في التغيير الإنساني ، وأنها هنا دعوة لطيفة رفيقة حانية

متناسبة مع أسلوب التمني في الجملة القرآنية .

ب ـ وإن الدعوة إلى الإسلام من أخطر مهمات الأمة الإسلامية باعتبارها خير الأمم التي قدم الله ذكرها في مطلع الآية .

ج ـ وأنها دعوة ناجحة لا يقاس نجاحها بالحجم والكم (منهم المؤمنون) ولا يهم وجود الكتابيين في حضارة القرآن وإن كثروا (وأكثرهم الفاسقون) فإن كثرتهم عدداً يمكن أن يحتويه المسلمون الخيّرون ، وعلى كل حال فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

وهكذا فإن فرقاً آخر يمكن إبرازه بين الأمر بالمعروف السابق والدعوة إلى الأسلام في الآية الأخيرة ، فالأول كما يبدو (خاص) بالمسلمين يدعون إلى المعروف وينهون عن المنكر لإصلاح أحوالهم والثاني (عام) حيث ينتشر الدعاة المسلمون في أقطار الأرض لبيان فضائل الإسلام وخصائصه ومزاياه حتى يدخل فيه جميع الناس على اختلاف أديانهم ومللهم .

ومن المفيد أن نظهر الربط(المعنوي واللفظي) في الدعوة إلى الإسلام خاصة بين أول النص ، وآخره مع ملاحظة الأمر بالتقوى حق تقاة الله والديمومة على الإسلام وكون المسلمين خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ويدعون الناس إليه في الآية الأولى والأخيرة .

وأن نظهر الربط(الموضوعي)بين الماضي والحاضر والمستقبل . فلا ينبغي للمسلمين أن يتفرقوا كما تفرق أهل الكتاب الذين سبقوهم وإنما ينبغي دعوتهم إلى الله في وحدة دينية جامعة في حاضرهم وأن يكونوا كذلك في مستقبلهم باعتبار أن المسلمين أمة الحق والخير ، وهم لا يحتكرونه وإنما يدعون الناس إليه باعتبار وأن دعوتهم ذات أبعاد حضارية عامة .

مصائر الأمم عند الله : فإلى الله ترجع الأمور لاستكمال العواقب والجزاءات والمصائر في الآخرة بعد منهجة التصور القرآني للأمة الإسلامية ومسئوليتها الحضارية عنه. في الدنيا ، فبين مصيرهم ومصير غيرهم من الأمم الأخرى في الآخرة وقبل أن يصرح به نهى المسلمين عن نوعين من التفرقة : الأولى ألا

يتفرقوا مثلما كان آباؤهم وأجدادهم في جاهليتهم قبائل متعادية متخاصمة متحاربة في الوجودالمعاشي،متنازعة الأهواء ، مختلفة الأمزجة والرغبات في الوجود الإيماني والتعبدي ﴿ ولا تَفرَّقوا واذكرُوا نعمة الله عليكم إذ كنتمْ أعداءً فألّف بين قلوبكم . . . ﴾ ، والثانية : ألا يتفرقوا كما تفرق أهل الكتاب ممن سبقهم حتى صاروا أدياناً مختلفة بعد ما كانوا على دين واحد ، ومللاً متضاربة بعد أن كانوا على ملة واحدة ، وفرقاً شتى في أسفار التوراة وتلموده ، وروايات الأناجيل المعتمدة وغير والمعتمدة وفرقاً شتى بعد أن كانوا أمة واحدة ، أمة الكتاب والهدى وأمة التوراة والإنجيل . وهؤلاء وأولئك من الذين تسود وجوههم يوم القيامة ويذوقون العذاب العظيم بسبب كفرهم وفسوقهم وخروجهم عن الأصول الدينية الإلهية ثم بسبب عداوتهم الظاهرة والخفية ، الفكرية والعسكرية للإسلام والمسلمين .

أما المؤمنون المتقون فهم أمة الحق والهدى والأخوة والاعتصام بحبل الله الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر الداعية إلى الإسلام المؤمنة بكتب الله وشرائعه فقد أنقذهم الله من نار الدنيا إلى الإسلام ﴿ وكنتُمْ على شَفا حُفْرة من النار فأنْقذَكم منها ﴾ وسيجعلهم في رحمته تعالى يوم القيامة بوجوههم البيضاء المشرقة المنعمة في جنته و﴿ همْ فِيها خَالدون ﴾ .

المسلمون أمة التوحيد الخالص
(لله دعوة الحق)
درس في العقيدة
سورة الرعد (١٤ ـ ١٩)

هذا درس عجيب في العقيدة بين الله ورسوله ، ثم بين الرسول والمشركين المنكرين ، وهو نموذج حافل بالمؤثرات الدرسية المتنوعة ، من نماذج شتى ، متعددة الطرق والأساليب ، وهي مبثوثة في كتاب الله عموماً ـ حبذا لو كشف النقاب عنها تعليمياً وتربوياً .

وسأتجه في تحليل المشهد وجهة تربوية اختصاصية ما أمكن ، باعتبار أن التفسير التربوي ـ طريقةً وهدفاً وصياغةً ـ من أحب الطرق القرآنية في درس من أعقد القضايا والمسائل العقدية ، وهي مشاركة متواضعة جداً في نمذجة جزئية تربوية في دراسة خاصة بالقرآن العظيم .

وبادىء ذي بدء أنبه في الآيات إلى غلبة مصطلح الحق على مصطلح الخير ، فقد ورد مرتين صراحة وإلى جانبه (الباطل) مرة واحدة ، وورد في معناه : النور ، والبصير ، وما ينفع الناس يمكث في الأرض .

ومصطلح الخير لم يرد صراحة وإنما ذكرت مرادفاته وأضداده مثل : النفع ، الضر ، الحسنى ، سوء الحساب ، في متقابلات تضفي عليه جمالية لفظية ومعنوية ، والأوعية الجمالية في (الحق) لا تقلّ عنها في الخير فقد صيغ صوراً رائعة في الأمثلة المضروبة مثل : الظلمات والنور ، والزبد الزائل والماكث النافع . . . وهذا يعني أن المسائل الفكرية ومصطلحاتها لا تعرض نظريات فلسفية جافة ومعقدة وإنما تصور بأجمل الصور والأمثلة دائماً وبخاصة حين تعرض في طريقتها التربوية التي لابد من أن تراعي فيها الخصائص النفسية للإنسان .

ومن ناحية أخرى فإن الله (يعلِّم) رسوله ماذا يقول ، وماذا يسأل ، وكيف يقدم للمنكرين حقائق الإسلام بالأساليب المفحمة والحجج الساطعة وهو تعليم طويل المدى عميق الأفكار ، وإذا تتبعنا مشتقات مادة (التعليم) مثل : علّمتك ، علّمتنا ، علّم ، علّمكم ، علّمناه ، علّمني ، علّمه ، يعلّمك ، يعلّمكم ، يعلّمه ، يعلّمهم وجدنا أنه أشرف جانب في رسالة الأنبياء وأكرم رسالة المعلمين مستقاة من الله العليم الذي كان يقوم بتعليم الناس قاطبة ، وهذه نقطة أخرى في تكريم الإنسان ، ومكانة عظمى للعلم وتشريف للعملية التعليمية ﴿ علَّم الإنسانَ ما لَمْ يَعلمْ ﴾ ، مادام الله يفعلها ويمتن بها على سائر خلقه ، ويلاحظ من ناحية ثالثة أن الآيات هنا بمثابة تطبيق عملي وتدريب تعليمي (يعلّم) رسوله توجيه المشركين وإفهامهم هذا الدرس العجيب وذلك

قبل أن يقوم الرسول ﷺ بتدريسه عليهم على أفضل طريق وأصلح أسلوب .

١ ـ **وموضوع الدرس كما أسلفت** : ﴿ لله دعوة الحق ﴾ ، ومنه نفهم هذا الاختصاص أو القصر في نسبة دعوة الحق إلى الله وحده ، فهو مختص بها ، ثابتة به واقعة موقعها منه مشتملة عليه وحده ، بعيدة عن أية شائبة من الضياع والبطلان والفساد . وهذا الموضوع ليس جديداً على الرسول ولا على المشركين ، ولكن معالجته تختلف من مشهد إلى مشهد ومن نجم إلى آخر مما يرسخه عقيدة جلية ثابتة لا يمكن أن تتزلزل أو تضعف .

٢ ـ **ومادة الدرس** : تشتمل على إبطال الشرك وضلال المشركين ، وخضوع المخلوقات وسجودها لله تعالى ، وإثارة الفطر بوجوده ووحدانيته ، . . . وقد عرضت جميعها **بأسلوب الاستفهام والتمثيل** ومؤثرات أخرى في طول الآية وتقارب الفواصل . . . فمن الأسئلة الواردة : الاستفهام عن رب السماوات والأرض والإجابة عنه بأنه الله ، وسؤال إنكاري عن اتخاذهم الأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وأسئلة أخرى تتناول ضرب الأمثلة المختلفة .

ويلاحظ أن طبيعة الأسئلة نوعان : نوع تعليمي يوجّه الله رسوله إليه ليعلمهم الجواب الذي فطروا عليه مثل السؤال الأول ، ونوع آخر : توبيخي تحذيري مثل الأسئلة الأخرى التي يعرف جوابها بداهة ولا يطلبه منهم لفظاً ولا كلاماً ، وأما التمثيل فهو لتوضيح الحقيقة الدرسية وهي وحدانية الله تعالى في الدعاء والدعوة والإجابة وهو من حيث المضمون ذو دلالات حسية معروفة . فالمثل الأول : طالب الماء بكفيه المبسوطتين وهو مثل لاستحالة الشرك . والمثل الثاني : اختلاف الأعمى والبصير ، وذلك لبيان وضوح الحق وطمس الباطل ، والمثل الثالث عدم مساواة الظلمات والنور وهو مثل حسيّ عقلي مشترك تدركه العين والعقل معاً والفروق الشاسعة بينهما ، والمثل الرابع زبد السيل وزبد المتاع وهو مثل لجوهرية الحق وثباته وتهافت الباطل واضمحلاله ، والمثل الخامس : عدم مساواة الجاهل والجهالة والعمى بالبصيرة والمعرفة والحقيقة الناصعة . والتمثيل من حيث الطريقة نوعان : استفهامي يقصد به إفحام

المشركين بالحجج الحسية الدامغة وإحراج قدراتهم الفكرية عن الاستجابة الصحيحة المطلوبة مثلاً : قوله : ﴿ قلْ هَل يَستوي الأعمَى والبصِير ، أم هلْ تَستوي الظلماتُ والنورُ ﴾ . . . والجواب بداهة لا يستويان . والنوع الثاني تقريري وهو واضح في تمثيل الزبد وغيره .

وعلى كلٍ فإيراد المثل مقصود أولاً والأسلوب التمثيلي مراد قصداً وقد صرح الله به في قوله : ﴿ كذلكَ يضربُ الله الحقَّ والباطلَ ﴾ وقوله : ﴿ كذلكَ يضربُ الله الأمثالَ ﴾ . وإن تعداد الأمثلة وتنوعها في قضية واحدة ، وتلوين الأفكار حولها يبرز الجانب التعليمي من هذا الدرس الخطير في وحدة فكرية شاملة . وهي وحدة يلتسمها الباحث من عرض القضية الأساسية موضوع الدرس وغرسه تربوياً ضمن أركان العقيدة الإسلامية بأسلوب تعليمي رائع ، ولذا فقد أطلعنا النص على أفكار شارحة ومفسرة لهذه القضية المراد شرحها وتفسيرها وغرسها ، ويمكن إجمالها بمايلي :

أ ـ الشركاء لا يستجيبون لأحد بشيء وليست لديهم القدرة على ذلك .

ب ـ لله وحده وليس للشركاء يسجد من في السماوات والأرض .

ج ـ الله وحده رب السماوات والأرض .

د ـ لا يتساوى الله الحق مع الشركاء المبطلين مثل عدم تساوي الأعمى والبصير ، والظلمات والنور . . . ومثل عدم تساوي الزبد والماء ، والزبد والمتاع .

ز ـ عدم تساوي أهل الحق المستبصرون وأهل الباطل العمي . . .

٣ ـ النتائج النظرية والعملية الكبرى : وهي من أخطر الجوانب العقدية في الإسلام ولذا فإنها تحتاج إلى تفصيل وتفسير وتمثيل ، ومنها : التوجه إلى الله وحده وترك الأولياء والأرباب ، وعبادة الخالق وحده وترك الشركاء ، والاستجابة للخالق الرازق المحيي المميت النافع الضار والإعراض عن الآلهة الباطلة من الأشخاص والأهواء والأشياء . . . وهذه القواعد النظرية العقدية يبني عليها الأعمال والسلوكيات والجزاءات الدنيوية والأخروية ، فللمؤمنين الذين استجابوا لله فكراً وعملاً حسن الدنيا والآخرة ، فدنياهم حسنة تشتمل على كل ما هو خير

وصلاح وبر وآخرتهم الجنة نعيماً حقاً ، وللمعرضين عن الله سوء الدارين فدنياهم سيئة تشتمل على كل ماهو إثم وفساد وضلال وآخرتهم شر من دنياهم في جهنم وبئس المهاد و﴿ لِلذين استجابُوا لربهِّم الحُسْنى . . . ﴾ . وربط ذلك كله بالعمل العقلي والتبصر بالحقائق الفكرية فقال : ﴿ إنمّا يتذكرُ أولُو الألباب ﴾ .

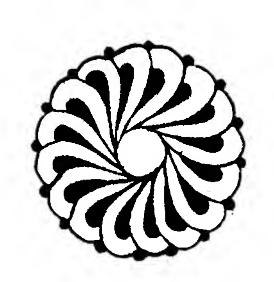
٤ ـ النتائج النظرية والعملية الأخرى : وهي اجتهادات تأملية متجددة لا تنحصر بعدد ولا بنوع ويمكن أن تكون أكثر غنى وأعمق استنتاجاً وأرحب مجالاً وأخصب تناولاً وموضوعاً :

أ ـ الزوجية التقابلية : ونجدها في كل فكرة أساسيةوفرعية : في الدعوة لله والدعوة للشركاء ، والسجود لله مافي السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، والنفع والضر ، والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والزبد الرابي والعادي ، والحق والباطل ، . . . وهي زوجية مقصودة لفظاً ومعنى فإن غرس هذا الجانب العقدي يقتضي مثل هذه الزوجية التي لابد أن توصل إلى (الواحدية) أصل القضية المطروحة .

ب ـ من معاني وسمات الحق الصريح والخفي : فالحق هو الحقيقة والباطل سراب مثل الباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، والحق النافع والباطل التافه اللغو الضلال مثل : الزبد في الوادي والمتاع المفيد، والحق الثابت الراسخ الخالد والباطل الزائل العارض الذاهب مثل : بقاء الماء النافع في الأرض وذهاب الزبد ، والحق المحتاج إلى تبصر ووعي وتفهم حتى يصبح صاحبه بصيراً واعياً فاهماً والباطل الجهل والغفلة مثل الأعمى والجاهل وغافل اللب والفكر .

ج ـ التفريق بين الموجودات المتعارضة والمتشابهة : فمن المتعارضة كما أشرت الأعمى والبصير ، والظلمات والنور . . . ومنها : السجود الطوعي والسجود الكرهي . فالأول سجود المؤمن باختياره طاعة لمولاه ، والثاني سجود الأشياء والمخلوقات التي فطرت عليه . وربط الظلال بأصحابها الساجدين ودوامهم عليه في الغدو والآصال ، ومنها أيضاً : الزبد الطامي المنتفخ من

انجراف التيار المائي والوديان القوية والضعيفة فهو من أصل مائي مع ما يتخلله من أحجار وعصي وأشياء ، بينما الزبد المتاعي الذي قد لا يختلف معه في طبيعته المائية ولكنه يختلف معه في منشئه ونوعيته ومقداره ، وإن التخلص منه مما ينفع الناس ، حتى يتخذ متاعاًمفيداً،فقد أكد الله على هذه النفعية في جمل منها : ﴿ لا يملكونَ لأنفسِهمْ نفعاً ولا ضَراً ﴾ ، وقوله : ﴿ وأمَا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ﴾ وفيه إلهام أن الحق مفيد دوماً ونافع أبداً وإن التبس على الإنسان شيء منه ، وأن النفع الحقيقي من مقاصد القرآن وحضارته ، وهو نفع متاعي صرح به في الطاقة والمعارف وكل ما يبتغيه الإنسان لحاجته ومعاشه ، ولكن حاجة جمالية مقصودة أيضاً هي : جمال الحلية وزينة الذهب والفضة والمعادن الثمينة التي يبتغيها الإنسان ، الحلية الخالصة من الشوائب والزينة الصرفة التي تدوم وتدوم . وهذا يعني أيضاً جمالية الحق ودوامه وتحرره من شوائب الإثم وزبد الباطل .



المسلمون أمة التشريع
(في التشريع النسخ والحق والخير)

ترتبط مسألة النسخ بالحق كما ترتبط بالخير ، فهي كما صرح القرآن ولمّح جامعة لفضيلتي الحق والخيرمعاً، فقد ورد (الخير) صراحة قبل آية النسخ من سورة البقرة وأثناءها وبعدها (٤) مرات ، وهي ﴿ لَمثوبةٌ من عندِ الله خير ﴾ ، ﴿ أن ينزِّلَ عليكمْ مِن خيرٍ ﴾ ، ﴿ فأتِ بخيرٍ منها ﴾ ، ﴿ وما تُقدِّموا لأنفسكم مِن خيرٍ ﴾ وورود تلميحاً أو بمعناه في مواضع منها ﴿ لا تقولُوا راعِنا وقولُوا انظرنَا ﴾ فما نهى الله عنه من القول شر وما أمر به فهو خير وقوله : ﴿ والله يختصُّ برحمتِه ﴾ والرحمة مرادفة للخير وأصل له . بينما ورد (الحق) صراحة مرة واحدة في قوله : ﴿ من بعدِ ما تبينَ لهمُ الحقُّ ﴾ وورد ضمناً في مواضع منها : ﴿ ومن يتبَّدلِ الكفرَ بالإيمانِ فقد ضلَّ سواءَ السبيلِ ﴾ فهنا أربعة ألفاظ تدل على الحق أو الباطل كما جرى عليه العرف القرآني في مرادفات الحق أو الخير . . . وهكذا فإن غلبة (الخير) على الحق مع إرادته في مسالة تشريعية يلهم بالخير الخاص فيها كما يلهم بالخير العام في سائر المسائل التشريعية إلى جانب حقيتها وصوابها ومصداقيتها .

دلالات الحق والخير في آيات النسخ

سورة البقرة (١٠٣ ـ ١١٠)

ومن المناسب أن نوجز أولاً نقاطاً في (النسخ) ثم نستلهم منه دلالات الحق والخير في كتاب الله من خلال النص السابق .

فقد تناوله اللغويون والمفسرون والأصوليون وغيرهم بشكل مستفيض ولم يتركوا نقطة غامضة فيه ، وحسب الباحث أن يأخذ أي مؤلف في اللغة والتفسير والأصول حتى يجد ما يشفي غلّته مما يجعله من أولى مسائل الثقافة الإسلامية عامة

والثقافة المتخصصة عند أربابها خاصة . ففي اللغة : النسخ ، الرفع والإزالة ، تقول العرب : نسخت الشمس الظل ونسخت الريح آثارهم إذا أزالتها ، فأما قولهم : نسخت الكتاب فمعناه : نقلت ما فيه ، وهذا مجاز . وفي الاصطلاح الشرعي : رفع مثل الحكم الثابت [1] ، وقال الرازي [2] : هو طريق شرعي يدل على أن الحكم الذي كان ثابتاً بطريق شرعي لايوجد بعد ذلك مع تراخيه عنه على وجه لولاه لكان ثابتاً ، وهذا في الحقيقة تفسير وشرح لما تقدم . ويذكر صاحب التمهيد : أن الناسخ هو الناصب للدلالة الناسخة يقال : إن الله تعالى نسخ التوجه إلى بيت المقدس فهو ناسخ ويوصف الحكم بأنه ناسخ ، فيقال : نسخ صوم رمضان كل صوم ، ويوصف المعتقد لنسخ الحكم بأنه ناسخ ، فيقال : فلان ينسخ الكتاب بالسنة أي يعتقد ذلك ، ويقال : القرآن ينسخ السنة . والنسخ جائز عقلاً وسمعاً كما قاله الرازي أيضاً ، خلافاً لليهود ، فإن منهم من أنكره عقلاً ، ومنهم من جوّزه عقلاً لكنه منعه سمعاً ، ويروى عن بعض المسلمين إنكاره مثل أبي مسلم الأصبهاني ، ثم ينقل عن العلماء وقوع النسخ في التوراة . واتفق جمهورهم على وقوعه في القرآن واستدلوا عليه بآيات النسخ المشهورة في سورتي البقرة والنحل . وأكدوا على أنه خير كله سواء كان النسخ إلى الأثقل لأنه أكثر ثواباً وإلى الأخف لأنه الأيسر ، وإلى المساوي لأنه توجيه وتعليم ، وربطوا ذلك كله بالصلاح والأصلح ، ومثّلوا للأول نسخ فريضة الركعتين إلى أربع ، وللثاني : نسخ العِدّة من حول إلى أربعة أشهر وعشر ، والثالث : كتحويل الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة .

وبالإضافة لما تقدم يتضح من النص السابق بطوله أمور عديدة نقتصر على أهمها :

١ ـ **النسخ من اعتراضات اليهود والمشركين** : فقد ورد في سبب النزول روايات

---

(١) التمهيد ٢ / ٣٣٥ الشيخ محفوظ الكلوذاني .

(٢) عند تفسير قوله : ما ننسخ من آية . . .

متعددة ، لكل آية أو آيتين مناسبة تشبه أو تقترب من الرواية الأخرى ، فمثلاً في الآية (١٠٤) قال ابن عباس : إن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك ، وكان (راعنا) في كلام اليهود السب القبيح ، فقالوا : إنا كنا نسب محمداً سراً ، فالآن أعلنوا السبّ لمحمد لأنه من كلامهم . . . ولا ريب أن هذا من أقبح التطاول واللّيّ بالقول على رسول الله ﷺ ، وهو يقترب من افتراءاتهم الأخرى وفي مناسبات لاحقة حيث وردت في الآية (١٠٦) أن المفسرين قالوا : إن المشركين قالو : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول لهم قولاً ويرجع عنه غداً ؟ ما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً[1] . . . وروايات أخرى للآيات بعدها نتحدث عنها . . . إنها سذاجة وبدائية في التفكير التشريعي الحي .

٢ ـ ودّان متعارضان في الخير والحق : فالأول ودٌّ منفي يعبر عن سخائم اليهود وحسدهم وضغينتهم ومكرهم لأن مجرد محبة الخير لا يرغبون بنزوله على المسلمين ، وإذ تصطرع في نفوسهم الأحقاد فإن شدّتها وصلت بهم إلى الحضيض في بغض المسلمين وحسدهم ﴿ ما يودُّ الذين كفرُوا من أهلِ الكتابِ أن ينزِّل عليكم من خيرٍ من ربِّكم . . . ﴾ ولذا وصفهم الله بالكفر الذي يزيده إثماً أنه يود أن يسلب النعم عن غيره ويسترها عنه ، والود الثاني هو تمنيهم أن يُرجعوا المسلمين عن دينهم ويردوهم عن إيمانهم إلى الكفر والشرك ، وهو ودّ قديم منذ عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ، فإن المستشرقين اليهود خاصة يزيفون في الإسلام ويفترون في أصوله ليشككوا المسلمين عامة ومثقفيهم خاصة بدينهم وليس إلى دين بديل أو عقيدة أخرى وإنما إلى ضياع ودمار في إنسانية الإنسان الذي يعتبر الدين أخص خصائصها وأشرف مزاياها ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتابِ لو يردُّونكم من بعد إيمانِكم كفاراً حسداً من عندِ أنفسِهم من بعد ما تَبيَّنَ لهم

---

(١) الروايات من : أسباب النزول للواحدي وانظر غيرها في سائر الآيات .

الحق . . . ﴾ والآية صريحة بودّ (كثير) منهم وليس بجميعهم وأن الردة إلى الكفر مقصودة على الرغم من وضوح الحق وصدق الرسالة ومعرفتهم بذلك أتم المعرفة .

٣ ـ النسخ بين افتراء المكذبين وتثبيت المؤمنين وهدايتهم : والنسخ الذي صرح القرآن ولمح بخيريته وحقيته في آيات البقرة كما سبق فإنه في آيات النحل تبديل تشريعي من منزل التشريع الإسلامي ومن الوحي الإلهي ، فالله أعلم بما ينزل وأعلم بما يبدل وإن كان أكثرهم لم يدرك الحكمة في التبديل والخير في التغيير ، لأنهم كانوا يعيشون (طفولة) تشريعية فلا يعلمون أهميته وضرورته في الحركة التشريعية للأمم الحية ﴿ وإذا بدَّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ . . . عربي مبين ﴾ (النحل : ١٠١ ، ١٠٣) .

ولا فرق بين آيات (البقرة) المدنية وآيات (النحل) المكية فإن الشبهة هي هي ولكن من غير أن ينسبها هنا اليهود الذين عرف عنهم تبديل أسفارهم وبيعها وبيع أحكامها الصحيحة بثمن قليل . ويستتبع هذا أن نلاحظ نوعين من التبدل والتبديل : تبدل إلهي صرحت به آية النحل السابقة وذلك لتثبيت قلوب المؤمنين وهدايتهم إلى الحق والخير بينما يتهم المكذبون رسول الله بافتراء آياته ووضعها من تلقاء نفسه أو تعليمها من موالي اليهود والنصارى حتى صرحت آيات أخرى بالنفي القاطع لمثل هذا التبديل الشخصي ﴿ قلْ ما يكونُ لي أن أبدِّله من تلقاءِ نفسي إنْ أتَّبعُ إلاّ مايوحىَ إليّ . . . ﴾ (يونس : ١٥) ، ونوع آخر من التبديل القومي والتجاري والعلمي وهو ما اشتهر به اليهود كما أسلفت وصرح الله به في آيات مدنية ومكية ومنها قوله : ﴿ فبدَّل الذين ظَلمُوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم . . . ﴾ (الأعراف : ١٦٢) فهو تبديل جامع لخيانة العلم والدين والحقائق الثابتة .

أنواع النسخ حق وخير :

فقد قسّم العلماء النسخ إلى ثلاثة أنواع ونبه كثير منهم إلى الحكمة التشريعية فيه والفائدة العملية منه :

١ ـ نسخ الحكم والرسم بمثل قوله : ﴿ عشر رضعات معلومات يحرمن ﴾ نسخت بخمس معلومات ، فتوفي الرسول وهن فيما يقرأ من القرآن [١] .

٢ ـ نسخ الرسم وبقاء الحكم : مثل آية الرجم : « لا ترغبوا عن آبائكم ، فإن ذلك كفر بكم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله والله عزيز حكيم » [٢] .

٣ ـ نسخ الحكم وبقاء الرسم : وهو كثير ، يقول هبة الله بن سلامة (ت ٤١٠ هـ) : فهو في ثلاث وستين سورة ، مثل : الصلاة إلى بيت المقدس ، والصيام الأول ، والصفح عن المشركين والإعراض عن الجاهلين [٣] . . .

ومن الآيات التي تثبت مسألة النسخ قوله : ﴿ ما ننسخْ من آيةٍ أو نُنْسها ﴾ (البقرة : ١٠٧) . ومعنى ﴿ خير منها ﴾ أي أنفع منها لأن الناسخ لا يخلو من أحد النعمتين : إما أن يكون أثقل في الحكم فيكون أوفر في الأجر ، وإما أن يكون أخف في الحكم فيكون أيسر في العمل وقوله : ﴿ وإذا بدَّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلم بما ينزِّل قالوا إنما أنتَ مُفْترٍ بل أكثرُهم لا يعلمون ﴾ (النحل : ١٠١) .

---

(١) مسلم في الرضاع باب : التحريم بخمس رضعات (١٤٥٢) .

(٢) البخاري في المحاربين : باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢) ، وفي بعضها نظر .

(٣) الناسخ والمنسوخ : ١٣ وما بعد تخريج وتعليق د . مصطفى ديب البغا ـ اليمامة دمشق بيروت ١٩٨٧ م / ١٤٠٧ هـ .

والمعنى : حكم آية ، ثم يقول : ولأن في إثبات الناسخ والمنسوخ في القرآن دلالة على وحدانية الله تعالى ، ذكره بقوله : ﴿ ألا لهُ الخَلْقُ والأمرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

ويقع النسخ في الأمر والنهي والخبر الذي في معنى الأمر والنهي مثل : ﴿ الزَّاني لا ينكِحُ إلا زانيةً أو مُشْركة . . . ﴾ (النور : ٣) ومعناه : لا تنكحوا زانية ولا مشركة . وقوله : ﴿ ولكنْ رسولَ الله ﴾ (الأحزاب : ٤٠) أي تعالوا له ، وعدّ بعضهم الاستثناء من النسخ [1] . . .

ويمكن أن نشرح (الحق) في النسخ من جهتين : أولاهما من جهة المصدرية التشريعية التي يختص بها الله تعالى وحده فهو منزل التشريع ، وله أن ينسخ بعضه فهو حقه في كلتا الحالتين ، وثانيتهما : أن التشريع يقصد به مصلحة العباد ورحمتهم ومنافعهم الحقيقية ـ وإن كان لله أن يشرع ما يشاء أصلاً ـ فالله لا يريد إعنات خلقه ولا تكليفهم بما لا يطاق ، فقد رفع عنهم الإصر والحرج ودعاهم إلى مافيه صلاحهم ونهاهم عما فيه شقاؤهم في الدنيا والآخرة ، وبين لهم الحجج الساطعة والبراهين المقنعة ووجّهم إلى التعرف على الحق الشاهد والحق الغيبي بالتأمل الجاد والنظر الثاقب فإذا نسخ الله حكماً أو مسألة فإنه يتصرف بذلك من اسمه وصفته الحق والحكيم والمهيمن والعليم والحسيب ، ولمنعفة المكلفين، فله وحده ما يحقه ومايبطله وما يثبته وما ينفيه .

وكذلك فإن ظهور (الخير) في النسخ جعل العلماء يوسّعون فيه الدرس والبحث، فذكروا (ضرورته) من الوجهة التشريعية التي تدل على حيوية التشريع وقابليته للتطور الحضاري وخلوده وقدرته على استيعاب المستجدات والمسائل الطارئة ، وإمكان تبدل فروع منه بتبدل المكان والزمان ، وأن العادة محكمة ، والعقد شريعة المتعاقدين ، والاجتهاد الثاني يرفع الأول وينسخ حكمه ، وأن لمعظم الأئمة والمجتهدين أكثر من قول واحد في مسألة واحدة ،

(١) السابق : ٢٠ .

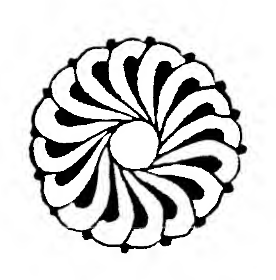
حتى عرفت مصادر تشريعية فرعية تمت إلى (الخير) بصلات واضحة منها : المصالح المرسلة ، والاستحسان ، والعرف .

ولكن تبقى نقطة تحتاج إلى مزيد من الإيضاح والتفسير وهي : نسخ الحكم إلى مثله كما صرحت به الآية ﴿ . . . نأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها . . . ﴾ . ونتناول ذلك من جانبين :

أ ـ الجانب الابتلائي الاختباري ومدى استجابة المسلمين وطاعتهم للنسخ المثلي مادام ذلك من الله المشرّع ، ومدى إعراض واعتراض العصاة والمزيفين على هذه الصورة من النسخ غير المفهوم عندهم ، وفي رأيي أن هذه الوجهة خاصة بالله تعالى ولحكمة الابتلاء السابقة يجري مثل هذه الصورة ، أما العلماء والمجتهدون فعليهم أن يختاروا ما أمكنهم وما أوصلهم اجتهادهم في غير مسائل النسخ إلى أن يكون البديل خيراً من المبدل منه ، وأن يصبح الحكم الجديد أصلح من القديم . وإلى هذا يشير قوله تعالى منبهاً إلى عظيم قدرته في آخر الآية ﴿ ألَمْ ترَ أنَّ الله على كلِ شيءٍ قديرٌ ﴾ .

ب ـ الجانب التوجيهي التشريعي : وهو جانب هام جداً لأنه يلبي حاجة المجتمع التشريعية وذلك لتربية الحسّ الاجتهادي وإعداد أهله نفسياً وعلمياً واجتهادياً للتغيير كلما احتاج المسلمون إلى النسخ والتبديل ، ومن ثم دفع العلماء إلى متابعة الاستنباطات الفقهية عبر الأزمنة المتطاولة مهما بدا فيها التعارض والتجديد ، وعندئذ تصبح الروح الاجتهادية سمة ومسئولية أولى الأمر معاً ، ومثل ما وصف الله به المؤمنين بالشورى في أمورهم وهي ذات صلة بالنسخ فقال : ﴿ وأمرُهمْ شُورى بينهمْ ﴾ . فإن وصفهم وبخاصة العلماء القادرين على الاجتهاد ، بالعلمية الاجتهادية تبرز حكمة الله في صلاح الإسلام لجميع الأزمنة والأمكنة والأجيال ، وتصرف عنه شبهة الجمود في الفروع وليس بالأصول ورسوخها وثباتها .

وأخيراً فإن العلماء مطالبون بتتبع مسائل اجتهادية مختلف منها قديمة وحديثة سواء كان منبتها البيئة الإسلامية أو كان منشئوها خارجاً عنها ، ويراعون مصالح المسلمين الحقيقية التي لا تتعارض مع الأصول الصريحة الثابتة ، فإن تقدمهم الحضاري وتفوقهم العمراني متوقف إلى حد كبير على نشاطهم الاجتهادي وفعالياتهم التشريعية .



الخاتمة

إن تتبع (الخير) ومرادفاته في القرآن والدراسة الحضارية المتناثرة في فقراته وموضوعاته ، وقيام (العمران) الصالح عليه وبنائه المتميز فيه ، وضرورة اقترانه بالحق في تأسيس هذا العمران يدفعنا إلى النتائج التالية :

أولاً : صياغة الخير في المفهوم القرآني :

فقد سبق معنا مفاهيم فلسفية وأخلاقية تتأرجح بين الخطأ في بعضها والإصابة في بعضها الآخر ، وترتبط بالتقاليد العرفية والوثنية في أجزاء منها وتتعمق في المثالية والمادية والتطورية في معظمها عند أربابها المثاليين والماديين ، وتأخذ مواقع هامة ورحبة عند فئة بينما تضيق هذه المواقع وتتحدد عند فئة أخرى ، وتطرح نظراتُ مشكلاتها وعقدها في الخير حتى تشكله وفقها وتسبح نظرات أخرى في آفاق الخيال وشطحات بعيدة من الواقع وحياة الناس . ويختلف هؤلاء وأولئك ، ويشتد الخلاف والصراع بينهم في معاييره وقيمه وجوهره حتى لا يكاد الباحث يعثر على قدر مشترك من المفهوم الشامل والكلي . ومادامت النظرات متباعدة والأفكار متعارضة والنتائج متباينة والمفاهيم مختلفة طبقاً لاختلاف القدرات الإنسانية الوهبية والكسبية والظروف الحياتية والأرصدة المعرفية فإن المرجع الأمين والمفهوم الأصح والأصلح هو ما نجده في ثنايا كتاب الله الزاخر بالخير والقائم على الهدى والبر ، ليس لأنه سجل حافل بمواقع الخير الشاملة وحدها وإنما باعتبار أن الله مصدره ومنعمه ومشرّع مافيه نفعاً للإنسان في الدارين .

ويمكن صياغته مستنتجاً من الدراسة السابقة كمايلي :

هو (ومرادفاته) من أعظم القيم القرآنية ، النظرية المعنوية ، والمادية العملية ، يتجاوز نفعهُ الدنيا إلى الآخرة ، ومن أكثر المواد القرآنية وروداً ، وهو

إلى غلبته على الشر ـ عكس الخير ـ أخص خصائص الإنسان شعوراً وعملاً ، ووسيلة إلى الخير ، وقاعدة راسخة من قواعد الحضارة الواقعية المثالية ، يتآزر مع الحق في بنائها ، ويستوعب بمفرداته مجالات الحياة في ذواتها وأعمالها وفي تقويم حكمي دقيق للواجب والمندوب والجائز مقابل المحرم والمكروه ، وذلك ضمن أطر المسئولية الكلية ، والقرآن إذ يدّل على القيم الجوهرية والحقيقية للخير فإنه يستوعب العواطف السامية ، ويشمل الإلهيات والنبوات والعقائد والعبادات والتشريع والأخلاق في إحاطة لم تعرف لمذهب آخر ، وفي رصف بياني معجز ومؤثر .

ثانياً : بين الحق والخير :

إن نواحي التشابه في دلالات الحق والخير من الوجهة القرآنية أكثر عمقاً وتداخلاً وصلات من نواحي الفروق والاختلاف بينهما :

١ ـ فهما قيمتان هامتان أو الأكثر أهمية في القرآن ، وقيمتان أكثر ضرورة في أساسيات حضارته ، ويغلب الحق على الخير مادة وروداً ويغلب الخير على الحق في المجالات والمترادفات .

٢ ـ ومواقع الخير هي ذاتها مواقع الحق وخصائصه ، فالخير مثل الحق أنه ثابت وعام وخاص وشامل وأصل وفرع ومطلق وواحد ومتعدد ، وذلك حسب السياق والموضوع المعالج والهدف أو الأهداف المقصودة . ومن ناحية أخرى فالمسائل الاعتقادية والعملية متناظرة ، فالاعتقاد بالحق والعمل به خير ، والعمل بالخيرات يسبقه علم بحقيتها وصدقها ، والقيام بالعمل البنائي الحضاري مسئولية مشتركة بينهما تتلازم معهما عناصر البناء والبناة والمادة البنائية وفاعلية النباء ، والتقويم .

٣ ـ قيمتا الحق والخير ثابتتان ، فكما أنه لا يتحول الحق إلى الباطل ولا الباطل إلى الحق ولا يصير الحق باطلاً في وقت واحد وحالة معينة فإن الخير لا يتبدل إلى الشر وإن الشر لا ينقلب إلى الخير ولا يصير الخير شراً في حادثة واحدة وزمن واحد . فالحق حق ، والخير خير ولن يلتقي الحق بالباطل ولا الخير بالشر .

٤ ـ حامل الحق والخير قد يتغير إلى حمل الباطل والشر وبالعكس لسبب أو وسيلة مغيِّرة ، ولكن لا يكون الشخص الواحد محقاً مبطلاً في حالة واحدة وزمن معين مثل ما أنه لا يمكن أن يصير الخيِّر شريراً في عمل واحد ، مع أنه قد يحمل في نفسه عدداً من الحقوق والخيور وعدداً آخر من الأباطيل والشرور .

٥ ـ لكل من الحق والخير سلطان عقلي وحجة ذاتية وقوة قيمية وإن غلب على الحق الفكر والمعنى وغلب على الخير الفعل والسلوك ، فالله حق يأمر عباده بفعل الخير ، والنبوات حق وخير لما فيها من الفكر العقدي الإيماني والدعوة إلى كرائم الأعمال وفضائل الأخلاق .

٦ ـ للحق والخير عموم وشمول وجمالية فجميع الأشياء والأحكام والأحداث والأعمال والموجودات إما حق وخير وإما باطل وشر ، والأشخاص إما أن يكونوا على حق وخير وإما أن يكونوا على باطل وشر ، وللحق والخير جمال الفكر والعمل وللشر والباطل قباحة الأصل والواقع مهما تزين الباطل والشر وتجرد الحق والخير ، وتغلب جمالية الفكر على الحق وجمالية الفعل على الخير ، ولذا تفرد الحق والجمال بالله اسماً وصفة وفعلاً ، وتفرد بالخير فعلاً وخلْقاً .

٧ ـ من معاني الحق الواجب واللازم ومنه الحقوق والواجبات الخاصة والعامة ، وليس للخير ذلك ولكنه قد يكون صفة له كما يكون وصفاً للمندوب والمباح والجائز ، وهذا يعني تقنين الحق في معانيه الحقوقية من قبل الحقوقين في الوجوب واللزوم والتسلط والتملك ، وتوجيه الخير لمعانيه الخيِّرة من قبل الأخلاقيين في الحث على فعله والالتزام به فالحق قضية فلسفية حقوقية فقهية ، والخير قضية فلسفة أخلاقية عملية .

٨ ـ الحق يعني الحقيقة والعلم واليقين ، وهو يقوم على الحجة المقنعة والبرهان الصادق ﴿ ويعلمُون أنَّها الحقُّ ألا إنّ الذين يمارُون في السّاعة لفي ضلال بعيد ﴾ (الشورى : ١٨) ويقابله : الظن والشك وأحياناً الافتراء ، والخير يعني أو يماثل الصلاح والبر كما أشرت ويقابله الفساد والإثم ويتبع هذا اقتصاره الحق على الذهنيات وعدم ارتباطه بالعواطف والسلوكيات وإن وصفتا به

أحياناً ويشترك (الضلال) في أنه ضد الحق والخير لأنه قد يكون ضلالاً عن علم وحق ، وقد يكون ضلالاً عن الهدى والمعروف والطيب ﴿ أفرأيتَ مِنَ اتخذَ إلهُ هواه وأضلَّه الله على علمٍ وختمَ على سمعهِ وقلبهِ . . . ﴾ (الجاثية : ٢٣) .

ثالثاً : واقعيات في الحضارة القرآنية والخير :

إن أكثر القواعد والمبادىء السابقة كانت قد أرست حضارة المسلمين في الجيل الإسلامي الأول ، وهي بإمكانها أن يشهد العالم واقعيتها وحضورها مقتبسة من الخير القرآني في كل حين . وإذا ضمَّنا الخير بالحق فإن البحث يؤدي بنا إلى وزْن واقعي بين الحضارات المختلفة والمعاصرة في العالم . وموازنتها بحضارة القرآن . ومن ذلك :

١ ـ العمومية والشمولية :

وهي أجلى المعاينات في الأعراق والألسنة والبلدان التي تظلها حضارة الإسلام بظلالها الوارفة فقد يلتقي في بلاد الإسلام أكثر الأجناس التي يقل أن تحتويها أية حضارة معاصرة أخرى على شكل ولايات أو أقاليم أو مقاطعات أو أي شكل آخر تستند إلى الأصول الحضارية الثابتة ، ومن ثم تتحرك ضمن أطر الخير والحق الإسلاميين.ونضيف إلى العمومية التي سبق الكلام عليها أن الخير مثل الحق لجميع الناس ، وأهل الخير ليسوا طبقة أو جماعة أو أسرة فإن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وكذلك فإنه لا يحق للعظماء مثل ما أن الشر لا يجب للمحتقرين (المنبوذين) وقد كذَّب نوح عليه السلام قومه في حواره معهم ﴿ ولا أقولُ لِلذين تَزْدري أعينُكم لن يؤتيهمُ الله خيراً الله أعلمُ بما في نفوسِهمْ ﴾ (هود : ٣١) وأن التظاهر بالخير وإعلاء شعاراته والدعوى العريضة به لا ينقل صاحبه إليه ولا يستدل منه على موقف جوهري وحقيقي ﴿ وقالَ الذينَ كفرُوا لِلذين آمنُوا لو كانَ خيراً ما سبقُونا إليه وإذْ لم يهتَدوا به فسيقولُون هذا إفكٌ قديمٌ ﴾ (الأحقاف : ١١) إنه ليس دعاوى كاذبة مفاخرة ﴿ وما أظنّ الساعةَ قائمةً ولئن رددتُ إلى ربِّي لأجدنَّ خيراً منها مُنْقَلباً ﴾ (الكهف : ٣٦) وإنما هو أخلاق وأعمال مثل عفو الإنسان وإصلاحه ولجوئه إلى الله الأقوى والأقدر ﴿ وجزاءُ سيئةٍ

سيئةٌ مثلُها فمن عفَا وأصلحَ فأجرُه على الله إنَّهُ لا يُحب الظالمين ﴾ (الشورى : ٤٠)[1]

وفي مقدمة الظواهر الحضارية الواقعية تعدد اللغات والأقوام كما أشرت ، فالحضارة لا تتم باللغة الوحيدة ولا باللسان الواحد ﴿ ومِنْ آياتِه اختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم ﴾ (الروم : ٢٢) وقد نسب إليه تعليم (الإنسان) أي إنسان بيانه ولهجته ﴿ خلقَ الإنسَان علَّمه البيان ﴾ (الرحمن : ٤) ، ولذا فإن (التعريب) و(الترجمة) إحدى ظواهر الحضارة متعددة اللغات والألسنة التي يتطلع أهلها جميعاً إلى تعلم العربية الفصحى اللغة الأم واللسان الأصل لدعم الوحدة الثقافية واللغوية في هذه الحضارة المثلى .

وكذلك فإن شمولية الخير كما أشرت تستوعب كل الواجبات المندوبات والمباحات والعادات الحسنة ، وتشمل صلاح الأرض والسماء والكون والأحياء ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لفَسدتا ﴾ (الأنبياء : ٢٢) في ربط حضاري خيِّر بين المخلوقات العلوية والأرضية ، فالخير النفسي والمعنوي والمادي والفردي والاجتماعي والدولي من ظاهرة الشمولية ، ولذا فإن الحق خير والعلم خير ، والإيمان خير ، والعمل خير والدعوة إلى الإسلام خير وعمارة الأرض خير ، وتحضير الآخرين خير ، والمسئولية الشخصية والأسرية والعامة خير ، ومن أهمها ربط القانون الأخلاقي بالمؤسسات المعاشية والعلمية وأجهزة الدولة المختلفة ومرافق الناس المتشعبة .

٢ ـ الدعوة والمسئولية :

فالمسلمون أمة الدعوة وأمة المسئولية وهما كما بينت من صميم الخير ومن أولى مهام المسلمين ، فإن حمل الدعاة للخير مسئولية إسلامية عظيمة ، وبالعكس فإن من أعظم مسئولياتهم الدعوة إلى الإسلام وحضارته ، والقيمة المعنوية للخير وحمله من الدعاة يدفع بهم إلى تحسين العملية التبليغية في إطارها

---

(١) وانظر آيات (الرعد : ٢٢) و(المؤمنون : ٩٦) و(القصص : ٥٤) و(فصلت : ٣٤) .

الخصوصي بينما تعم مسئولية الدعوة أفراد المسلمين جميعهم ، وتبقى آية (النحل : ١٢٥) ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِالحسنةِ. . المهتدين ﴾ شعار الدعاة ومنهجهم الفكري والعملي والدعوي تتآزر مع التصريح بجمهور الدعاة الكبير ﴿ ولتكنْ منكُم أمةٌ يـدعُون إلى الخـير . . . ﴾ (آل عمران : ١٠٤) ، فالمطلوب تكوين أمة الدعوة (ولتكن) لتحمل مسئولية العمل منها (ادع) ، ومجالها (سبيل الله) وهو الإسلام ، ومواصفاتها : الإحكام ، والصحة ، وتقديم الأدلة الموضحة للحق والمزيل للشبـه (بالحكمة) ، وكذلك : الوعظ الموصوف بالحسن حتى يكتسي بالاقناع والجمال وبيان العبر النافعة والنصح المخلص ، ويتجرد من الموعظة المنفرة والأسلوب الفظ (الموعظة الحسنة) ، وثالثها : المجادلة وليست المخاصمة ولا السفسطة الفارغة وشرطها أن تكون ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ ولا يكتفي أن تكون بالحسنى وحدها وإنما (بالأحسن) منها ، فهي رفق ولين واختيار أنسب الحجج وألصقها بالحق والحقيقة ، وأن تثير الفطر السليمة وتكشف عنها حجب الأثقال ، فإن الضلال شيء عارض (بمن ضل) والهداية حقيقة ثابتة بـ (المهتدين) في النفس البشرية ولذا فإنها تتطلب دعاة الحكمة والموعظة الحسنة .

والمسئولية لا تخص الدعوة والدعاة وإنما تعم كل (رعاية) خاصة وعامة بداية من الذات الإنسانية ونهاية بمصائر الأمم والنحل والأقوام « وكلكم راع ومسئول عن رعيته » ، وبذلك تقضي حضارة القرآن على الفردية الطاغية ، والغربة القاتلة ، والفوضوية المستهترة والزمرية الضيقة ، وهي مسئولية (حقوقية) دنيوية وأخروية تترتب عليها المثوبات والعقوبات مثل ما تترتب عليها كرامة الفرد المسلم في الجماعة الإسلامية والبشرية : فالكلمة مسئولية والعمل أياً كان مسئول ، والوعي الاجتماعي أثر ومؤثر في هذه المسئولية ينميه الإسلام إلى جانب يقظة الضمير وصحوة النفس لمراقبة الله تعالى .

٣ ـ المسارعة في الخيرات :

ويمكن أن تنضبط في المسئولية وتعد أثراً لها ويمكن أن تكون بآثارها شعوراً

عاماً يتنبه لها الغافلون والمهلمون . والمسابقون في الخيرات في مقدمة التصنيف البشري ﴿ ثم أورثْنَا الكتابَ الذين اصطَفينْا من عبادِنا فمنهمْ ظالمٌ لنفسهِ ومنهم مُقتصِدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذن الله ذلك هو الفضلُ الكبير ﴾ (فاطر : ٣٢) يقول أبو السعود : هم علماء الصحابة ومن بعدهم [1] .

ومهما اختلفت الوجهات فإن المطلوب من المختلفين التنافس في الأعمال الصالحة ﴿ ولكلٍ وجهةٌ هو مولِّيها فاستبِقُوا الخيراتِ ﴾ (البقرة : ١٤٨) حتى وصف بها المؤمنون من أهل الكتاب ﴿ يُسَارِعون في الخيرات وأولئكَ من الصالحين ﴾ (آل عمران : ١١٤) وذلك لأنها وحي الله لأنبيائه ﴿ وجعلناهُم أئمةً يهدُون بأمرِنا وأوحينَا إليهمْ فِعْلَ الخيراتِ . . وكانُوا لنا عابِدين ﴾ (الأنبياء : ٧٣) ووصف بها أنبياؤهم بأعيانهم مثل زكريا وزوجه وابنيهما يحيى عليهم السلام ﴿ إنهم كانُوا يسارِعون في الخيراتِ ويدعونَنا رغَباً ورهَباً ﴾ (الأنبياء :٩٠) ولكن ليس الإمداد بالأموال والبنين مسارعة في الخيرات دائماً فقد يكون إملاء وإمهالاً واستدراجاً ، والمهم هو أن يشعر الناس بذلك فلا تختلط عليهم المعايير والعطاءات ، وأن يعلموا أنها الخشية من الله والاشفاق من غضبه وعقابه ، والإيمان بآياته وتوحيد الله الخالص وانفاق الأموال ، والخوف من المصير ﴿ أيحسَبُون أنَّما نُمِدُّهم به من مالٍ وبنينَ نسارِعُ لهمْ في الخيرات ﴾ (المؤمنون : ٥٥ - ٦١) .

ففي الآيات : إثارة الشعور والتأمل والمعرفة الحقيقية للخير والشر والحق والباطل ، وأن الاستدراج نقمة وليس نعمة وبسط الأموال والمظاهر ليسا قيماً حقيقيه ، وأن الحضارة عطاء وتضحيات وواجبات قبل أن تكون مكاسب وحظوظاً وحقوقاً ، وأن المسلمين (سابقون) متقدمون حين يتنافسون في الخيرات : فلم تعجل لهم دنياهم وإنما جمعوا خير الدنيا والآخرة .

٤ ـ هل في حضارة المسلمين شر وأشرار ؟ :

فمن المعروف أن الفرد والجماعة تتنازعهم قوتان : حق وباطل ، وخير

وشر ، ومهما كثر أصحاب الحق والخير فإن فيهم وفيمن جاورهم أصحاب الباطل والشر ، فالناس هم الناس ليسوا ملائكة ولا شياطين ، ومن الصعب أن يصبحوا كلهم أخياراً أو كلهم أشراراً ، والعبرة بغلبة أحد الفريقين وبوجود ظواهر أو اتجاهات سائدة للخير أو للشر ، وهذا يتطلب من الأخيار أن يشدّوا إليهم الأشرار كما يتطلب منهم أن يشيعوا الحق في الجميع ، ومثل هذه النظرة العامة ومتطلباتها لا تغض من قيمة المجتمع الإسلامي ولا من تفوقه الحضاري ولا من العناصر الفعّالة فيه ، فكل فرد إذ يأخذ دوره الحضاري فإنه يجازى عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والحصيلة القريبة أو البعيدة هي احتواء الخير الشر حتى يعود إليه ، و(تغيير) الأشرار للأخيار حتى يصيروا مثلهم ، وهي عملية يتطلع إليها الراشدون والدعاة في كل جيل .

ولكن إذا وقع شيء بخلافه أو كانت مداخلات العناصر المعوّقة والمبطلة تحاول إيقاف المسيرة الحضارية الإسلامية فإن التربية الاجتماعية والمدرسية المتخصصة تقوم بأعظم الأدوار في جمع الشمل ووحدة الاتجاه تحت ظلال القرآن ولذا فلا يستبعد أو يرفض الأشرار ولا المبطلون من مجتمعهم ، وإنما يعالجون من مشكلاتهم المعاشية والثقافية والبيئية ، وإذاً فليسوا مشكلة متسعصية في حد ذاتها وإنما قد يعيشون في ضيق ومصاعب فلابد من معالجتها ، ولكن المشلكة هي في بقائهم من غير نصحية واحتواء .

ونبه القرآن إلى أصناف المؤمنين كما أشرت ، ومنهم : أصحاب (الأعراف) الذين أنزل الله فيهم سورة كاملة وقد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فالله يغفر لهم هذه السيئات فيمابعد ، ومنهم الخالطون أعمالهم الصالحة بالسيئة ﴿ وآخَرونَ اعترفُوا بذنوبِهم خلطَوا عمَلاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسى الله أن يتوبَ عليهم إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ (التوبة : ١٠٢) فهؤلاء قد عملوا خيراً وشراً ولكنهم يقرون بذنوبهم ويعترفون بأخطائهم ، أما أولئك المتمردون ومنهم المحاربون لله ورسوله والمفسدون في الأرض فعليهم العقوبات الجنائية والحدود الرادعة . ولكن وجودهم لا يسيء إلى المجتمع المسلم ككل ، ولا ينبغي أن

يكون كذلك ، ومنهم أيضاً الأشخاص الذين يفعلون (اللمم) على خلاف في مفرداته فإن ذلك لا يخرجهم عن أصل الإيمان ولا عن مجتمعه وإنما لابد من تأديب المتطاولين ، والأخذ على يد المنحرفين وتربية المذنبين صغار الذنوب حتى يعودوا إلى الصف الإسلامي النظيف ، والقاعدة المبدئية العامة هي أن الخير يمحو الشر و﴿ إن الحسناتِ يُذهبْنَ السيئاتِ ﴾ (هود : ١١٤) ومنهم أيضاً أهل الملل الأخرى الذين يقدّر الإسلام مواهبهم ويقربهم منازل علمية وفنية حين يكونوا أعضاء مساهمين في الحركة العلمية والفنية ولا شأن للمسلمين بدينهم ولا اعتراض عليهم بعبادتهم وحياتهم ولكنهم يكونون ضمن اهتمامات الدعاة المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة ، من غير عنصرية مذهبية ولا شرذمة طائفية . فالإسلام وحضارته يسعهم كما يسع المسلمين سواء بسواء في أحداثه وأموره الواقعية وتطلعاته الطموحة .

٥ ـ الحياة الطيبة والاتقان :

وهي مسألة تتعلق بالعمل الإسلامي الجاد في مفهومه الواسع الذي يشيع الطيب والخير في حياة المسلمين ، والاتقان الذي يترافق دائماً مع الفعالية الإنسانية والنشاطات البشرية سمة المسلم وأمارة على أمانته ، ومظهر لحرصه على المصالح العامة أكثر من حرصه على المصلحة الخاصة ، ورجاء الثواب من الله في الآخرة أكثر من رجائه مثوبة الناس في الدنيا ، إنها تربية الإسلام للفرد تربية اجتماعية صالحة، فالعاملون أوسع شرائح المجتمع وأكثرها دعامة لمؤسساته الاقتصادية والطبية والعلمية والأدبية ، وأنهض لمؤسساته الصناعية والزراعية والعمالية ، وقيام كل فرد في فصيلته ، وكل فصيلة في قطاعات الخدمات النافعة العامة أيا كانت صورتها ومجالاتها وصلتها بالحياة الاجتماعية يحقق الحياة (الطيبة) المرجوة التي نستلهم معانيها النظرية ومنافعها العملية من الرجل والمرأة على السواء كل في اختصاصاته ومنشطه ﴿ مَن عملَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنْثى وهو مؤمنٌ فلَنحيينَّهُ حياةً طيبةً ولَنجزينَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانُوا يعملون ﴾ (النحل : ٩٧) والحياة الطيبة الدنيوية حصيلة كل عمل طيب وكل جهد مثمر

في الأموال والطعام والزواج والذرية والمهن والأعمال والفضائل والكلم الطيب . . . وهذا ليس كمّا متنافراً ولا صوراً متعارضة وإنما هي مجمّعات متكاملة لمجتمع واحد متكامل ، وهو لا يتحقق كما قلت إلا بالاتقان والإحسان ﴿ قل يا عباد الذين آمنُوا اتقُوا ربَّكم للذين أحسنُوا في هذه حسنةٌ وأرضُ الله واسعةٌ إنما يوفَّى الصابرونُ أجرَهُم بغيرِ حساب ﴾ (الزمر : ١٠) وإن من الأهمية بمكان هنا ملاحظة (التقوى) مع (الإحسان) ووفاء (الصابرين) أجرهم بغير حساب ، ومن الاتقان الإفادة من الطاقات الإنسانية حسب اختصاصها وتجاربها وفعالياتها ، وتوجيه الطاقات المبعثرة وجهة متناسقة مثمرة بناءة ، وإيجاد فرص العمل لكل ذي اختصاص ، ومتابعة التطورات العلمية العملية ضمن حوافز أخروية أكثر من الحوافز الدنيوية المادية ، وشحن الروح بطاقات فاعلة للقيام بأفضل أنواع العمل وأدقه وأنفعه .

٦ ـ الحضارة ابتلاء وفتنة :

فكل ما فيها من حق وباطل وصلاح وفساد ، وأفراد مختلفين في المواهب والقدرات المادية والمعنوية وما يتبعها من إنجازات عمرانية متنوعة ، خاضعة لمعايير الخير والشر ، والقبول والرفض ، والثواب والعقاب ، فلا يهدر عمل من غير جزاء ، ولا يقدم خير من غير مثوبة ، ولا يقترف جرم من غير عقوبة ، ثم إن الميراث الحضاري والمحافظة عليه وتطوير ما يمكن أو يجوز تطويره من المسئوليات الهامة التي يبتلي بها صناع الحضارة فما أقدموا عليه من خير فيثابون عليه ، وما أقدموا عليه من شر فيعاقبون عليه ، بالإضافة إلى مواقفهم البناءة والهدامة في التاريخ الحضاري العام وموقف التاريخ الحضاري منهم .

والابتلاء العام في الخير العام والشامل ، والشر الجامع واضح في كل جزئية أو جانب في الحضارة ، وقد أكد الله العمومية والشمولية في البلوى بقوله : ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكُم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرجعون ﴾ (الأنبياء : ٣٥) . وفي الآية نظرة في ناحيتين : الابتلاء بالخير مثل الابتلاء بالشر إلى نهاية قصيرة محتومة وهي الموت ، وأن حصيلة الفتنة والابتلاء إلى الله إن

خيراً أو شراً .

ومثل هذا مصرح به (جمعاً) في قوله : ﴿ وبلوناهُم بالحسناتِ والسيئاتِ لعلهم يَرجعون ﴾ (الأعراف : ١٦٨) . حتى إن الحياة كلها والموت لجميع الناس ابتلاء ﴿ الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكُمْ أيكُمْ أحسنُ عمَلاً ﴾ (الملك : ٢) . وواضح أن هذا الابتلاء لا للحياة بذاتها ولا للموت بعينه وإنما هو للأعمال والمظاهر والحركة الإنسانية مدار البلوى والفتن .

ولذا فلا مشكلة حقيقية في الخير الذي يدّعي أناس أنه لا يتناسب مع صفات الله الرحيم الحكيم الرؤوف السلام المؤمن ، ولا مشكلة في الشر الذي ينسبه أناس إلى فعل الإنسان حقيقة لا أدباً .

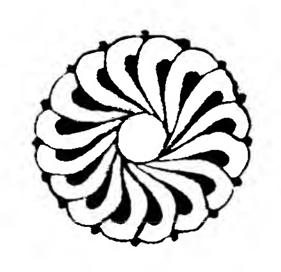
فالفساد الحضاري من صنع المفسدين ومن بلائهم وبإرادة الله ومشيئته ، لا بأمره ورضاه ، وهو متلازم مع تبديل الدين وزوال العقيدة ، فلا حضارة بفساد ولا عقيدة بفساد ﴿ إنّي أخافُ أن يُبدِّل دينَكم أو أن يُظهِرَ في الأرض الفسادَ ﴾ (غافر : ٢٦) والفساد المستمر فتنة مستمرة تتنافى مع الإصلاح الدائم الباقي ﴿ الذين يُفِسدون في الأرضِ ولا يُصْلحون ﴾ (الشعراء : ١٥٢). وإن انتظام الحياة وارتفاق الناس معاشهم منها يقتضي (مدافعة) الله الناس للجهاد من أجل إصلاح الإنسان والحياة والدفاع عن المقدسات الدينية ومنشآتها ﴿ ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَفسدت الأرضُ . . . ﴾ (البقرة: ٢٥١). وهذا (حق) حاضر في معايش الناس وحياتهم الدينية ولذا عقب بقوله : ﴿ تلكَ آياتُ الله نَتْلوها عليكَ بالحق ﴾ (٢٥٢) .

يقول أبو السعود : لولا دفع الله بعض الذين يباشرون الشر والفساد (ببعض) آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل . . . أو غيره ﴿ لفسدت الأرض ﴾ وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها . . . كأنه قيل : ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتنتظم به مصالح العالم وتنصلح أموال الأمم .

إن سنة (المدافعة) الصالحة للجهاد النفسي والقتالي دعامة في صلاح الحضارة

أيضاً ، وهي معيار دائم راسخ في سنة (الابتلاء) الحضاري الذي يدفع إلى اتباع الحق والخير والامتناع عن الأهواء والشهوات .

وإن مثل هذا الواقع بقيمه وأحداثه الحاضرة يسمو بالحضارة القرآنية على سائر الحضارات فهل يطمح إنسان الماضي والحاضر والمستقبل بأكثر من هذا ليعيش في ظلال الحق والخير والسيادة في الدنيا أفراداً وجماعات وأمماً ؟ فإذا أضيف إليها سعادة الآخرة الأبدية فماذا يبقى من الأماني والآمال الأخرى ؟ إنها حضارة الخير والبر والرحمة والهدى يدعونا القرآن إلى تحقيقها وتمثلها والقيام بها فهل نحن متأملون ومنفعلون وفاعلون ؟





الفهرس

الموضوع **الصفحة**

